علماء ومفكرون معاصرون
لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم
٣٨



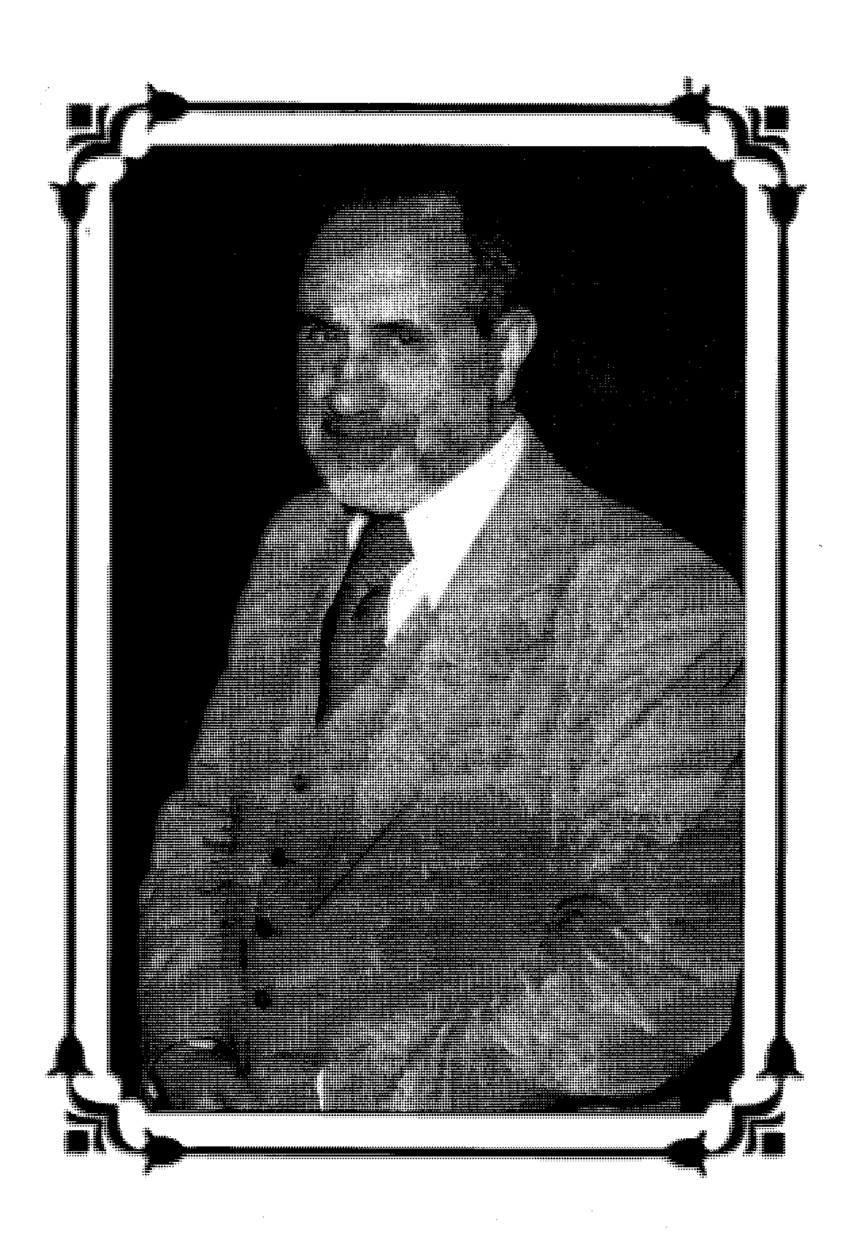
شكري فيصل

العالم الأديب المجمعي

تأليف

د. محمد مطيع الحافظ





شكري فيصل

الطَّبْعَة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

تُطلب جميع كتبنا من:
دار القلم - دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
الدار الشامية - بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١
www.alkalam-sy.com

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:
دار البشير - جدّة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

علماء ومفكرون معاصرون

لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم





شكري فيصل

العالم الأديب المجمعي

(١٣٣٦-١٤٠٥ هـ/١٩١٨-١٩٨٥ م)

تأليف

د. محمد مطيع الحافظ

دار القلم

دمشق

المقدمة

تعود صلتي بالأستاذ الدكتور شكري فيصل رحمه الله إلى زمن بعيد ، فقد امتلأت منه عيني عندما كان بين الحينِ والآخر يزورُ حيَّنا ـ حيَّ العُقيبة ـ الذي نشأ فيه زمنَ صباه ، ليصلَ أرحامه ، ويتّصل بكبارِ أهلِ العلمِ والوُجهاء ، وكان مَقْدَمُه يلفِتُ الأنظارَ حقاً ، ويُثيرُ الانتباهَ إليه ، بما كان يلقىٰ الناسَ بالبشاشةِ والكلامِ الطيِّبِ الذي كنتُ أسمعه منه يخرج من فمه علىٰ استحياءٍ ، وبنبرةٍ متواضعةٍ لَم تكن لتقلِّلَ من قدره بين الذين يتردّدُ عليهم ، وإنّما كانوا يبادلونه الودَّ بالودِّ ، ممزوجاً بالاحترام .

فلمّا وجدتني في جامعة دمشق ، وأنا في أيامي الأولىٰ فيها طالعني فجأةً شخصُ أستاذنا ، فخفق قلبي لمنزلتِه السامية في نفسي ، ولكن عاد لي رَوْعي سريعاً لِمَا أعرف من شمائله ، فتقدَّمتُ إليه أحيّيه ، وسرعان ما رحّبَ بي ، وسألني عن دراستي ومنهجي فيها ، ثم دعاني إلى بيته ليرشدني إلىٰ الطريقة المثلىٰ في دراسة الأدب . وسُرعان ما نشأتْ بيني وبينه من دون سائرِ الطلاب علاقةٌ كأنّها تمتدُّ من زمنٍ طويلٍ ، هذه العلاقةُ متَّنَتْها الأيامُ ، ووثّقت عُراها علىٰ صغر سني وقَدْري ، وعلىٰ كبرِ مكانته وسَعة علمه وفضله ، ووجدتني تلقاءَ رجل أخذتُ أزداد إكباراً له كلّما امتدت السنوات ، بالمقارنة مع ما كنا نلقاه من جفاءٍ بعض الأساتذة وشدَّتهم .

وتقلّبتِ الأيامُ ، فإذا بي أرتبطُ به في كثيرٍ من المناسبات ، وإذا به يشجِّعُني علىٰ العلم والدأب والتحصيل والعمل ما وَجدَ إلىٰ ذلك سبيلاً ، ثم شاءت المقاديرُ أن أعملَ في (مجمع اللغة العربية) يوم كان العضوَ البارز

المنتج فيه ، وأمينَه المؤتمن ، فشدّني إليه ، وضمّني إلىٰ لجنة تحقيق كتاب (تاريخ مدينة دمشق) لابن عساكر ، فتتلمذتُ له في التحقيق وأصوله ، وتعلّمتُ منه أشياء لم يبخل بها عليَّ ، وأفدتُ منه كلَّ الفائدة ، ودفعني إلىٰ عالم التأليف والكتابة والتحقيق . . . فأمضيتُ في كنفه سنوات ممتعةً ومفيدةً ، كان فيها تفتّحي وتخرّجي .

ثم تقلّبتْ به الأحوالُ رحمه الله بعد أَنْ أحيلَ إلىٰ التقاعد من الجامعة ، فعانى من حسد الحاسدين وكيد الكائدين ، وازدادتْ مصائبُه ، فصبر واحتسب ، وكان ينتظر الفرج وهو يقول : انتظار الفرج عبادة ، ولكن هذه الأمور أخذتْ منه هدوءَه ، ونزعت استقراره وطمأنينته ، فأثّر ذلك في صحته فتدهورتْ ، ولم يكن آنذاكَ قد طعن في السنِّ ، ولا أوغلَ في العمر ، ولكنَّ الهمَّ يخترِمُ الجسيمَ ، ويهزِلُ القويَّ ، ويهرِمُ الشابَّ النشيطَ .

لم يتوقف شكري فيصل عن العمل ، وكان مطلوباً في الجامعات كلِّها ، تخطِبُ ودّه وتريده ، وتغريه بكلِّ مغرياتها ، وجفاه مَنْ كان يدّعي صداقته في ساعات العُسر ، وتنكّر له عارفوه ، فيمّم وجهه شطرَ مدينة الرسول ﷺ أستاذاً للدراسات العليا في جامعتها الإسلامية ، يعطي ـ ولا يتوقف عن العطاء ـ بكلّ ما يستطيع ، وبقيَ يتردَّدُ إلىٰ دمشق لحبّه الشديد لها ، ولزيارةِ أرحامِه وأقارِبه .

وفي المدينة المنورة كان لقائي الأخير به في بيته خلال موسم الحج لعام (١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م) وكان قد أخذ منه الإعياءُ مَأْخذَه ، وأشفقتُ عليه ، وأظهر لي من المودّةِ آنذاك ما لم أجد منه مثلَها من قبلُ ، وشعرتُ وكأنَّ هذا اللقاء لقاءُ مودِّع ، وكنتُ أكذِّب ظنّي أو أطلبُ من الله أن يكذِّب ظنّي .

وفي ذلك اللقاء كتبَ مقدّمةَ تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري ، الذي اشتركتُ في تأليفه مع أخي وصديقي الدكتور نزار أباظة . . . وكان ذلك من أواخر ما كتب لأنَّ قلمه توقَّف بعدَ ذلك ، وجفّ مدادُه .

وصعقني النبأُ المؤلم ، الذي وافىٰ أهلَه بدمشق ينعي أستاذنا الجليلَ الذي لم يحتمل جسمُه مباضعَ الجراحين السويسريين ، وتوقَّفَ القلبُ الكبيرُ عن

الخفقان ليلةَ السبت (١٧/ ١١/ ١٤٠٥هـ = ٣/ ٨/ ١٩٨٥م) ، ونُقل من جنيف إلىٰ المدينة المنورة في (١٠/ ٨/ ١٩٨٥م) ليرقد بجوار الرسول ﷺ في بقيع الغرقد آمناً مطمئناً مع الذين أنعم الله عليهم من الصحابة والشهداء والصالحينَ وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

وبقيت ذكرىٰ الأستاذ الجليل تسري في عروقي مع دمائي ، تزداد ألقاً يوماً بعد يوم ، وأنا أتذكَّرُ شمائله العطرة ، وأخلاقَه الطيبة ، لا يغيبُ عن عيني شخصُه المحبوب ، ولا تتبدَّدُ طلعته البهية ، ولا تنمحي بسمتُه البريئة وبقي في نفسي أنموذجاً يُحتذىٰ للعالم المخلص الصادق الغيور ، والمربي الرؤوم ، والصّديق الصدوق ، إذ كان علماً شامخاً أبداً في كلّ مرحلة من مراحل حياته ، وفي كلِّ حال من أحواله ، وفي كلِّ شأنٍ من شؤونه.

ولهذا فسرعانَ ما لبّيتُ طلبَ الأستاذ الفاضل محمد علي دولة صاحب دار القلم بدمشق في إصدار كتاب عن الدكتور شكري فيصل ضمن سلسلة علماء ومفكرون معاصرون ، فلا أجدُ نفسي أوفّيه حقّه ، ولا أقومُ بجزءٍ ممّا له عليَّ من فضل ومنَّة. فما هذه الصفحات إلا سطورُ وفاءٍ أقدِّمها لروح أستاذي بيدٍ خجلىٰ ، وقلبٍ مضطرب ، لعلّه يرضىٰ عنّي وهو في سكينة مستقرّه الطاهر.

رحمك الله أيها الشيخ الجليل ، وآنسكَ في مثواك الذي نزلتَ ، وأنزل عليك سابغَ رضوانِه ، وغفر لك ، ورفعَ منزلتك في الفردوس الأعلىٰ.

ولا بدَّ لي في ختام هذه المقدمة إلاَّ أن أتقدَّمَ بالشكر الجزيل لأخي وصديقي الدكتور نزار أباظة لتكرّمه بقراءة الكتاب قبل طبعه ، وإبداءِ ملاحظاته المفيدةِ فجزاه الله خيراً وباركَ فيه.

دمشق : غرة رمضان ١٤٣٠هـ — **د.محمد مطيع الحافظ**

٢٢ آب ٢٠٠٩ م

الفصل الأول

لمحات من حياته

المبحث الأول : النشأة والتحصيل .

المبحث الثاني : الأستاذ المربي .

المبحث الثالث : النشاط المجمعي .

المبحث الرابع : شكري فيصل الأديب .

المبحث الخامس : العقيدة والفكر .

المبحث السادس : في المجتمع .

المبحث السابع : وفاته ورثاؤه .



المبحث الأول

النشأة والتحصيل

لا شكّ أنّ كلَّ امرئ وليدُ بيئته ، وصورةٌ عنها ، أو عن بعض جوانبها على الأقل ، يتمثّلها في نفسه ، ويعكِسُها من هذه النفس بمظاهر شتّى . فإذا أضفنا إلى أثرِ البيئةِ جانبَ التربية والتوجيه ، وجمعنا إليها الاستعدادَ الشخصيَّ والموهبَةَ الفطريةَ ، أدركنا الأرضيّة الهامة التي قامتْ عليها شخصيةُ الدكتور شكري فيصل؛ تلك الشخصيةُ العلميّة والفكرية والوطنية والإنسانيّة التي برزت خلال سني حياته .

ولد الدكتور شكري سنة (١٣٣٦هـ = ١٩١٨م) عندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، وانسحب الأتراك من بلاد الشام ، ورأى النورَ في حيٍّ كان أهم ما فيه حركته العلمية الموزعة في المساجد والبيوت وحلقاتِ العلم ، ومجالس المذاكرة والمدارسة . . كان في ذلك الحيّ ـ حيّ العُقيبة ـ وجوهٌ من العلماء الأعلام الكبار ، من أبرز علماء دمشق . فيه رئاسة رابطة العلماء ، التي ترأسها العلامة أبو الخير الميداني (ت ١٣٨٠هـ)[1] ، وفيه مشيخة القُرّاء عند آل الحلواني ، وفيه حامِلُ رايةِ علم الحديث والتوجيه العلامة الشيخ محمود ياسين (ت ١٣٦٧هـ)[2] ، وفيه مشيخة الفقه الحنفي ممثّلة بالعلامة الشيخ عبد الوهاب الحافظ المشهور بدبس وزيت (ت ١٣٨٩هـ)[3] ، والعلامة الشيخ محمد سعيد البرهاني

---

(١) تاريخ علماء دمشق : ٢/ ٧٢٠ .
(٢) المصدر السابق : ٢/ ٦١٥ .
(٣) المصدر السابق : ٢/ ٨٢٩ .

(ت ١٣٨٦هـ)[١]. وفي هذا الحي كذلك نشأ الشاعر الكبير والمؤرخ الشهير خير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦هـ).

والمعروف أنّ حيَّ العُقيبة نشأَ علىٰ العلم، وسكنه العلماءُ بدءاً بالإمام أبي عمرو الأوزاعي (ت ١٥٧هـ) واتصلتْ حلقاتُ العلم فيه حتىٰ يوم الناس هذا.

كما اشْتهرَ هذا الحيُّ برجالٍ من الطبقة التي عرفت بـ (الزكرتية)[٢]، وقد تولّىٰ أفرادٌ منها زعامة الحركات الشعبية في مقاومة الاحتلال الفرنسي، وشاركوا في الثورة السورية الكبرىٰ بالرجال والعتاد، كان من بين هؤلاء الرجال شاب يدعىٰ عمر بن محمود فيصل، من أسرة حجازيّةِ الأصل، قصد أفرادٌ منها حمص، ثم انتقل بعضهم إلىٰ دمشق، فاستقروا بها[٣]. وكان أنْ تزوّج عمر شقيقة العلامة الشيخ محمود ياسين[٤]، فأنجبت له وحيدها «شكري».

ولمّا فتح أستاذُنا عينَ الوعي الأول، وخطا في سنّ التمييز وجدَ إلىٰ

---

(١) تاريخ علماء دمشق: ٢/ ٧٩٤.

(٢) **الزكرتية**: مصطلح عرف في التاريخ والأدب بالفتوة.

(٣) مقابلة الأستاذ عبد الفتاح فيصل، ابن عمّ الدكتور شكري، وأخوه من الرضاع.

(٤) هو العلامة الفقيه المحدث الشيخ محمود بن أحمد بن ياسين، ولد بدمشق سنة (١٣٠٤هـ)، وتلقىٰ عن علمائها، وكانت له الحظوة الكبيرة عند الشيخ محمد بدر الدين الحسني، والسيد محمد بن جعفر الكتاني، أفنى عمره في العلم والتعليم، درّس في مساجد دمشق، ومدارسها الكبرىٰ، وساهم في تأسيس الجمعيات العلمية، وتولىٰ رئاسة جمعية الهداية الإسلامية، وأسس مدرسة التهذيب الإسلامي، كان زاهداً ورعاً، يقوم الليل، محسناً لكل من حوله، كتب مقالات كثيرة، وتخرّج عليه عدد كبير من الطلبة والعلماء، توفي رحمه الله فجأة، سنة (١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م) (تاريخ علماء دمشق: ٢/ ٦١٧).

جانبه خالَه الشيخ محمود الذي أخذَ بيده نحو آفاق العلم الرحيبة ، إضافةً إلى أنّه كان له أمثولةً تحتذىٰ وأسوة حسنة.

لم يكن خالُه عالماً عادياً ، ولم يكن كذلك مربياً تقليديّاً ، وإنّما عرفته دمشق رجلاً متفتّحاً ، متحلياً بنظرة تجديدية للعلم ولطرق تلقّي العلم ، كان يجتمع بالعلماء الأجلّة ، ويرتادُ مجالسهم ، ويشارِكهم اجتماعاتهم ، ويعوّلون علىٰ رأيه في مهمات قضايا الأمة ومختلف الشؤون التي تلمّ بهم.

وكان للشيخ مدرسةٌ تسمّىٰ (مدرسة التهذيب الإسلامي)[1] حين لم يكن في دمشق من المدارس إلا القليل ، وحين لم تكن المدارس لتدُرُّ علىٰ أصحابها من المال إلا القليل. لكن الشيخ أدرك أهمية العلم والتربية ، وعمل علىٰ إرشاد الأجيال إلىٰ طريق الأخذ بالعلوم ، ومن هنا وجد أن الأحرىٰ به أن يرشدَ أهله ومن كانوا منه (وابن أخت القوم منهم).

ولمّا أجال أستاذُنا عيني طفولته في جوانب الدنيا ، يتعرّف ما حوله ، ويتلمس بيديه البضتين الأشياء التي يقدِرُ أن يمسكها ، رأىٰ الكتب والمجلات العلمية في بيت خاله ، وتلمّسها ، وألفاها كثيرةً ، تملأ الجدران ، وتتوضّع علىٰ الطاولات.. فداخل قلبَه محبتها واحترامها ، لأنّه شاهد مَنْ حوله يحترمونها ، ويجلّونها ويتشوّقون إليها ، وهي قادمةٌ من كل قطر ، وتحوي كلَّ علم وفن.

ومن أجل أن تتفتح معارفه ، كلّفه خاله الشيخ محمود صُنع فهارس تفصيلية للمجلات والجرائد التي تصلُ مكتبة الأسرة ، الأمرُ الذي لم يكن معهوداً عند أهل العلم الآخرين في الشام.

وأدرك شكري أوائل الصبا ، وانخرطَ في سلك الدراسة والتلقي ، فما عَسُرَ عليه أن يبحثَ عن أستاذٍ ، ولا صَعبَ علىٰ أهله أن يرشدوه إلىٰ مدرّس؛

---

(١) مدرسة ابتدائية خاصة ، كانت في بيت الشيخ قطنا في حي المسكية لصيق الجامع الأموي من ناحية الغرب.

إذ تناوله خالُه الشيخ المبارك ، فأفرغ في رأسِه سريعاً أُسس العلم ومبادئه ، فتخرج عليه في علوم الحديث والفقه والعربية وسواها .

وقد أشار أستاذنا إلىٰ هذه المرحلة الهامة من حياته ، قائلاً :

«في بيت خالي الشيخ محمود ياسين كانت نشأتي ، وعلى يديه كانت تربيتي ، وفي مجاله كان تفتُّحي ، وفي مكتبته كانت مطالعاتي» .

ثم إنّ خاله خطا معه إلىٰ الأمام خطواتٍ سريعة ، ووجّهه بعدَ ذلك إلىٰ متابعةِ العلم في المدارس الرسمية ، للوصول إلىٰ التعليم العالي؛ إذ كان يتوسّم فيه الخيرَ ، ويتنبأ له بمستقبل مشرق ، ويعجَبُ به كلَّ الإعجاب[1] .

ومن إعجاب خاله به ما ذكره عنه في كتابه «الرحلة إلىٰ المدينة المنورة» فقال: «إنّ ابنَ أختي السيد شكري فيصل فتًى لا كالفتيان ، وشابٌّ بزَّ الأقران ، يتوقد ذكاء ، ويشعُّ ظَرْفاً ولُطفاً. درس العلومَ الأدبية ، فعُدَّ في مهرة نجبائها ، وحذِقَ الفنونَ العصرية ، فكان من نبغاء طلابها ، له براعةٌ في الكتابة ساحرةٌ ، وأسلوبٌ سهلٌ ممتنع. وهو بَعدَ أنْ أحرز الشهادة الثانوية نجمٌ يتألَّقُ في سماءِ كلية الآداب المصرية. وكوكبٌ يلمعُ في كلية الحقوق السورية ، أخذَ اللهُ بيده ، وجعلَ منه الرَّجُلَ الموفَّق لخدمةِ دينِهِ ، والنهوضِ بأمته» .

---

(١) وقد أثمر إعجاب خاله به أنْ زوّجه ابنته السيدة الأستاذة مطيعة ياسين، وكانت امرأةً متألّقةً واعيةً مثقفةً ، نالت أهلية التعليم الابتدائي ، ثم إجازة الحقوق من الجامعة السورية ، وعلّمت في مدارس دمشق في وقت مبكر ، حين كانت المدرّسات قلة قليلة، وتولّت بعدئذٍ عِدّةَ أعمال إدارية في وزارة التعليم العالي، كان آخرها قسم البعثات والإشراف فيها ، حتىٰ أحيلت إلىٰ التقاعد ، وكانت علىٰ رأسِ أسرةٍ ملتزمةٍ أنجبتْ لأستاذنا أولاداً نجباءَ بررةً ، حصلوا على ثقافةٍ عاليةٍ، وتربيةٍ مثاليةٍ، وهم المهندس الجيولوجي والمتخصص أيضاً بالحاسوب (الكمبيوتر) الأستاذ: أحمد معتز ، والطبيب الدكتور محمد حازم ، والطبيبة الدكتورة لبابة ، والطبيبة الدكتورة أمان. وفقهم الله تعالىٰ لمرضاته .

بدأ شكري فيصل حياتَه الدراسيَّة في مدرسة «أنموذج البحصة» الابتدائية الرسمية ، حتىٰ إذا حصلَ على شهادتها عام (١٩٣١م) انتقل إلىٰ المكتب الإعدادي السلطاني (مكتب عنبر) المدرسة الثانوية الوحيدة في دمشق ، وكانت آنذاك صرحَ الثقافة والوعي الوطني فيها. وكان في المكتب صفوةُ أهلِ العلم والفضلِ والأدبِ والوطنيةِ ، تتلمذ أستاذُنا علىٰ أيديهم ، فأخذَ العربية في السنتين الأوليين عن الأستاذين (زين العابدين التونسي) ، و(أبي الخير القواس) ، وفي السنوات التالية عن الأستاذين (محمد البزم) و(محمد سليم الجندي) ، كما أخذ عن الأستاذ اللغوي الأديب (عبد القادر المبارك).

وكان في السنوات التي قضاها في (مكتب عنبر) من المجلّين في الدراسة ، تبدو عليه علائمُ النبوغ التي تلفتُ أنظارَ أساتذته وزملائه إليه ، فقدَّره الأوّلون ، والتفَّ حولَه الآخرون ، ينشدون سماع آرائه وتحليلاته ، ويطلبون أحياناً مساعدته في تحبير ما يريدون تدوينه.

وكان يتابعُ فوقَ ذلك حلقاتِ العلم الخاصّة ، فلا يتركُ ساعة فراغٍ إلا ويقضيها في اغتنامِ فائدةٍ علميةٍ ، أو مصاحبةِ كتابٍ مفيدٍ.

لقد كانت هذه السنوات المذكورة شديدةَ الوطأةِ على سورية؛ فالاضطراباتُ خطيرةٌ ، والحالةُ الاقتصادية متردّيةٌ ، فكان عليه أن يعملَ عملاً يخفِّفُ عنه عبءَ حاجاته؛ فوجدَ في مهنة الوِرَاقة خيرَ وسيلةٍ لهذه الغاية ، وعن طريقها التقىٰ بالعلماء ، واقتبسَ منهم وأفاد ، مع ما حصّله من وَفْرٍ مادي ، ولو أنّه وَفْرٌ قليل.

وتابع أستاذنا دراسته الثانوية ، فحصل علىٰ شهادتها بقسميها العلمي عام (١٩٣٦م) ، والفلسفي عام (١٩٣٨م). ثم التحق بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة اليوم) منذ العام الدراسي (١٩٣٨ ـ ١٩٣٩م) ، وبقي فيها حتىٰ سنة (١٩٤٢م) فحصل علىٰ إجازة الآداب بدرجة الامتياز ، وكان الأول بين خريجي تلك السنة.

ويحدّثنا أستاذُنا عن تلك الفترة الدراسية في الجامعة[1] ، فيقول :

«كانت كليةُ الآداب في القاهرة تضمُّ هذا الرعيلَ من العلماء الأعلام الذي لم يجتمع ـ أو لم يكد يجتمع ـ مثلُه في كليةٍ بعدُ ، (طه حسين) ، و(أحمد أمين) ، و(عبد الحميد العبادي) ، و(أمين الخولي) ، و(عبد الوهاب عزام) ، و(إبراهيم مصطفىٰ) ، و(زكي محمد حسن) ، و(مصطفى عامر) ، و(إبراهيم مدكور) ، و(سليمان حزين) .

كان منا ـ أي الطلبة ـ الذين عشقوا وضوحَ أحمد أمين وعمقه ، وكان منا الذين أَسرهم تفتّح الأستاذ أمين الخولي وقدرتُه التي لا تتناهى علىٰ الإثارة ، وآراؤه التي تستمرُّ تتجدّد مع كلّ ساعةِ نقاشٍ ، وكان منا الذين استراحوا إلىٰ وداعة الدكتور عبد الوهاب عزام ورعايته للطلاب العرب ، وإلىٰ نقاء عروبته ، وإلىٰ هذا الأفق الواسع الذي كان يجمع فيه بين الثقافة العربية في بلاد العرب ، والثقافة الإسلامية الأخرىٰ في البلاد الإسلامية . وكان منا أولئك الذين أصاخوا يحنون رؤوسهم ، ويلقون أسماعهم إلىٰ الأستاذ إبراهيم مصطفىٰ وهو يعالجُ إحياء النحو ، ويطرحُ الاتجاه والاتجاه النقيض عند النحاة وعندَه ، وكان منّا أولئك الذين أخذتهم نظرات الأستاذ عبد الحميد العبادي إلىٰ التاريخ الإسلامي ، وأُسلوبه الآسر في عرضه ، والجوانب الراكدة التي فجَّرها ، أخذهم ذلك منه ، وأخذتهم هذه القامة المديدة السمراء ، التي لم يكن في مثل مكانتها من نفوسهم إلا قامة الدكتور عزام العربية السمهرية . وكان منا الذين استولىٰ عليهم الدكتور إبراهيم مدكور في المدرّج الكبير (أتراني أُنسيت رقمه ٧٨) في عمق إحاطته بالفلسفة الإسلامية ، وفي أصالة بيانه ، وفي دقّة منهجه ، وفي قدرته علىٰ أن يبسّط المعقّد ، وأن ييسّر الصعبَ .

وما مِنْ شكٍّ في أننا جميعاً كنّا في ذلك طرائق قِدداً ، نحبُّ ونختصمُ في توزيع هذا الحب هنا أو هناك ، ولكنّنا كنا نلتقي جميعاً هذا اللقاءَ العفويَّ في

---

(١) من مقالة : «طه حسين : ذكريات ومواقف» مجلة المعرفة ، ع ١٥٣/ ١٩٧٤م .

ظلال هذه الشخصية الآسرة المحببة : شخصية طه حسين نحسّ ذلك ونجدُه في أنفسنا ، ولكننا لا نعرف كيف انتهىٰ ذلك إلينا ، ذلك أنّ شخصية طه حسين كانت تمثِّلُ في عقولنا وقلوبنا هذا الحضورَ الدائم الذي لا يغيب ، والمكانة الرفيعةَ التي لا تتأخر ، والعطاءَ الخِصبَ الذي يوشِكُ أنْ لا يدانيه عطاء» .

ثم يحدّثنا عن زملائه الطلبة الذين شاركوه الحضورَ علىٰ هؤلاء ، فيقول[1] :

«هل أحدِّثُكم عن هؤلاء؟ . . . هل أسوقُ لكم أسماءَهم؟ في هذه المقاعد كانت تجلسُ (سهير القلماوي) ، و(عائشة عبد الرحمن) ، و(شوقي ضيف) ، وفيها كُنّا نلمح (عبده عزام) ، و(عبد العزيز الأهواني) ، و(عبد القادر القط) ، و(محمد خلف الله) وآخرين كثيرين» .

وفي أثناء ذلك كان الدكتور شكري يتردَّدُ إلىٰ دمشق ، وبسبب من الحرب العالمية الثانية وقتئذٍ كان التنقّل بين القاهرة ودمشق صعباً ، مما اضطره للبقاء في دمشق حيناً ، ففي بعض الأشهر من سنة (١٩٤٠م) درّس في مدرسة التجارة الثانوية ، وكانت قد احتجزته الحرب .

وبعد أن حصل أستاذُنا علىٰ الإجازة في الآداب سنة (١٩٤٢م) ـ كما ذكرنا ـ عاد إلىٰ دمشق مدرِّساً للعربية في ثانوياتها ، والتحق خلال ذلك بكلية الحقوق بالجامعة السورية ، فنال إجازتها سنة (١٩٤٦م) ، كما قام بالتدريس ـ إضافةً إلى عمله الرسمي ـ في السنوات (١٩٤٢ ـ ١٩٤٦م) ، في (المعهد العربي) ، و(دوحة الأدب) ، و(الثانوية الشرعية) ، و(ثانوية السعادة) للجمعية الغراء وغيرها .

ثم يحدِّثنا الدكتور عدنان الخطيب عن الفترة التي تلت ذلك فيقول :

«وكانت سوريةُ عقب نيلها الاستقلال عام (١٩٤٦م) قد اختارت الأستاذ ساطع الحصري مشاوِراً فنياً لتعديل برامج التعليم فيها ، وعيّنت شكري فيصل

---

(١) المرجع السابق .

عضواً في اللجنة الرئيسة التي عُهِدَ إليها بمهمة التعديل ، فاعتمد عليه الأستاذُ الحصري ليساعدَه في مهمته ، فكان أن أشرفَ علىٰ صياغة وطبع التقارير التي اشتهرت باسم (تقارير ساطع الحصري) ».

لم ينقطع شكري فيصل عن التدريس في الثانويات الرسمية والخاصة في تلك المدة ، واستفادَ مِنَ الاشتراك في لجنة تعديل برامج التعليم ، فقام بتأليف الكتب وفق المناهج الجديدة منفرداً ، أو بالاشتراك مع بعض زملائه ، وكان مما نشر له الكتب التالية :

١ ـ **(الفنون الأدبية)** المقرّر لطلاب السنة الثالثة. طبع أكثر من مرة.

٢ ـ **(الزاد من الأدب العربي)** المقرّر لطلاب شهادة الكفاءة ، بالاشتراك مع الأستاذين خلدون كناني وأنور العطار. طبع مرات عديدة.

٣ ـ **(النصوص الأدبية)** في جزأين مقررين: الجزء الأول للصف العاشر ، والجزء الثاني للصف الحادي عشر والبكالورية ، بالاشتراك مع الأستاذ خلدون كناني ، وقد طبع عدة مرات.

واختارته الجامعة السورية (جامعة دمشق) حين بدأ توسُّعها بكليتيها الجديدتين: الآداب ، والعلوم عام (١٩٤٦م) فأوفدته لتحضير الماجستير والدكتوراه مع العدد القليل الذي اختارته ليكونَ جهازَ هذه الكليات المستحدثة.

وعمل بالوقتِ نفسهِ في الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية في فترة التأسيس الأولىٰ خلال وجودِه في القاهرة ، بوظيفة ملحق ثقافي ، وكان علىٰ رأسِها الأستاذ أحمد أمين ، فكان أستاذُنا خيرَ مساعدٍ له في وضع الترتيبات التي آلت بالإدارة إلىٰ ما دُعي فيما بعد بـ (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) وكان من نتاجِ هذه الفترة إنشاءُ متحف التعليم والسجل الثقافي ، ومشروعاتُ الترجمة ، والمؤتمرات الثقافية.

إضافة إلىٰ ذلك ساعد الأستاذ الحصري في جَمْعِ المعلوماتِ التي ضمتها مؤلفاتُه تحت اسم (حوليات الثقافة العربية).

ونال أستاذنا شهادة الماجستير في الآداب من جامعة القاهرة بدرجة جيد جداً سنة (١٩٤٨م) علىٰ دراسته (مناهج الدراسة الأدبية عرض ونقد واقتراح) وطبعت بالقاهرة (١٩٥٢م).

وحصل في سنة (١٩٤٩م) علىٰ دبلوم معهد اللهجات العربية (قسم اللغات الشرقية) وهو يعادل الماجستير.

وفي سنة (١٩٥١م) نال شهادة الدكتوراه بدرجة جيد جدّاً، وكانت رسالتُه الأصلية فيها (المجتمعات الإسلامية في القرن الأول وتطورها اللغوي والأدبي) طبعت بمطابع دار الكتاب العربي في القاهرة (١٩٥٢م).

أمّا رسالته الإضافية فيها فكانت (حركة الفتح العربي في القرن الأول: دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية) وقد طبعت بدار الكتاب العربي في القاهرة سنة (١٩٥٢).

كان المشرف عليه في هذه الرسائل الثلاث الأستاذ أمين الخولي، مع اختلافه معه في الاتجاه القومي العربي، لأنّ الخولي كان مِنْ أصحاب النزعة الإقليمية المصرية، وكان معجباً به، محترماً له، مؤدّياً حقَّ التلمذة معه، علىٰ الرغم من إعجابه بغيره من الأساتذة الكبار ـ كما مرّ معنا ـ ولكنّه الوفاءُ والأدبُ اللذان فُطِرَ عليهما أستاذُنا.

وعن قضية الخلاف في النزعة بين أستاذنا وأستاذه الخولي يحدِّثنا الدكتور عدنان الخطيب رحمه الله فيقول[1]: «إنَّ مَنْ يعرف أميناً الخولي، ويعرف نزعته الإقليمية وشدتها وقوة شخصيته وعنفوانه ويعرف اعتدادَه بآرائه، وعنادَه في الدفاع عنها، أو سمع برأيه بمجمع اللغة العربية، أو قرأ ما كان يكتبُهُ من غمزٍ ولمزٍ بأعضائه قبل أن ينضمَّ إلىٰ صفوفهم، يكاد لا يصدّق أنَّ طالباً يتحدّاه في آرائه، ويهدمها لبنةً لبنةً في رسالةٍ هو المشرفُ عليها قد نجا من مخالبه ولكن شكري فيصل لم يجتز هذه التجربة المرة بنجاح فحسب،

---

(١) الدكتور شكري فيصل وصداقة خمسين عاماً، ص٣٢.

بل اجتازَها وهو يحمل تقديراً ودرجة «جيد جدّاً» فكيف تأتّى له ذلك؟ لا شكّ أنَّ في الأمر سرّاً وراءَ هذا الاجتياز الموفق ، فما هو هذا السرُّ يا تُرىٰ؟ لابدَّ مِنْ سرٍّ يكمن وراءَ مغامرة شكري فيصل ، ووراءَ حُسْنِ تخلّصه من الورطةِ التي أوقعَ نفسَه فيها ، والتي قلَّ أن ينجوَ من مثلها طالبٌ يسعىٰ لنيل درجة علمية. . . إنَّ السرَّ الذي نتساءل عنه مردُّه كلُّه إلىٰ بابٍ من «السحر الحلال» السحرِ الذي يمارسُه شكري فيصل ، وهو المتمكن من آرائه ، فيندفعُ يدافِعُ عنها ببيانِهِ الآسر؛ بيانهِ الذي يأسِرُ ولا يجرحُ ، والذي يهدِمُ ولا يؤذي ، وينُشِئُ جديداً ولا يتبجّح ، وصدق رسول الله ﷺ القائل: «**إنّ من البيان لسحراً**».

ولكن يجدرُ بنا أن نتساءل: ومن أين لشكري فيصل هذا البيان الساحر؟ ونسرع بالإجابة قائلين: إنّه الأسلوب ، والأسلوبُ فقط ، كان أسلوبُ شكري فيصل يُشِعُّ من رسالتِه نوراً ، ويفيضُ علىٰ دفاعِه عنها طلاوةً ، ويمنحُ سهامَ نقدِه حلاوةً تطغىٰ علىٰ ألمِ وخزتها ، وعندي أنَّ أسلوب المرءِ ليسَ بصاحبِه كما قيل قديماً ، بل هو ما يعرفه الناسُ عن صاحِبه ، كان أسلوبُ شكري يمثّل تماماً ما يعرفُه الناس عنه ، فالناسُ لم تَر مِن شُكري فيصل إلاَّ الخُلُقَ الرضيَّ ، والتهذيب الجمَّ.

كان رحمه الله خفيفَ الصوتِ ، يمشي علىٰ استحياءٍ ، يحسِنُ التخلّص إذا ما توقّع العنفَ.

ومع ما أصابه من ألمٍ وشدّةٍ من المشرف عليه الأستاذ الخولي بقي وفيّاً له مخلِصاً معه ، فهو دائمُ الثناءِ والتقديرِ لكلّ من تلقىٰ عنه ، وفي ذلك يحدّثنا الدكتور شكري رحمه الله عن صلته العلمية بأساتذته في هذه الفترة فيقول:

«أنا مدينٌ إلى طائفةٍ من أساتذتي الذين أخذتُ عنهم ، فأمّا مع الدكتور طه فقد كُنّا طائفةً من طلاب الدراسات العليا نسعىٰ إليه في أُمسيات أيام الأحد في الكلية نقرأُ عليه كتابَ (الوزراء والكتاب) للجهشياري ، وأما مع الأستاذ الخولي فذلك حين قرأنا بعض كتب البلاغة القديمة وفاق هذا المبدأ الذي كان يأخذُ به أستاذُنا ويدعو إليه: «قتل القديم فهماً أول الجديد» وأمّا مع الأستاذ

إبراهيم مصطفىٰ ففي قراءة قصائد من (المفضليات).

ثم يقول: وأجدُ من واجبي أن أنوِّهَ وأنا أنحني إجلالاً لروح الأستاذ (عبد الوهاب عزام) الذي أخذت عنه حين كنّا نستمع إلىٰ دراسته لصفحات من الأغاني».

* * *

المبحث الثاني

الأستاذ المربي

لم توافِ سنة (١٩٥٢م) حتى شغلَ أستاذُنا وظيفةَ أستاذ مساعد لمادة الأدب القديم في كلية الآداب بالجامعة السورية (جامعة دمشق) وبعدَ أربعِ سنواتٍ رُفّعَ إلىٰ رتبة أستاذ بلا كرسي ، ثم كان أستاذاً بكرسي ، ليستمرَّ في عمله حتىٰ بلوغه الستين ، فأحيل علىٰ التقاعد في : (١/ ١/ ١٩٧٨م) خلافاً للتقاليد الجامعية التي كان الأساتذة يُعاملُون بها ، حسداً من المكابرين علىٰ إنكار فضله ، وبسبب ما تحلّىٰ به من عقيدة وفكر ، وبسبب الجحود أيضاً الذي لقيه من بعض زملائه وتلامذته الذين آذوه كثيراً .

وإذ ذاك فقد تلقفته الجامعات العربية التي عرفت فضله وعلمه ، فقبل عرض الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة أستاذاً للدراسات العليا فيها ، ورئيس شعبة الدراسات الأدبية منذ العام الدراسي (١٤٠١ ـ ١٤٠٢هـ) فاضطلع بذلك حتىٰ وفاته رحمه الله تعالىٰ .

ولقد رفض أستاذنا عرضاً سخيّاً من جامعة في بلد خليجي دعته لتسلّم عمادة كلية الآداب فيها فقال :

«آثرتُ جوارَ رَسولِ اللهِ ﷺ . . وعلىٰ كلّ حالٍ تجاوزتُ بفضلِ اللهِ كلَّ الإغراءات التي رافقت هذه الدعوة ، والتي ترافِقُ هذا العمَلَ ، ولا أحسبني قادراً علىٰ أنْ أستمرّ طويلاً في العمل ، فأنا أصبحتُ أُوثر البيتَ في دمشق علىٰ كلِّ ما تعرفُ من مشاكل دمشق أو مشاغلها»[١] .

---

(١) من رسالة بعث بها إلىٰ الدكتور عدنان الخطيب رحمه الله بتاريخ : (١٤/ ١١/ ١٤٠٤هـ) من المدينة المنورة . أي : قبل سنة من وفاته .

لم ينقطع أستاذُنا عن التدريس سنةً واحدةً ، ولا استراحَ ذلك المحارب الدؤوب علىٰ الرغم من الإعياء الذي أصابه ، والمصائب التي ألَمَّتْ به من الاضطرابات التي حلّت بدمشق أيام الفتن.

كان مطلوباً من جامعات لبنان والأردن والسعودية وغيرها. . . مطلوباً بشدّة للعمل فيها ، لأنّ اسمه في عالم الجامعات قد ذاع كأشعة الشمس في رأَدِ الضحىٰ ، فتنافست عليه.

وهو من جهة كان يجيب ويستجيب لا للمادة، بل للرسالة التي يحملها بين طواياه ، يريدُ أن يعلّم ويربي ، وينشرَ الثقافة والمعرفة والفكرة التي آمن بها.

أجل لقد لمع نجم أستاذنا في قاعات التدريس ، وأقبل عليه الطلاب وأحبوه الحب الخالص ، وأصفاهم وده ، حتىٰ قامت بينه وبينهم علائق لا تكون إلا بين الأساتذة المخلصين وطلابهم الأذكياء.

يوم كنا طلاباً في الجامعة نقعد بين يدي أستاذنا كنا نرىٰ أنموذجاً من الأساتذة يختلف عن سائر الأساتذة الذين كنّا نهاب بعضهم خوفاً من أن ينتقموا منّا ، ونكره آخرين لأساليبهم القاسية ومعاملاتهم الفوقية للطلاب ، قلة قليلة من أساتذة الجامعة في الستينيات كانت تلقانا بما كان يلقانا به الدكتور شكري فيصل رحمه الله.

إن سألتَ عن العلم فإنّك واجده عنده ، وإن فتشت عن المحبة تنزَّلت عليك منه ، وإنْ رغبتَ في الأسلوب الممتع في التدريس وقعت عليه عنده ، كانت دروسُه في النقد والنصوص والتحليل الأدبي متعةً خالصة ، وهي بعدُ دروسٌ ليست بالهيّنة ولا السهلة ، تحتاج إلىٰ إعمالِ فكر ، وإلىٰ جهدٍ ، وإلىٰ تذوقٍ ، وإلىٰ أشياء أخرىٰ ، لم يكنِ الطالبُ يجدُها في كتاب ، وإنّما ربَّاها فينا أستاذُنا تربيةً ، ونشّأنا عليها تنشئةً ، حتىٰ برزَ فينا ناسٌ كانوا صنيْعَته ، ترسّموا خطاه ، وعُرفوا في الجامعات العربية.

ومِنْ هنا أقبلَ عليه طلاّبه ، جلسوا في قاعة درسه مرتاحين ، فهموا من غير مشقة ، وناقشوا دونَ خوف ، وحفظوا على السجيّة ، وأدّوا امتحاناتهم

ببساطة ـ لم ترعهم المفاجآت التي تطلع عليهم من بعض الأساتذة أو من جلّهم ، ممن يسوطون الطلاب سوطاً ـ ونجحوا عن استحقاق ومكْنَةٍ .

كان أستاذُنا منفتحاً مع طلابه تمام الانفتاح ، لم يقطّب في وجوههم ، ولم يُسمعهم قارصَ الكلام ، ولا عنّفهم ، ولا أساءَ إلىٰ أحدٍ منهم ، وما ارتفعَ صوتُه علىٰ أحدٍ ، ولا هدَّد طالباً ، ولا أخزىٰ طالبةً علىٰ الملأ . . . فأقبلوا عليه ، واعتزُّوا بالانتساب إليه .

كان درسُه متميّزاً في كلٍّ ما يقدّم من مواد في النقد والبلاغة ودرس النصوص الجاهلية والإسلامية ، فاستمتعنا بشعراء كثيرين ، فمن طريقه عرفنا النابغة وليله ، وأحببنا شاعرَ الرسول ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه وحبَّه ومديحه للرسول ﷺ ، وذلك من خلال تحليله لما قدّم إلينا من نصوص .

كان يعالجُ النصوصَ معالجةً ذاتَ حياةٍ ، ينفخُ فيها الحياة فيبعثها من بطون الدواوين ، وينثرها أمامَ الطلّاب ، فتتألق بين يديه وتتوهج ، يقف عند المعاني المهمة فيها ، ثم يطرحُ أسئلةً حولها كثيرة . . . كثيرة جدّاً ، لم نكن ندري كيفَ يستخلِصُها أو يخترعُها . . . حتىٰ إذا فرغت جعبتُه من الأسئلة ، ولعلّها لا تفرغ عادَ فأجاب عنها بما تستحقُّ من تفصيلٍ أو إيجازٍ ، مشيراً إلىٰ النواحي الجمالية الفنّية ، يلقي عليها الضوءَ أو يقفُ عندها ، ويُمْتِعنا بها ، فإذا بنا نراها بالعين التي لم نكن نراها بها ، وإذا بنا نقدّرُ النابغةَ ونفخرُ به ، ونعتزُّ بحسان ونحبّه ، ونعرِفُ أقدارَ الشعراء ومنازلهم .

وتعرّضَ لنصوص عن الأصفهاني في كتابه (الأغاني) يغمز بها من قناة حسان رضي الله عنه ، فيتّهمه بالجُبْنِ والخَوَرِ ، ويسوقُ نصوصاً كنّا نظنُّها ـ لقصر باعنا آنذاك وقلّةِ اطلاعنا ، وحسنِ ظننا بالأصبهاني وهو مَنْ هو؟! ـ أنها ممّا لا نقاشَ فيه ، خصوصاً وأنَّ راويها صاحبُ الأغاني ، يسوقُها بالسند علىٰ ألسنة الرجال .

وتوقّف أستاذُنا عند تلك النصوص ، ونقدَها النقد العلمي ، فتهاوت بين يديه وتفتَّتت ، فبيَّن أن شعراء قريشٍ سكتوا لشعر حسان فأخرسهم ، وأنّ

شعره كان أشدَّ عليهم مِنْ وَقْعِ النبال ، وأنَّ سلاحَ الكلام والإعلام في المعركة كان أشدَّ من سلاح الحديد والعضلات . . . وأنَّ قريشاً كان تجتهد في قتل الرسول ﷺ لإسقاط الدِّينِ الجديد ، وأرسلتْ إليه أكثر من مرة مَنْ يبتغي قتله وأنَّ حسّاناً كان مطلوباً ، وأنَّ قتله أهونُ من قتل النبيِّ عليه الصلاة والسلام بمرّات كثيرة ، وهو إذ يعرفُ ذاك فلا يكفُّ عن مقارعة أعداء النبيِّ ﷺ فإنْ كان يهابُهم لسكتَ ، ولتنحّىٰ عن ميدان المعركة ، ولكنّه شفىٰ واشتفىٰ ، ودعا له الرسول ﷺ ، ونصبَ له منبراً في المسجدِ ينشدُ الناس ، وقال : **إنّ جبريلَ معه يؤيّده ما نافحَ عن رسول الله ﷺ** .

وذكر أستاذُنا رحمه الله أنَّ الشجاعةَ كانت سمةَ الصحابة ، وإن تفاوتوا بها ، ليس فيهم جبانٌ ، ولم يكن الوسط آنذاك ليرضىٰ عن جبانٍ يذهبُ ويروح . ولو كان في حسان جبنٌ لما رضيَ عنه الرسول ﷺ ، ولكان دعا له أَنْ يذهَبَ عنه جبنُه ، ولكنَّ آفةً كانت في يدِ حسانَ ـ فهو مقطوع العصب ـ لم تكن تمكّنه من حمل السلاح .

وتقومُ النصوصُ في نفوسنا بتلك الأطرِ التي يضعُها أستاذُنا فيها ، فإذا بنا ننفعلُ بها ونتفاعل ، وإذا بنانحسُّ بها إحساساً ، قلّما أحسسنا بمثله من قبل . ولكأننا نرى النابغة يقفُ في سوق عكاظ تحت قبّته الحمراء يستمعُ للشعراء يحكّمونه في جديدهم ، ولكأننا به يقف بين يدي الملك النعمان ، يمدحُه ، فيستفيضُ في مدحه ، أو يهابُه بعد ذلك فيهربُ ، ويطولُ ليلُه فلا ينامُ فنشفِقُ عليه .

ويحلِّلُ أستاذنا بطريقةٍ شيّقة أسبابَ غضب النعمان علىٰ شاعره المجلّي ، ويسوقُ أسباباً كثيرةً ، فيرفض بعضَها ، ويرجِّحُ أخرىٰ ، مستعيناً بالنصوص النثرية والشعرية والأخبار حتىٰ يقيمَ في ذهننا ما يستقيمُ للحجة .

ومن أعظم ما اقتبسه بعضُنا من أستاذنا الدكتور شكري أسلوبهُ في الكتابة التي كان يمليها علينا حينما يحلِّلُ النصوص ويدرسُها . كانت الجملُ بين يديه كالعجينةِ يقطِّعها ، ويكورها ، ويمدّها ، ويبسطها ، لتكونَ جاهزةً للخَبْزِ ، وكالصلصال الطريِّ يقومُ به الفاخوريُّ ، يبدعُ منه كلَّ آنية جميلة .

ولم يكن أستاذنا حين يملي علينا يقرأ من كتاب ، أو يطالعُ من دفتر ، أو يقتبس من أوراق ، وإنّما كان يمتح من ذهنٍ وقّادٍ ، ولسان قوال فصيحٍ ، يهدرُ هدراً ، لا يكادُ يقفُ أو يتريّث إلا من أجل أن نكتبَ نحن الطلّاب ، الذين كلّت أصابعنا من الكتابة السريعة ، فنخشىٰ أن تفوتنا كلمةٌ هامة ، أو جملةٌ مفيدة .

ومع هذه المتعة ، ومع هاتيك البشاشة ، ومع ذلك الانبساط في المعاملة والحديث ، لم يكن أستاذنا ليجانبَ الوقارَ والسيطرةَ علىٰ الدرس ، وما كان يجرؤ طالبٌ أو طالبةٌ أن يتفوّه بكلمة خارجةٍ عن الموضوع أو مُزاحٍ غيرِ مقبول ، أو تصرّف لا يليق ، لأنّ الجميع عرفوا أنَّ مع ذاك اللين قوةً هي قوة القادر المتمكن .

ومن هنا كانوا إذا تحلّقوا حوله بعد انتهاء الدرس ، ووافَوْه بما عندهم من أسئلةٍ طرحوها بأدب جمّ ، وأصواتٍ منخفضة ، ووجوهٍ حيية . . واستمعوا للإجابة بكل اهتمامٍ ، وناقشوا بكل احترام .

ومن هنا تخرّج معظمنا حين تخرجوا ليتسلموا وظائفهم في الثانويات أو الجامعات ، فكان كثير منهم يتمثّلون شخصية أستاذنا مع طلابهم ، ويحاولون أن يكونوا مثله ، يقتدون به . . فكان منهم مدرّسون وأساتذة ناجحون .

وأيقنّا جميعاً أنّ أستاذنا قبلَ أن يحملَ لهم العلمَ ، قدّم لهم التربية ، وربّىٰ فيهم الخُلُق بحاله قبل مقاله .

* * *

المبحث الثالث

النشاط المجمعي

استُقْبِلَ الدكتور شكري فيصل عضواً عاملاً في المجمع بدمشق في مساء يوم الخميس (٢٦ شعبان سنة ١٣٨١هـ ، الموافق ١ شباط ١٩٦٢م) في جلسةٍ حضرها كبارُ العلماء والأدباء. ومن عادة هذه الجلسات أن يُدعىٰ إليها عَدَدٌ من الوزراء والعلماء والأدباء ، وأن يفتتح الجلسةَ رئيسُ المجمع ، ثم يتكلّم أحدُ أعضاء المجمع معرِّفاً بالعضو الجديد ، ذاكراً علمَه وفضلَه ، موجِزاً تاريخ حياته ، وأعمالَه العلمية. ثم يتكلَّمُ المحتفَىٰ به العضوُ الجديد شاكراً أعضاء المجمعِ علىٰ ثقتهم به ، لاختيارهم له عضواً عاملاً معهم ، ثم يذكُرُ سلفَه الذي خلفَه ، معدِّداً مزاياه وعلمه وخلقه وأعماله.

بدأ الأمير جعفر الحسنيٍ أمينُ عام المجمع كلمته مرحباً بالدكتور شكري ، ثم قال: «وكان زميلُنا الجديد المحتفىٰ به الدكتور شكري فيصل أحدَ من اصطفاهم الفقيد الأستاذ خليل مردم بك ، وتوقّع له مستقبلاً زاهراً في رحاب الأدب ، ورأىٰ في باكورة مؤلفاته الأملَ الذي ينشده ، فعهِدَ إليه بعملٍ جليلٍ تهيَّبه النابغون ، وأحجمَ عنه الأُدباء العريقون ، وهو تحقيقُ كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر) للكاتب عماد الدين الأصبهاني ، فصدر الكتابُ بعد جهدٍ ونصَبٍ ، ففاز بتقدير الأساتذة أعضاء المجمع ، ونال إعجابَ كبارِ العلماء ، ورفع هذا الكتابُ منزلةَ محققه إلىٰ مصافِّ ثقاتِ المحققين. . .

وقد أبدت مؤلفاته وأبحاثه الكثيرة المكانة العلمية المرموقة التي توقعها له عارفوه». ثم قال: «ليس زميلنا الجديد دخيلاً علىٰ هذا المجمع أوبعيداً عنه ،

فقد قرَّبته روحه المجمعية والخلقية المتأصلة في مواهبه وشمائله من أعضاء المجمع الذين قدّروا علمه ، فرشحوه لعضوية مجمعهم ، وتقبلوا بالرضا تعيينه ، ورحّبوا بانضمامه إليهم زميلاً عاملاً ومجدّاً ، ولابد أن تكونَ روحُ الرئيس الراحل (خليل مردم) مرتاحةً لهذا الانتقاء ، وراضيةً عن هذا اللقاء».

ثم ألقىٰ الدكتور شكري فيصل خطابه المجمعي بأسلوبه الأدبي الذي تميّزَ به ، سلاسةً ورقةً ووضوحاً ولطفاً ووفاءً ، فتحدّث عن صلته بالمجمع ، وعن سلفه الأستاذ خليل مردم فقال:

«منذ نحوٍ من ثماني عشرة سنة حين قادتني خطايَ في كثيرٍ من الحياء والتهيُّبِ إلىٰ هذه المنصّة أواجِهُ جمهوراً من الناس في واحدةٍ من المحاضرات التي كان يدعو إليها مجمعكم الموقر ـ لم يكن في الذي أطمحُ إليه أو أفكّر فيه أن تلتقي أيديكم الخيرة السمحة ، في ثقةٍ وطمأنينةٍ علىٰ أن تأخذ بيدي إلىٰ هذه المنصّةِ ذاتها ، لا لأحاضر ، وإنّما لأشكر لكم ـ بالدمعةِ المترقرقة لا تستهلّ ، واللسان الحييّ لا يُبين ـ أنّكم فكرتم بي حين فكرتم في أقدس المهمات التي تضطلعون بها ، مهمة الحفاظ علىٰ اللغة ، وأنكم أشركتموني في أكرم جهادٍ ، هو الجهاد في سبيل العربيةِ ، وأنّكم أحللتموني منكم هذا المحلَّ الكريم الذي أقصر عنه ، ولكني آمل أن أكون كفاء له.

قلتُ: إنّ أمسية السابع من نيسان من عام أربعة وأربعين وتسعمئة وألف لم تكن أوّل صلتي بالمجمع . . واسمحوا لي كذلك أنْ أقولَ: إنَّ الحديثَ الطيِّب الذي سمعته في أعقاب المحاضرة من الرئيس الراحل خليل مردم بك لم يكن أوّل حديث ، فقد لقيتُه قبل ذلك بأعوامٍ ، لقيتُه في طائفة من الكتب والدراسات التي كان يُصدِرُها عن بعض أعلام الشعر والنثر . . لم يكن ذلك أول عهدي بالمجمع . . . فقد كنا نراه في غدوِّنا ورَواحنا ، كان في نظرنا ـ نحن الذين كنا نسكن الظاهرية ، ونساكن آلاف الأرواح فيها ، ونصغي إلىٰ آلاف الأصوات الغامضة التي تحتمي بها ، وتتراءى لنا صورٌ من أحلامنا

ومستقبلنا في كلّ صفحة كتاب منها ـ كان المجمع[1] في نظرنا هذا الصرح الممرّد ، وكأنّما صِيْغ من عالم آخر. كان يخيَّلُ إلينا أن حجارته غير الحجارة ، وأنّ جدرانه غيرُ الجدران ، وأنّ أبوابَه غيرُ الأبواب. . كنّا نختلِس النظرَ إلى البحرةِ التي تتوسَّطُ باحته ، وكأنّما هي غديرٌ ، منبعُه ما وراء الأفق ، وتتراءى لنا شُجيراته ، وكأنّما هي من شجر الجنّةِ. . . وحين كان يقدَّر لنا أن نستمعَ إلىٰ محاضرةٍ فيه فقد كانت تلك في عُرْفِنا رحلةً من هذه الرحلات الأسطورية المُثْقَلَةِ بالغرائِبِ والغنائم ، وهل من عجبٍ؟ أليستْ كتبُ الظاهريةِ التي كنّا ننفقُ فيها بياض النهارِ تُثقِّفنا ، وشيئاً من سوادِ الليل تُمتِّعنا ، هي من صنعِ مثل هؤلاء الكملة الفضلة الذين يدخلون إليه في ماتع الضحىٰ ، ويخرجون وقد زال النهار؟» .

بهذه الكلمات الهادئة المحببة ختم خطابه بقوله :

«إنّي لأرجو أن أكون قادراً علىٰ النهوض بهذه الأمانة ، وعلىٰ السير بها إلىٰ أبعد آمالها ، والله من وراء القصد» .

لقد كان إنتخاب الدكتور شكري دافعاً له إلىٰ رفد المجمع بعطاءاته وجهوده في خدمة الأدب واللغة والعلم والتراث ، وقد حقق اللهُ وعدَه ، فقد أثرى المجمعَ بكتبٍ ومقالاتٍ ومحاضراتٍ وندواتٍ كان لها أثرُها الواضحُ والمتميّزُ في تقدّم المجمع ورفعته .

وبعد انتخابه والاحتفال باستقباله عضواً عاملاً في المجمع عُهِدَ إليه في المشاركة في لجنتي المجلة والمطبوعات والمخطوطات والتراث ، فأشرفَ علىٰ المجلة إشرافاً كاملاً ، قراءةً وتدقيقاً وتقويماً ، وشاركَ في الكتابة فيها ، ودعا كبار الكتاب والعلماء إلىٰ الكتابة فيها ، وبذلك استطاعت المجلةُ أن تسيرَ علىٰ النهج الذي أنشئت عليه من دقة وتميز .

---

(١) يصف الدكتور شكري المبنىٰ القديم للمجمع وهو المدرسة العادلية قبالة المدرسة الظاهرية قبل انتقال المجمع إلىٰ المبنىٰ الجديد في حي المالكي بدمشق (ن) .

وسعىٰ إلىٰ إغناء مكتبة المجمع بالكتب والمخطوطات والمجلات ومصوّرات المخطوطات ، ولما أوفدته جامعة دمشق إلىٰ ألمانية للاطلاع ، انتقىٰ عدداً من المخطوطات ، وطلب تصويرها ، وقدّمها لمكتبة المجمع .

وفي عام (١٩٧٢م) انتخبه المجمعُ أميناً عامّاً له ، وفي عهدِهِ هذا شهد المجمعُ حركةً غيرَ عاديةٍ في نشر التراث ، فظهرت في مطبوعات المجمع كتبٌ كثيرةٌ قيّمة من أمهات كتب التراث ، امتازت بعددها الكبير ونوعيتها ، فكانت مفخرةً لعهده المبارك ، وأقبل الناسُ علىٰ اقتنائها ، والاشتراك بمجلة المجمع ، مما أدىٰ إلىٰ نفادها حتىٰ أصبحت من نوادر الكتب .

وندب المجمع أستاذنا لتمثيله في حلقة «حماية المخطوطات العربية وتيسير الانتفاع بها» التي عُقدت في بغداد سنة (١٩٧٥م)[١] ، فكان له يدٌ طولىٰ في صياغة البيان الذي انتهت إليه الحلقة. كما كانت له جهود في صياغة نص التقرير الذي وضعته اللجنة التي دعت إليها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لتعقد في سنة (١٩٨٠م)[٢] ببغداد لوضع أسس تحقيق التراث العربي ومناهجه ، وكانت مشاركةُ أستاذنا وآراؤه موضع إكبارٍ وتقديرٍ من العلماء والمحققين المشاركين جميعاً ، مما جعلهم يطلبون منه صياغة نص التقرير[٣] .

وقام أستاذنا بتمثيل المجمع والقطر العربي السوري في (**مؤتمرات التعريب**) التي تعقدها كلَّ أربع سنوات المنظمةُ العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وكانت هذه المؤتمرات **تنتخبه مقرِّراً عامّاً لها** ، **لما تعهده فيه من كفايات قلّ نظيرُها** ، وفي مؤتمر التعريب الثالث الذي عُقد في ليبية سنة

---

(١) الدكتور شكري فيصل وصداقة خمسين عاماً ، للدكتور عدنان الخطيب. صدرت عن المجمع سنة (١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م) .

(٢) وقد كان لي شرف حضور هذه الندوة ، حينما كنت في بغداد لحضور دورة حماية المخطوطات وتحقيقها .

(٣) طبعه معهد المخطوطات العربية في الكويت واعتمده ـ الكويت ، ١٩٨٥م .

(١٩٧٧م) سارع رئيسُ المؤتمر عقب انتهائه إلىٰ كتابة رسالة بعث بها إلىٰ المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم يقول فيها:

«. . . لا يفوتني أن أعبِّرَ لكم عن امتناني الشخصي لسديد توجيهاتكم لأعمال المؤتمر ، **وحُسن ترشيحكم للأخ الدكتور شكري فيصل لوظيفة المقرّر العام** ، وإن كان مؤتمر التعريب الثاني قد شهد للدكتور شكري **بالكفاية والجدية ، فإنّه في هذا المؤتمر قد أجادَ وأبدعَ ، وعمل بدون كلل أو ملل بالرغم من توعك صحته في الأيام الأخيرة**»[1].

وما كاد المؤتمر الرابع المنعقد سنة (١٩٨١م) في طنجة بالمغرب يختتم أعماله حتىٰ بعث المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم رسالة إلىٰ الدكتور شكري فيصل يقول له فيها: «. . . إنّ بلاءك وجهدك وعطاءك ، في خدمة الثقافة العربية ، في كل مجالاتها ، أمرٌ مذكورٌ مشكورٌ ، يعرفهُ لك **أهلُ العلمِ والفضلِ** ، وهو تراثٌ يُضافُ إلى تراث هذه الأمة ، يبقى ما بقيت وبقيَ فكرها ولسانُها ، وهما بإذن الله باقيان ومحفوظان.

لقد كنتُ أكثر الناس حرصاً علىٰ حضور مؤتمر التعريب الرابع ، فلم ييسر الله لي أن أشترك معكم مع كلّ ما بذلت من جهد ، وكان عزائي أنَّ هناك من يقومُ لهذا الأمر فيحسنُ القيامَ عليه ، **وأنت فارس ميدانه منذُ بدأ هذا النشاط**.

ولقد قرأتُ بإعجابِ الوثيقةَ النهائيةَ التي صدرت عن أعمال المؤتمر ، والتي تنمُّ عن **القدرة والخبرة والانتماء منهجاً وتصنيفاً وعرضاً** ، فجزاك الله الخير الذي أنت أهله.

فشكراً لك علىٰ كلِّ ما فعلت ، ولئن فاتتني هذه الفرصة ، فلسوف نلتقي إن شاء الله قريباً في ساحة العمل العربي المشترك الذي يجمعنا دائماً ، وإني أنتهز هذه الفرصة **لأحيي عونك الممدود إلىٰ المنظمة ، فيما تقدّمه لها من أعمال مجيدة** ، نرجو أن يتسعَ نطاقُ الاستفادة منها. . .

---

(١) من رسالة مؤرخة في (١٦ شباط ١٩٧٧م). ومما هو جدير بالتنويه أن أستاذنا ألقىٰ في المؤتمر بحثاً موضوعه «التطور الاجتماعي والتطور اللغوي».

أخوك: محيي الدين صابر[1]».

قام الدكتور شكري بتمثيل مجمع اللغة العربية بدمشق وإلقاء كلمته في حفلات التأبين التي أُقيمت إحياء لذكرىٰ الأعلام: محمد الفراتي، خير الدين الزركلي، محمد جميل بيهم، كما مثل المجمع في لجنة **الاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجري**. وقد رشّحه المجمعُ لنيل جائزة الملك فيصل لعام (١٤٠١هـ) عن (الأدب العربي قبل الإسلام وحتى نهاية القرن الأول) وكانت مؤسسة هذه الجائزة **قد اختارته محكّماً في قسم الأدب العربي**.

هذا **وكان المجمع العربي العراقي** قد انتخب فقيدنا سنة (١٩٧٠م) عضواً مراسلاً له، كما انتخبه سنة (١٩٧٥م) **المجمع العلمي الهندي عضواً فيه**.

وفي سنة (١٩٨٠م) انتخبه مجمع اللغة العربية الأردني عضواً مؤازراً له، كما انتخبه **مجمع اللغة العربية بالقاهرة** سنة (١٩٨٤م) عضواً مراسلاً، ودعاه إلىٰ الاشتراك باحتفالات عيده الخمسيني.

كما دعاه اتحاد المجامع العلمية اللغوية العربية إلىٰ ندوته التي عقدها في مدينة الرباط في شهر تشرين الثاني سنة (١٩٨٤م)، وقد ألقى فيها بحثاً قيماً عنوانه «**تعريب التعليم العالي والجامعي في سورية في ربع القرن الأخير**».

وكان آخرَ ما نشره المجمع للدكتور شكري فيصل **تقديمه لديوان شاعر الشام شفيق جبري** الصادر سنة (١٩٨٤م) وكان التقديمُ دراسةً وافيةً لأدب الشاعر، وتحليلاً قيماً لشعره، وتقويمه تقويماً منصفاً.

وتقديراً لمنزلته العلمية فقد انتخبته عِدّة مجامع عربية وإسلامية، فكان: عضو مجمع اللغة العربية الأردني، وعضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في عمان، وعضو المجمع العلمي العراقي في بغداد، وعضو بيت الحكمة في تونس، وعضو المجمع العلمي الهندي، وعضواً محكماً في جائزة الملك فيصل.

---

(١) من رسالة مؤرخة في (١٩ حزيران ١٩٨١م).

كان أستاذنا عضواً مجمعيّاً عاملاً معطاءً ، لم يترك أيَّ مجالٍ في سبيل رفع راية المجمع خفاقةً في كل الأقطار العربية والأجنبية ممثلة بحضوره المؤتمرات اللغوية وندوات التعريب ، فكانت مشاركتُه فيها محلَّ تقديرٍ واعتزازٍ للمجمع ، كما أنّه مثَّل الجمهورية العربية السورية في عددٍ من المؤتمرات الأدبية ، وتعريبِ المصطلحات العلمية[1] . فكان عضوَ مؤتمر الأدباء العرب في بلودان (بالقرب من دمشق) سنة (١٩٥٦م) ، وعن هذا المؤتمر يحدّثنا الدكتور عبد الوهاب حومد بقوله : «كان عليَّ أن أُسَمِّيَ أعضاء الوفد السوري ـ بوصفي وزيراً للمعارف ـ ولم تكن المهمةُ يسيرةً ، فقد كان في الوفد المصري طه حسين ، وأحمد رامي ، ويوسف إدريس ، وأمينة السعيد ، وفي الوفد العراقي : محمد بهجة الأثري ، وبدر شاكر السياب ، وفي الوفد اللبناني : ميخائيل نعيمة ، وقسطنطين زريق ، وكانت السعودية ممثلة بخير الدين الزركلي . وشُكِّل الوفد السوري من الأساتذة : خليل مردم بك ، وفؤاد الشايب ، وبدر الدين الحامد ، وأسعد طلس ، وشكري فيصل وعدد من الأدباء .

ولم يتكلّم في المؤتمر عن الوفد السوري غير فؤاد الشايب ، عن «الأديب والدولة» والدكتور شكري فيصل الذي ناقش محاضرة السياب عن «وسائل تعريف العرب بنتاجهم الحديث» وهنأتُه علىٰ كلمتهِ ، وكانت مناسبةً حلوةً لتعارفنا الأول» .

ثم مثّل أيضاً سورية في مؤتمر الأدباء المنعقد في القاهرة سنة (١٩٥٧م) . كما مثلها في السنة نفسها في مهرجان شوقي بالقاهرة ، وحاضر باسمها ببحث عنوانه «نثر شوقي» كما شارك في مهرجان الكواكبي ، ومهرجان الشاعر القروي ، كما مثل سورية في مؤتمر الأدباء العرب بالكويت سنة (١٩٥٨م) ، وحاضر في موضوع «البطولة في الأدب العربي الحديث منذ سقوط بغداد حتىٰ فجر النهضة الحديث» .

---

(١) حفل استقبال الدكتور عبد الوهاب حومد عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق ، ص٢٠ .

واختير عضواً للمؤتمر العاشر لهيئة الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية ببيروت سنة (١٩٦٠م) ، وكان موضوع بحثه فيه «المؤلفون العرب في المئة السنة الأخيرة في دراسة الأدب العربي» وكان نصيبُه من هذه الحلقة: «الأدب العربي من سقوط بغداد حتىٰ أوائل النهضة».

وشارك في عدد كبير من المؤتمرات الأدبية وندوات التعريب وغيرها ، منها: ندوة التعريب في الجزائر سنة (١٩٧٣م) وكان المقرر العام فيها ، وندوة التعريب التي أقيمت في ليبية في شباط سنة (١٩٧٤م) وكان موضوع بحثه: «عوائق في طريق التعريب» ، ومؤتمر التعريب في طرابلس سنة (١٩٧٦م) ، ومؤتمر أدباء العرب الذي انعقد في ليبية ، في أيلول سنة (١٩٧٧م) وكان عنوان بحثه فيه: «مشكلة اللغة العربية في الأدب المعاصر» ، وندوة اتحاد المجامع العربية التي انعقدت في عمّان في تشرين الأول سنة (١٩٧٨م) ، وكان بحثه بعنوان «اللغة العربية خلال ربع قرن في ميدان التعلم والتعليم» ، وندوة التعريب التي انعقدت في الخرطوم في كانون الثاني (١٩٧٩م) ، وكان بحثه فيها بعنوان «موقع الندوة من حركة التعريب» ، والمؤتمر الرابع لمؤتمر التعريب في طنجة سنة (١٩٨١م) ، وندوة اتحاد المجامع العربية التي انعقدت في الرباط في تشرين الثاني سنة (١٩٨٤م) ، وكان بحثه فيها «تعريب التعليم العالي الجامعي في ربع قرن».

وأوفدته جامعة دمشق أستاذاً زائراً أو معاراً إلىٰ عددٍ من الجامعات في الوطن العربي: فاس ، وجدة ، ومراكش ، والجزائر ، وطرابلس ، واليرموك ، وعمّان ، والرياض ، وزار من البلاد الأجنبية في رحلات ثقافية: إسبانية ، وفرنسة ، وإنكلترة ، كما زار يوغسلافية عضواً في مجلس الأمة صيف عام (١٩٦١م) ، وشارك في كثير من اللجان الرسمية في: وزارة التربية ، والجامعة ، ووزارة الثقافة والإرشاد ، والمجلس الأعلىٰ للآداب والفنون.

* * *

المبحث الرابع

شكري فيصل الأديب

لا شكَّ أنَّ أستاذنا الدكتور شكري يتميّزُ بأسلوبٍ خاصٍّ في الكتابة يشبه أن يكونَ الطابع عليه ، بصفاته التي تأخذ القارئَ في مدارجَ من البلاغة قلّما أتيحت لكثيرٍ من أهل العلم من أقرانه الذين لم يتمكّنوا من موهبة الكتابة .

ويعرِفُ المقرّبون من أستاذنا أنَّ قلمه سيّالٌ ، ينسابُ بين يديه ، طيّعٌ لا يخذلُه متىٰ شاء ، يمتحُ فيه مِنْ معينٍ ثرٍّ ، وذخيرةٍ غزيرةٍ ، تسعِفُه في الفكرةِ من جهة ، وفي التعابيرِ الجميلة المرصوفةِ بعضها إلىٰ بعض من جهة أخرىٰ .

ولعل ملكة الكتابة الأدبية والأسلوب الأنيق الذي أُوتيه الأستاذ كان ولا شكَّ مستنِداً إلىٰ موهبةٍ فطريةٍ ، صقلها الأخذُ من العلم ، وكثرةُ المطالعةِ المبكّرة التي نشأ عليها منذُ نعومة أظفاره في أحضان خاله الذي أمدّه بكتبٍ لم تكن تتوافر آنذاك عند كثيرٍ من الناس ، يوم كان الكتاب عزيزاً نادراً .

ثم إنّ الأستاذ حين يمّم وجهه شطر مصر وجد أدباء اهتمّوا به ، واهتمّ بهم ، لقي (الزيات) و(طه حسين) و(العقاد) و(أحمد أمين) . . . وآخرين من أصحاب الأساليب الذين بهرت كتاباتُهم الشبانَ المتأدبين . . . فأخذ تعابيرهم بطرفٍ ، وترسَّم خطاها . ووجد نفسَه ولا شكَّ ـ وهو الموهوب ـ أنّ عليه أن يعتني بكتابته إذا كتب ، ويهتمّ بجملته إذا أنشأ ، خصوصاً وأنّه يطمحُ إلىٰ الكتابة في مجلاّت لها شأنُها ورواجُها ، ولها كتّابها الذين لا يمكن أن تندرجَ مقالاتُه بين مقالاتهم إلا إذا راقت لذوق ذلك العصر عصر الأربعينيات من القرن الماضي .

وكان أستاذنا يهتمُّ بالمجلات المصرية وغير المصرية من أمثال (الرسالة) للزيات و(الثقافة) لأحمد أمين ، وهما من المدارس التي تأدّب بها شباب العصر ، وتخرّجوا بها ، وقد حدّثني رحمه الله أنّه كان هو وأصدقاؤه ينتظرون صدور «الرسالة» كلَّ أسبوعٍ بصبرٍ فارغٍ ، كانت تصدرُ كلَّ يومِ ثلاثاء ، فكانوا إذا عدّوا أيام الأسبوع قالوا: السبت ، الأحد ، الإثنين ، الرسالة ، الأربعاء . . . لشغفهم بها ، وكان مَنْ لا يستطيعُ اقتناءَ عددٍ منها سارع فرجا أصدقاءَه ممن حالفهم الحظ في اقتنائها أن يعيروه إيّاه. علىٰ أنّ قليلين من الشاميين من يهتمون بالمجلات ، فهم يقتصرون علىٰ الاهتمام بالكتب ، بخلاف الشبان المصريين الذين يتابعون الصحافة كل المتابعة ، وهذه خلةٌ في مثقفي الشام إلىٰ يوم الناس هذا ، ولذا قلّ فيهم من ترقت أساليبهم إلىٰ مثل ما ارتقىٰ إليه أسلوب أستاذنا.

ذلك لأنَّ مَنْ تخرّج في مثل مدرسة (الرسالة) و(الثقافة) واطّلع علىٰ تلك الأساليب التي أشرنا إليها ، ولاقت تلك الأساليبُ تربةً صالحةً أنبتت أسلوب الدكتور شكري وأثمرت.

وأول ما يروعك من كتابات أستاذنا تلك السلاسةُ العذبةُ التي تأخذُ بالألبابِ ، ولو كان في موضوعٍ علميٍّ يركّز علىٰ الفكرة ، أكثر مما يهتمُّ بالإنشاء. انظر إليه يتحدّث عن (الحبُّ في الشعر العرب)[1]:

«وكان هناك هذا الحبُّ الآخر الذي يستحيي ويتقنّع ، ولنقل ـ في متابعةٍ لتعابير ابن سلاّم ـ إنّ صاحبه كان يتعفّفُ ، ولا يستبهر بالفواحش ، ومثل هذا الحبِّ هو الذي آل في التعبير الفني إلىٰ الغزل العِفّ في الجاهلية ، كالذي نجده عند لبيدٍ وزُهيرٍ ، ممّن لم نقرأ لهم فيما وصلنا من شعرهم إلا هذا الشعرَ الذي يعبِّرُ عن المواجد النفسية موصولةً بأطلال الأحبة ، أو وصف ارتحالهم ، أو الحديث القصير عن بعض مظاهر الجمال عندهم ، عما كان عند أولئك الماجنين من حديثٍ عن المغامرات والأيام».

---

(١) مجلة أوراق ١/ ١٩٧٨م ، ص٧.

أرأيتَ إلىٰ هذه السلاسة في الجمل ، التي يأخذُ بعضُها برقاب بعضٍ ، فلا تستطيعُ أن تنفذَ من بين كلماتها إلىٰ قفزةٍ يمكن أن تزيدَ فيها أو تنقِصَ ، ولا أن تقفَ في موقفٍ قبل أن يقفك صاحبُها ، تجري كجدولِ الماء الصافي بين الحصىٰ الملونة والأعشاب الزكية الرائحة ، لتقفَ عند آخرِها في البحيرة الجميلة.

وانظر إليه يتحدَّثُ عن حرب رمضان = تشرين عام (١٩٧٣م) فيقول[١]:

«في خلال الأيام العشرين من أيام معركة رمضان في سيناء والجولان كان الإنسان العربي نهبَ مشاعرَ كثيرةٍ ، وكانَ الوجودُ العربيُّ نهبَ وقائعَ مثيرةٍ ، وكانت الحياةُ العربيّةُ تعاني مخاضاً قاسياً بعد حملٍ قاسٍ . . كانت تعاني ولادةَ الإنسانِ الجديدِ ، الذي يتجدَّدُ فيه لحمُه وعظمُه وجلدُه بقدر ما يتجدَّدُ فيه لبُّه وعقلُه وقلبُه . . . ويحسُّ ، مع كلِّ نبأ وإثرَ كلِّ معركةٍ ، أنّه يُخلَقُ خلقاً جديداً ، يعاود فيه سيرته أيام رسالاته ، متخطّياً كل فتراتِ الضعف والسقوط والخدر».

ويتميّزُ أسلوبُ أستاذنا أحياناً كثيرة بأنه يطرح في كتاباته أسئلة شتىٰ ، يُلحقُ بعضها ببعض ، حتىٰ لا يتركَ لك وقتاً للتفكير في الإجابة عنها ، وهي بعدُ أسئلةٌ مهمة بين يدي البحث ، ولعلّه يشوّقُكَ إلىٰ الجواب ، ويثيرُ فيك مكان الفضول ، لتنظرَ ما يفجؤك به من المتابعة.

انظر إلىٰ مطلع كتابته في مقالته[٢] «قراءة جديدة لمعلّقة النابغة»:

«أين تقع هذه المعلّقةُ من أدبنا العربي؟ أيةُ قيم جماليةٍ ، وأيةُ قيمٍ نفسيّة تنطوي عليها؟ ماذا قال النابغة؟ وكيف قال؟ ما الذي كان يملأُ وجودهُ آنذاك وكيانه كله؟ ما الذي كان يستبدُّ به ، فيدفعه إلىٰ أن ينشِئَ هذا الأثر الفنيَّ علىٰ

---

(١) مجلة المعرفة مقال: الواقع والرؤية في الوجدان العربي. ص١٧ ، العدد ١٤٢ ، كانون الأول ١٩٧٣م.

(٢) مجلة المعرفة ، ص٤٨ ، العدد ١٣٧ ، تموز ١٩٧٣م.

هذا النحو؟ أكان يتلهّىٰ بقول الشعر؟ أم كان يقول هذا الذي يقولُه لأنّه كان مدفوعاً إليه، مأخوذاً به ، خاضعاً له ، لا يملِكُ انصرافاً عنه ولا تحويراً له؟».

أسئلةٌ شتّىٰ مهمة ، مِنْ بعدها أسئلة أخرىٰ تميّزُ أسلوبَ أستاذنا الذي نعرفه عنه في دراستنا عليه بالجامعة عندما كان يحاضر ويملي علينا دروسه في الأدب والنقد ، لا نصل إلىٰ النتائج إلا بعدَ أن نلهثَ وراءها في سلسلة من التساؤلات.

وهي كما ترىٰ ليست أسئلةً عاديةً ، يرصفها من أجل تشقيق الكلام والتفيهُقِ فيه ، ولا من أجل إطالة البحث والدوران الفارغ حوله. . وإنّما تعلّمنا منها نحنُ الطلاب آنذاك أن نطرحَ الأسئلةَ ، فطرحُ الأسئلةِ ليس عملاً هيّناً ، وقديماً قيل : «حُسْنُ السؤالِ نصفُ العلم».

علىٰ أنَّ بعض من يعرفون الدكتور شكري يشيرون إلىٰ تأثره بكتابات طه حسين وأسلوبه المعروف له في كثرة السؤال أحياناً ، وفي تكرار بعض الجمل علىٰ نحو معين ، وتقليب المعنىٰ الواحد في كلمات مختلفات مما لا يخفىٰ علىٰ المثقفين ، مما أعطىٰ عميدَ الأدب العربي سمته الخاصة التي ميّزت أسلوبه من أساليب الآخرين! أفكان الدكتور شكري متأثّراً به إلىٰ هذا الحدّ؟ أكان يأخذُ منه بعضَ صياغاته؟ الذي يلاحَظُ أنّه يفعل ذلك إلى حدٍّ ما ، ولكنّه احتذاءُ إعجابٍ لا تقليدٍ أو حكايةٍ ، وأغلبُ الظنِّ أنَّه تأثر بطه حسين لكثرةِ ما قرأ له ، ولكثرة ما تردَّد عليه في مصر ، فكتب علىٰ نحو ما كتب فأحسن وأجاد.

ولقد كُنّا في السنة الأولىٰ بالجامعة ـ بمناسبة ذكر طه حسين ـ نكره هذا الرجل المسمىٰ بعميد الأدب العربي [١]، أو كان بعضُنا يكرهه ، وبعضنا

---

(١) كان طه حسين عميد الأدب العربي في الجامعة المصرية كما هو مثبت على كتابه (ذكرى أبي العلاء) طبعة عام (١٩٣٧م) وهو لقب إداري يعادل عميد الكلية ، ثم لما تحوّل اللقب إلىٰ الأستاذ أحمد أمين بقي طلاب طه حسين يطلقونه علىٰ أستاذهم (ن).

الآخر لا يبالي به ، ذلك لأن فريقاً من أساتذتنا كرهوه كراهية مغلَّظة ، ونقلوا إلينا تلك الكراهية بأغلظ منها ، منطلقين من أنّ الرجل شكك بصدقية القرآن الكريم في كتابه (في الشعر الجاهلي) وشكك بأشياء كثيرة جاءتنا عن العرب ، وكنا مندفعين اندفاع الشباب وراء مَنْ يسبُّه ، نصفق له ونهلل ونردد كلماته بحماسة لا ندري كثيراً مما وراءها .

كان ذلك في غياب الدكتور شكري ، إذ كان مسافراً يضرب في آفاق الأرض ، ثم كانت النتيجة أنّ ذاك الفريق من أساتذتنا الذين سبُّوا طه حسين ، وكالوا له اللعنات رجعوا ففعلوا مثل ذلك ، فغمزوا من قناته وتناولوه ذمّاً.

وفي السنة الثانية من دراستنا بالجامعة صرنا تلاميذ أستاذنا الدكتور شكري ، وكنّا وقتها لا نميّز بالميزان الصحيح ما كان له وما كان عليه ، ودخلنا دروس أستاذنا حذرين لنرىٰ فيه رأينا ، فوقعنا منذ الدروس الأولىٰ علىٰ رجل حصيف ، يتكلّم بهدوء ، لا يسبُّ ولا يشتم ، ولا يثور ولا يفور ، كلُّه هدوءٌ وعلم ، يروعُك بكلماته التي يرصف بعضها إلىٰ بعض فيتكلّم بكلام الأدباء ، ويروعُك بنتائج العلماء.

وتناول أستاذنا مشكلات طه حسين في الشعر الجاهلي بمنهج علمي رائع [1]، ولقد كنا نكتب عنه أماليه التي يمليها علينا من غير أوراق أمامه إلا رؤوس أقلام وخطوطاً عريضة ، فتأتي علىٰ سطورنا الحيية كلاماً رائعاً حلواً نتعلّم منه كيف تكون الكتابةُ ، وكيف تتهادىٰ الجمل.

قال الدكتور عدنان الخطيب: «كان شكري فيصل أديباً موهوباً ، وناقداً قويَّ العارضة بالغَ الحُجَّة ، وله قلمٌ سيّالٌ يدور بالمشكلة مع أوجهها المتباينة ، وقد لا يقطعُ بأمرٍ إلا مضطراً ، واضح التعبير ، سهل المفردات . . .

وكان حريصاً علىٰ نقاءِ أسلوبه ، يخافُ عليه من السرعة أن تضيمَه ، وإن

---

(١) لا شك أن للدكتور طه حسين آراء شذ بها هي محلُّ نقد ، انظر كلام الدكتور شكري في هذا الكتاب في ص (١٦٠ـ ١٦٤) (ن).

كان لا ينتهي عادة من إعداد محاضراته ومقالاته إلا ليلة إلقائها أو عشية إيرادها. . . كان يدعو جميعَ أصحاب الأفكار الطيبة والأبحاث القيّمة إلىٰ تجويد أساليبهم ، والعناية بها ، سعياً لإبرازِ أفكارهم ، ونشر أبحاثهم على أكمل صورة».

ويتابع الدكتور عدنان الخطيب فيقول: «ومما لا شكَّ فيه أنَّ شكري فيصل كان بطبعه الذي فُطِرَ عليه علىٰ أتم استعداد للتسلح بأسلوبه الذي كان سلاحه الوحيد ، وأنَّ التربية التي نشأ عليها والتجارِبَ التي مرَّ بها ، والثقافة التي تمكّنَ فيها قد صقلت سلاحه حتىٰ استقام بيده ، فاستخدمه أروع استخدام».

والمتتبع لما كتبه شكري فيصل بعد رسائله الجامعية يدرِكُ الطابع المميّز لأسلوبه السلس الممتع. . . ليس أدلَّ علىٰ ذلك من التزام صاحبه به في حالتي الاطمئنان والقلق ، أو في حالتي الرضا والغضب لرأي يراه أو عقيدة يؤمن بها.

وإشعاعه الأدبي الذي كان يغزو قلوبَ طلاَّبه في الجامعات وأفئدة مستمعيه المعجبين بفكره وأسلوبه. . يصف الدكتور حسام الخطيب أسلوبه في التدريس بقوله: «كان ينثر إبداعه في قاعة المحاضرات كما تنثرُ العروسُ الدراهم ، وكان كثيرٌ من هذا الإبداع ابنَ الساعةِ والسليقة ، وكان يتمنّىٰ لو سجل ذلك أو جمع».

وأخيراً ، فهذا بعض ما يلاحظ في أسلوب أستاذنا ، وإن كان يحتاج إلىٰ دراسة أعمق من خلال أساليب عصره. . . يمكن بهذا أن يعطىٰ حقه الذي هو أهله.

* * *

المبحث الخامس

العقيدة والفكر

لعلَّ أبرزَ ما كان يميّزُ أستاذنا الدكتور شكري فيصل عن كثير من أقرانه ، ما حمل بين جنبيه من فكر جرَّ عليه في بعض الأحيان تعباً ، وحمَّله أعباءً ألزم نفسه بها علىٰ مرّ الأيام.

وأول عنوان من عناوين رسالته : **العقيدة الإسلامية المغلفة بالفكر النّير ، والعمل الدؤوب** ، حملها في حياته كلها ، في المنزل ، والمجتمع ، والعمل ، والحياة العلمية والتربوية.

كلُّ مَنْ كان حوله يعرِفُ إيمانه الذي يمتحُ منه في أعماله ومنطلقاته. نشأ علىٰ حُبِّ الله والرسول ﷺ وطاعتهما ، يلازِمُ العبادةَ ، ويديمُ الاستيقاظ المبكر لصلاة الفجر ، ويجلس لأوراده بعدها ، وقراءة جزء من القرآن الكريم ، ويوجِّه طلابه لقراءة القرآن الكريم في الغداة.

وهو إلىٰ ذلك يحصي أمواله كلَّ عام ليخرجَ زكاتها إلىٰ مستحقيها من المحتاجين ممن يلوذون به ، أو من أهل حيّه ، فيخصِّصُ إعانات متواصلة لبعض الأسر الفقيرة ، ويوكل بها إذا سافر.

وله إلىٰ جانب ذلك مبرّات وصدقات ، منها تبرّعه لبناء جامع الشيخ أرسلان الدمشقي بمبلغٍ كبيرٍ.

أما الحجُّ فله في قلبه منزلةٌ أيةُ منزلةٍ ، يشتاقُ معه إلى زيارةِ مثوى النبيّ ﷺ ولا أدلَّ علىٰ ذلك من رسالةٍ كتبها عام (١٣٨٩هـ) إلىٰ صديقه الدكتور عدنان الخطيب ، وقد بلغه أنّه عاد من تأدية فريضة الحج :

«وبعدُ ، فأحبُّ قبل كلِّ شيء أنْ أقدِّمَ إليك أخلصَ التهنئة بحجك الذي أدَّيْتَ ، جعله اللهُ حجّاً مبروراً ، وكتبَ لك المغفرة كاملة ، ما تقدَّم من ذنبٍ وما تأخرَ ، وشكر لك سعيك ، وتقبّلَ منك دعاءَك ، ما كان فيه لنفسِكَ ، ومَا كان منه لإخوانك ، وما كان للمسلمين جميعاً ، وقدّر لنا أن نلتقيَ معاً في هذا العام في حجٍّ مشترك ، فلم يعد أحبّ إلي من أن أستطيع هذه الفريضة كل عام»[1] .

ولئن كان الحجُّ يذكّر بالحشر والقيامة ، فإنَّ الآخرة والموت لهما عند أستاذنا فلسفة خاصة ، فهو يقول في ذلك[2] :

«وسيظلُّ الموتُ سؤال الإنسانيّةِ الخالد ، يلوبُ علىٰ شفاهها مرّ المذاق ، ويطيف بأعماقها شديدَ اللذع ، وينغّص عليها ما تظنُّ أنها تصطفي من الطيبات . . . ولكن الإسلام حين اعتقد بالحياة الآخرة ، ودعا إليها ، ورأى في الحياة معبراً ، وجعل منها زاداً : أحال مرارة المذاق إلى حلاوة ، ولذع السؤال إلى طمأنينة الجواب ، وطيبات هذه الحياة سبيلاً إلى طيبات الحياة الأخرى» .

وتهزّه المظاهِرُ الإسلامية عموماً بعد العبادات ، ما كان منها أعياد ، أو مناسبات إسلامية ، فها هو ذا يكتبُ عن ذكرىٰ المولد النبوي الشريف :

«إنّها من أروع ذكرياتنا ، ولكنَّ الذي يحسُّه المرءُ خلال هذه الأحايين أنَّ الذكرياتِ لا تتركُ آثارها فينا . . كانت تشبُّ عندنا انفعالاتنا وعواطفنا في مثل هذه الاحتفالات . . . كنا أفراداً وجماعات نجدُ في مثل هذه الأيام أروعَ صور التجديد الداخلي النفسي الفردي والاجتماعي . . . كانت مناسبات تستصلحُ كلَّ ما فات ، وتثيرُ كلَّ الذي ركد ، وتجدِّدُ كلَّ ما قد يكون عفا . . . ألم يكن في الوسع أن تكونَ مثل هذه المواقف الرائعة من جذورنا التاريخية مثاراً لكثير من الفكر والرأي ، ومجالاً للالتقاء والتسامح ، ومناسبة يُسقِطُ فيها الإنسانُ

---

(١) شكري فيصل وصداقة خمسين عاماً ، ص٥٥ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤ .

الأوراق الذابلة الصفراء ، والأغصان اليابسة الخشنة من جذع الحياة التي يلبَسُها»[1].

وتبلغ محبة النبيّ ﷺ شغافَ قلبه ، ويهتزُّ لتعظيمه كما ينبغي له ، فيكتبُ في هذا يقول :

«يا سيدي الرسول! أتراني أملكُ منك النجوىٰ ، وأستطيعُ لك البث ، وأبلغُ من ذلك السبيلَ ، وأنا غائبٌ في فيضٍ من روعتك ، ذاهلٌ في فضاءٍ من جلالِكَ ، فإنَّ فيَّ ديناً من قدسيتك ، أذكر دعوتَكَ الكريمةَ ، فأنساقُ في جمالها المُشْرِق . . . سأعبُّ مِنْ كوثركَ الخالد ـ يا سيدي يا رسول الله ـ فأنا ظمآنٌ حرَّانُ . . . وسأقطف من جنّاتك المترعة ، فأنا نَهِمٌ شَرِهٌ ، ولقد طال بيَ الظمأُ ، واشتدَّ عليَّ الجوعُ ، وضلَّ بي الركبُ في قافلةٍ تظنُّ الهداية وهي حيرى ، ، تدَّعي الهناءةَ وهي شقيّةٌ . . . لأنّها فقدت في الحياة النفسية أحفلَ عناصرها بالإحساس ، وأشدَّها أثراً في التفكير ، وأقربها خطًى من الخير . . فاستغفر لي يا سيدي يا رسول الله ، إني إنسانٌ لا يرى بعينيه ، ولكنّه يحسُّ ببصيرته ، ولا ينطوي في عقله ، ولكنه ينطوي معه في حدسه . . ادعُ واستغفر لي ، فما أحوجني يا رسولَ الله إلىٰ الاستغفار والدعاء»[2].

ويفيض شوقُه لزيارة النبيِّ ﷺ ، حتىٰ ليكتبَ بمشاعر تفيض بالحب والحنين مقالته «شكاة ونجوىٰ من وحي الهجرة» فيقول :

«متىٰ يا رسول الله . . . متىٰ تكتحلُ عيناي بالتطلُّع إلىٰ مقامِكَ الكريم في أرض النبوّةِ الطاهرةِ ، ويقدَّرُ لي أن أقفَ بين يديكَ أقرئك السلام ، وأبثُّكَ الحنين ، وأفنىٰ في لثم أعتابك؟ لقد طال بي الشوق ـ يا رسول الله ـ إلىٰ الترابِ الذي لامسَ قدميك ، والأرضِ التي وطئت ركائبُك ، والجوِّ الذي نثرت فيه النعيمَ والسلام . . . فمتىٰ يا رسول الله متىٰ؟ إنَّ الحنين ليحدوني ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٦ .

(٢) مجلة الرسالة ، السنة العاشرة ، المجلد الأول ، ص ٢١٦ ، سنة ١٩٤٢م .

وإنّ الحبَّ ليهزّني ، وإنّي لأجدُ في قلبي النورَ ، وفي عيني الضياءَ ، وعلىٰ شفتيّ النغماتِ الحلوةَ ، حين أراني في مقامِكَ يا رسولَ الله ، هادئَ النفس ، مطمئنَّ الخاطر ، كما يطمئنُّ الإنسانُ إلىٰ خيالات الأمل ، ويهدأ إلىٰ صور الخير ، ويهيمُ في أودية الجمال . . . متىٰ يا رسول الله»[1] .

ولقد حقق الله له هذه الأمنية ، فزار المدينة المنورة مرات ومرات ، ثم لمّا عُرض عليه أن يكون أستاذاً في جامعتها وفي غيرها من الجامعات لم يستبدل بها غيرها ، ففضّل جوار الرسول ﷺ علىٰ مجاورة غيرها ، ومنَّ الله عليه بثمرة هذه المحبة ، فكان مثواه الأخير في البقيع حيث الصحابة رضوان الله عليهم .

وإذ تبرز الصحوةُ الإسلامية في أواخر حياته ، فإنّه يهتز لها ، فيوليها اهتمامه ، وكان له فيها توجيه ومعالجة ، وكتب في دراسة عن «الصحوة الإسلامية بين الواقع والطموح» يقول :

«إنَّ أبرزَ ما تعنيه الصحوة اللَّحاق بالركب الإنساني ، إنّها تتمثّل في إنسان نائمٍ خلَّفته القافلة وراءَها ، ثم صحا فوجدَ نفسَه في مثل حالة الضياع . . . فمضَىٰ يسعىٰ وراء الركب» .

إنَّ أستاذنا يريدُ صحوةً إسلاميةً فاعلةً : «ولذا فيجب علىٰ هذه الصحوة أن تعمّقَ الأساسَ التنظيري الذي جاءنا من عند الله . . . تعمّقُ فهمه دون أيِّ خروج عن نصوص القرآن الكريم أو السنة النبوية المشرفة ، أو ما التقىٰ عليه إجماعُ المسلمين . . . » .

ويرىٰ أنّ **«الحركة الإسلامية لا تتطلع إلى سلطة أو تحكُّم ، ولا تسابقُ أصحابَ السلطة والحكم ، علينا أن نستخدم ما يسمونه الديمقراطية بأصح معانيها ، لأن الصحوة تريد أن يتاح للشعوب في حكومات الإسلام أن تحقق وجودها» .**

---

(١) المرجع السابق ، السنة التاسعة ، المجلد الأول ، ص٢٩٤ ، سنة ١٩٤٠م .

ويؤمِنُ بالشورىٰ في الإسلام ، ولكن بمفهومٍ واضحٍ ، فيقول :

«وليس للشورى شكل واحد ثابت لا يقبل التغيير ، ولكن لها مفهوماً ثابتاً لا يقبل جوهره التغيير . . . أما العلم فليس شرطاً من شروط النهضة ، بل هو النهضة بذاتها»[1] .

ويمكن أن تكونَ وطنيةُ أستاذنا وعروبتُه وإيمانُه بالوحدة العربية من فكره الذي يلحق بعقيدته الصافية ، ولا نزاعَ بين الإيمان بالله تعالىٰ والإيمان بحبِّ الوطن والوحدة ، وإنْ فرَّق كثير من الناس بينهما .

ووطنية أستاذنا قديمة ، نشأَ عليها منذ نعومة أظفاره ، منذ كان طالباً في المدرسة ، حين تفتحَ وعيُه شيئاً فشيئاً في (مكتب عنبر) منارة العلم والجهاد بدمشق ، فكان هذا المكتب يشعُّ نورُه علىٰ الطلبة حفاظاً علىٰ العروبة ولغتها ، ودفاعاً عن أرض الوطن ، ومكافحة للاستعمار ، فأساتذته كبار أساتذة العربية : كالجندي ، والبزم ، والقواس ، والمبارك ، الذين أشرنا إليهم من قبلُ ، وهم صفوةُ رجال العلم والأدب والوطنية ، دأبوا علىٰ تنشئة طلابهم علىٰ الإسلام والوطنية والفخر بالعروبة ، مما جعل المكتب موئل الحركات الوطنية والاستقلالية ، فيه يقف الخطباء من الطلبة ، فيلهبون العواطف والمشاعر ، فتخرجُ المظاهراتُ الداعيةُ إلىٰ الاستقلال ، فإذا خرج الطلبة إلىٰ شوارع دمشق يعلنون سخطهم لأمر يزعجهم سار معهم أهلها ، فتغلق المحلات التجارية أبوابها ، وتصبحُ دمشق كلها كتلةً واحدةً ضد المستعمر الفرنسي ، ومن هذه الاضطرابات إضراب الخمسين يوماً عام (١٩٣٦م) الداعي إلىٰ إلغاء الانتداب للوصول إلىٰ الاستقلال .

وكان شكري فيصل من هؤلاء الروّاد ، رضعوا حبَّ الوطنية بكل معانيها ، وشاركوا في كل ما يدعوهم واجبهم الوطني لهذه الغاية السامية .

---

(١) من مقال : «حركات الإصلاح الاجتماعي في الإسلام» ، مجلة المعرفة ، شباط ١٩٧٥م .

وفي سنة (١٩٣٣م) تأسس حزب سياسي باسم «عصبة العمل القومي» وكان من أعضائه «شكري فيصل» ، وفي سنة (١٩٣٨م) أصدرت عصبة العمل هذه جريدةً سياسيةً تحمل اسم العمل القومي. وعن هذه الفترة كتب الأستاذ المفكر أكرم زعيتر فقال:

«كان إخواني وزملائي من أركان (عصبة العمل القومي) يصدرون في دمشق جريدة (العمل القومي) تتكلم بلسانهم ، وتدعو إلىٰ مبادئهم ، وقد عهدوا في رئاسة تحريرها إلىٰ مجاهد يعربي ذي صلابة في وطنيته ، وإيثار في سجيته هو المرحوم عثمان قاسم ، وكنت أتردد علىٰ مكتبها المتواضع ، وأردفها بمقالات قومية ، وألمح في زاوية فتًى نحيلاً في العشرين من عمره ، مكبّاً علىٰ العمل يكتب ، ويصحح وينقح ، وسألت عنه فقيل: إنه فتىٰ نابغ ينتمي إلىٰ العصبة ويحمل البكالورية ، واسمه شكري فيصل»[١].

وظل شكري فيصل ينشر المقالات فيها ، ويساعد ، مُعَرِّضاً نفسه لغضب الفرنسيين المنتدبين ، ومرت أيام كان فيها رئيس التحرير.

وتمرُّ الأيام ، ويسافر إلىٰ مصر للحصول علىٰ الإجازة في الآداب من القاهرة ، ويلتقي هناك بكبار الوطنيين السوريين والمصريين وغيرهم من العرب ، يتناقلون أخبار فلسطين ، والمذابح التي يقوم بها اليهود ، وما يقوم به الفرنسيون بسورية من قتل وتشريد ، ويعود إلىٰ دمشق ، ويعمل بالتدريس في ثانوياتها ، وفي هذه الفترة في صيف عام (١٩٤٥م) قام الفرنسيون بضرب دمشق بالمدافع والطائرات ، ولا يمكن لأديب مفكر كشكري فيصل إلاَّ أن يدافع بلسانه وقلمه ، فكتب آنئذٍ مقالاً في (مجلة الأديب) افتتحه بقوله:

«**هذه دمشقُ ، تخرجُ من بين ألسنةِ النار الحمراء ، وسحائب الدخان الأسود الكثيف ، وتشقُّ طريقها في غمرةِ أمواج اللهب.. همُّوا بالمدينة يحرقونها ولا يُنْذِرونها ، ويدكّونها ولا يُشعِرونها ، ويطيحون ببنيانها**

---

(١) د. شكري فيصل وصداقة خمسين عاماً ، ص ٢٤.

وأركانها ولا يوقظونها ، ويرقصون بالرطانات فوق معالمها ومسارحها ، وتؤزّ الطائرات تصمُّ آذان أولادِها وبنيها. . إنّه جنونُ الحقدِ ، وسُعْرُ الإجرام ، وإنّها دمشق كنانةُ الله ، وشاطئ صحرائه الطهور. . . » .

ويختم مقالته بقوله :

«يا أطفال العرب! . . . أيها المنكوبون بأمهاتهم وآبائهم وإخوانهم وأهليهم! لقد مهرتم الحرية ثمناً غالياً فلتكن دوماً ملك أيمانكم الطاهرة»[1] .

وبعد التضحيات الغالية والنكبات المستمرة حصلت سورية علىٰ استقلالها سنة (١٩٤٦م)، وتعمُّ البلادَ الأفراحُ بالنصر والظفر، وبهذه المناسبة يكتب أستاذنا مقالاً يفيض عاطفة وطنية ونبلاً وصدقاً كأنه الشعر ، وفيه :

«دعني يا صديقي أشربُ كأسَ الظفرِ ، وأعبُّ منها حتىٰ الثمالة.

دعني أعلُّها مرةً ، وأنهلها ، فقد انطلق الهزارُ الحبيبُ بعد سجنٍ طويل ، وتفتّحت له أبوابُ العيشِ الغريض.

كان يرى الأُفقَ ، فلا يستطيعُ أن يحومَ فيه ، ويستمع إلىٰ الزغاريدِ فلا يملكُ أن يتجاوبَ معها ، ويرىٰ بعينيه مولد الفجر فلا يغنّي لولادته ، وبسمة الزهر فلا يضحكُ لبسمته.

أما اليوم. . . اليوم يا صديقي فلأهم معك في دنيا من النشوة ، فهذا الهزارُ يضرِبُ بجناحيه في الهواء ، ويطوفُ في جنبات السماء ، ويغنِّي ملءَ فيه ما وسعه الغناء ، ويا ما أروع الغناء! .

هذه الدوحة التي أرادوا أن تُجْتَثَّ أخلفت أغصاناً، وأنبتتْ أوراقاً، ورفت أزهاراً ، إنَّ عبيرها ملءُ جوارحنا. . فتعالَ معي نبدأ منها دعوتنا الجديدة. .

يا صديقي هذي يدي تحمِلُ قلبي ، ولك تحياتي. . »[2] .

---

(١) مجلة الأديب : السنة الرابعة ، تموز ١٩٤٥م ، ص٥٩ .

(٢) مجلة الأديب ، نيسان ١٩٤٦م ، السنة الخامسة ، ص٦ .

وما كادت سورية تفرح باستقلالها، وتنعم بحريتها، حتىٰ كانت سنة (١٩٤٨م)، وفوجئ المسلمون والعرب بنكبة فلسطين، فاهتزّت لها مشاعرهم وعواطفهم، واعتصر الألم قلوبهم، فتحرّك كل عالمٍ وأديب وشاعرٍ ومجاهدٍ يسعىٰ لاسترداد ما اغتصبه الصهاينة بالمكر والخيانة.

وأصيب أستاذنا بحيرةٍ؛ ما واجبه؟ وما الذي يجب أن يفعله؟ فكتب في ذلك مقالاً بعنوان: «عار لا يُمحىٰ»، وفيه يقول:

«حين فتحتُ عينيَّ في الصباح كنتُ كالذي يستيقظُ من حُلُمٍ مرعبٍ، لم أكنْ شهدتُ ما يؤرّقني ويزعجني، ولكنّي أعلمُ أنّي أويتُ إلىٰ فراشي، وعلىٰ شفتيَّ هذه الأسئلةُ التي يدور بها ذهني، وينطلِقُ بها لساني: ماذا تفعل هنا؟ أي شيء هذا العلم الذي تجهد له، وتُفني فيه الوقتَ والصحَّة والشباب؟ ما يكونُ من شأن العربية التي تعملُ لها وتنطوي جندياً إن قُدِّرَ لصهيون أنْ تحقِّقَ أحلامها، وأن ترفعَ أعلامَها... أين يقعُ هذا العملُ الذي تحبسُ نفسَك عليه من هذه المعارك التي تدوّي، والنفوس التي تستشهد، والبلاد التي تضيع بين حُمْقِ القيادات وحِقْدِ الزعامات وأطماعِ السياسات وحقارة الأغراض... أين أنتَ؟ وما شأنك؟ وهذا الطريق لا طريقَ غيره قبل أن تسوّىٰ معالمه، وترفع صواه، وينتهي إلىٰ غايته من طرد العدوان، وصد الطغيان ورد الغزو الأحمق».

وينهي المقال بقوله:

«لن يكون في أعناقنا ولاء لأي واحد من هؤلاء الذين يتمثل فيهم سلطان العرب قبل أن يمحى هذا العار.. إن أيدينا لن تصافح من جديد إلا أولئك الذين طهروا أيديهم من هذا الرجس، وغمسوها في دم أعدائهم سبع مرات متواليات»[1].

---

(١) مجلة الرسالة، السنة السادسة عشرة، المجلد الأول، عام ١٩٤٨م ص٥٥٥ ـ ٥٥٧.

واستمّر أستاذنا يكافحُ بقلمه ولسانه علىٰ كلِّ منصّةٍ بالجامعة وفي النوادي والمراكز العلمية ، وفي المجلات والصحف . .

وفي سنة (١٩٥٤م) أراد أن يكونَ لأفكاره الوطنية أن تنتقل من التوجيه إلىٰ اتخاذ القرار التنفيذي ، فرشّح نفسَه للانتخابات النيابية عن مدينة دمشق ، غير أنه لم يحصل إلا علىٰ أصوات المثقفين الواعين التي لم تكن كافيةً للفوز بالانتخاب .

وفي عهد الوحدة بين مصر وسورية سنة (١٩٥٨م) رشّح نفسه لانتخابات الاتحاد القومي عن حيّه ، فنجح بأصواتِ غالبية الناخبين ، مما أهّله ليصبحَ في عداد أعضاء مجلس الأمة عن الإقليم السوري . وبقي فيه حتىٰ وقع الانفصال .

بعدها انضمَّ إلىٰ الجبهة العربيـة المتحدة التي تضمُّ الوحدويين العرب ، للعمل علىٰ إعـادة الوحدة[1] ، غير أنّ هذا سـاقه إِلى السجن خمسَة أشهرٍ[2] ، تفرَّغ بعدها للتدريس لخدمة العربية وآدابها ، والكتابة وحضور الندوات العلمية والأدبية ، واختار قلمه ولسانه وسيلتين لتوضيح أفكاره .

ولابد لنا من توضيح أمرين هامين من أفكاره :

١ ـ كان رحمه الله يعتقد أنَّ جميعَ ما حلّ في الأمة من الحروب والمآسي والآلام والتمزق والتفرقة؛ بدءاً من الحروب الصليبية ، ومروراً بالاستعمار الغربي ، وانتهاء بالهجمة الصهيونية علىٰ فلسطين ، **إنّما كان المستهدف هو الإسلام** ، وكان يقول :

«إنَّ هذه الهجمات المتتالية علىٰ أمتنا كانت قادرةً علىٰ محق العروبة وأهدافها ، غير أنها بقيت بالمرصاد صامدة ، لأن الإسلام راسخٌ في نفوس أبنائها» .

---

(١) حفل استقبال الدكتور عبد الوهاب حومد في مجمع دمشق ، ص٤٣ .

(٢) أفرج عنه في (٢٩ رجب ١٣٨٣هـ = ١٥ كانون الأول ١٩٦٣م) .

٢ ـ كان يحذِّرُ من أخذ دراسات المستشرقين علىٰ أنّها حقائق مسلمة ، بل كان ينظر إلىٰ غالبية المستشرقين وإلىٰ دراساتهم البعيدة عن الموضوعية في البحث والنتائج ، لأنّ **أبحاث المستشرقين تصبُّ في دوائر وزارات الخارجية أو المستعمرات أو التبشير**(١) .

هذا هو شكري فيصل في عقيدته وفكره ، إيمانٌ بالإسلام بمُثله وعباداته ومعاملاته ، مُغَلَّفٌ بحبِّ الوطن والعروبة والوحدة. لكل ذلك عاش حياته ، وحمل رسالته ، فكان من أجل هذا الفكر والإيمان ، يكتب كثيراً ويعمل كثيراً لم تغيّره الأيام ، وعلىٰ ذلك مات ، ولقي ربه مخلصاً.

* * *

---

(١) مقالة الدكتور شكري فيصل «على هامش مؤتمر المستشرقين» الذي عقد بباريس عام (١٩٧٣م).

المبحث السادس

في المجتمع

عرف كلُّ الذين خالطوا أستاذنا الدكتور شكري فيصل جملةً طيبةً من أخلاقه التي تميّز بها عن كثير من الناس ، عرفوا عنه الأدب الجمَّ في الخطاب ، وعرفوا عنه اللطفَ الواضحَ مع الصغير والكبير ، وعرفوا منه صِدْقَ التعامل وبذلَ الجاه عند الاقتضاء لأصحابِ الحاجة الذين يقصدونه ، وكثير ما هم.

لم تُعْرَفْ عنه نزوةٌ في تصرّفاته ، ولا انحرافٌ في أخلاقه ، وإنّما كان عنواناً للاستقامة والخُلق الحسن ، يمتحُ عن أصلٍ طيبٍ ، وتديُّنٍ أصيلٍ في نفسه ، لا ينحاز عنه . . صقلته التربيةُ التي تلقّاها عن علماء دمشق ، فكانوا أنموذجاً وأسوةً له يقتدي بهم.

ومن فضل الله علىٰ أستاذنا أنّه وُلِدَ وتربّىٰ ونشأ في بيتٍ عرف بالتقوىٰ والصلاح : بيتِ خاله العلامة الشيخ محمود ياسين ، عرَف فيه وشاهد كلّ يوم العلاقات العلمية والاجتماعية ، وتعلّم أصولَ المعاملة الطيبة ، فاقتدىٰ بها ، حتىٰ صار الخُلُقُ الحسنُ من طبعه.

وقد عُرِفَ عن أستاذنا ـ عند معارفه جميعاً ـ أنّه بارٌّ بوالدته ، يخفض لها جناح الذل من الرحمة ، وكان حريصاً علىٰ رضاها وسرورها وتنفيذ رغباتها في كل شيء تطلبه ، حتىٰ إنّه كان يعرف ما تريد ، فينفذه من غير طلب ، فبذل ماله لها مذ كان يافعاً يعمل في الوراقة وما يجنيه من مكافآت في الكتابة في الصحف والمجلات عندما كان طالباً في مصر.

وكان لا يغادر منزله صباحاً ، أو يعود إليه ليلاً إلا ويقبّل يديها ، ويلتمس دعاءها ، حتىٰ صار ذلك ديدنه وعادته ، وبعد وفاتها كان لا ينقطع عن زيارة قبرها وقبور أهله وأحبائه ، ومن بره بوالديه برُّه بأهليهما وأصدقائهما ، يحترم كبيرهم ، ويرعىٰ صغيرهم ، ويعتني بفقيرهم ، ويبذل جاهه في سبيل تحقيق مطلوبهم.

أما عن أخلاقه فلن نتعرّض لها كلها ، وإنما نقف عند جوانب ثلاثة من أخلاقه ، هي الوفاء ، والتواضع ، والإيثار.

١ ـ وفاؤه:

إنَّ خلق الوفاء أصبح نادراً ، وخصوصاً في هذا الزمن المتأخر ، والوفاء يدلُّ علىٰ عنصر أصيل ، وعلىٰ ارتباط صاحبه بالماضي ، واعتزازه به ، واحترامه وتوقيره للذين أخذَ عنهم ، أو استفاد منهم ، والودّ والمحبة للذين نشأ معهم ، لا يتنكّر لهم ، بل يقتربُ منهم.

وعندما وفقه الله تعالى فنال شهادة الماجستير ، وقام بنشر أول رسائله الجامعية العالية صدّر مقدمة الكتاب[1] بهذا الإهداء الرفيع:

«إلىٰ أمي!

التي علّمتني الصبر ، وحبّبت إليَّ القناعة

وغالبت في غيبتي عنها الآلام والدموعَ

وكانت تعيشُ ترقُّبُ دائماً أوبةَ الغائبِ

ويرفُّ جفناها لصورته كما تتمتم شفتاها باسمه

وتسأل عنه في خلواتها وصلواتها وأحلامها وسبحاتها

إلىٰ أمي!

---

(١) مقدمة مناهج الدراسة الأدبية.

التي كانت تكتم الحنوَّ في طفولتي في دمشق

ثم كانت تفجّرُ الحنينَ في فتوتي في القاهرة

إلىٰ أمي!

وقد نذرتْ نفسها لي

متأبّيةً علىٰ كلِّ شيء ، منصرفةً عن كلِّ شيءٍ

أهدي هذه الرسالة

ولن تكونَ شيئاً في جانب ما كانت تلقىٰ

وإنما هو الإكبار والوفاء والبر» .

وقد خصَّ والدته بمقالة في مجلة (الرسالة) بثها شجونه وحنينه إليها بعنوان : «حنين»[1] يقول فيها :

« . . . هكذا الحنين أيتها الكريمة الرؤوم . . . كهذا الليل . . تضحك علىٰ جوانبه المترعة بالأسىٰ مُنًى ، وترف في ساعاته المريرة رؤًى . . وتنثر في لياليه الكئيبة أحلامٌ بيضاء كهذه النجوم . . . ولكن لا عليكِ يا أماه حدّقي وراقبي ، إنَّ نظراتنا كهذه النجوم ترقصُ رقصةَ الظفرِ ، وتنشدُ نشيدَ الحياة ، وترسمُ للقاء القريب دعوة كريمة» .

هذا عن بره بوالدته ، وأمّا خاله فقد خصّه بجميل الثناء ووافر العرفان ، والعاطفة الصادقة ، وما زال يذكره في كتبه ومقالاته وفاءً مخلصاً ، ذاكراً فضله عليه ، وحبّه له ، وكم كان يتمنّىٰ أن يرىٰ خالُه بواكير أعماله العلمية المتميزة ، فإذا فاته فما عليه إلا أن يقوم بواجب حقه عليه ، فإذا به يصدّر مقدمة كتابه الرائع «**المجتمعات الإسلامية**» بإهدائه هذا الكتاب ، مع شعور بالألم الذي استولىٰ عليه لوفاة خاله قبل أن يرىٰ هذا الإنتاج العلميَّ لابن أخته ، الذي درجَ في بيته ، وعلىٰ يديه تخرّجَ ، ومن علمه وخلقه نهَلَ ، حتىٰ أصبحَ علماً من أعلام الأمة ، وأديباً من أكبر أدبائها .

---

(١) مجلة الرسالة ، السنة العاشرة ، المجلد الأول ، ١٩٤٢م ، ص٢٧٢ .

بأسلوب أستاذنا وكلماته الرقيقة المحببة وبيانه المشرق وعواطفه الجياشة وعرفانه بالجميل والفضل ، وحبِّه الكبير لخاله كان هذا الإهداء في صدر كتابه بهذه الجمل الموجزة البليغة الرائعة :

«إلىٰ خالي !

الذي أراد الله أن يصطفيه إلىٰ جواره قبلَ أن يملأَ عينيه من ثمرة الغرسة التي انتزعها من أرضها ليزرعها في أرضٍ خصبةٍ من العلمِ ، وفي جوٍّ نضرٍ من المعرفة ، وفي دنيا مشرقةٍ بالفضائل والمكارم .

ثم مضى يبذلُ لها من ذاتِ يده ، ومن ذاتِ رُوحِهِ العونَ والنُّصْحَ .

ويثيرُ فيها دفقةَ الحسِّ ورقّةَ النفسِ

وينمِّي عندَها إرهافَ العواطِفِ ، وصفاءَ المشاعرِ .

ويشقّق فيها مساربَ الجمالِ والذَّوْقِ

ويعلّمها كيف تتحرَّرُ من عبودةٍ وشهوةٍ

ويحلِّقُ بها علىٰ جناحينِ من العلمِ والتقوىٰ

حتّىٰ أنزلها من ذلك كلِّه هذه المنزلةَ التي تعتزُّ بها

إلىٰ روح خالي . . .

محدّث الشام الأستاذ الشيخ محمود ياسين

الذي يدينُ له جيلٌ من الناس في أطراف الشام بنصاعةِ الشعورِ الديني السامي ونعمةِ الحياةِ العلميّةِ في ضروب الثقافةِ الإسلامية .

وجمالِ التعاون علىٰ الحقِّ والخير والمعروف

أهدي هذا الكتاب

فهو روحٌ من روحه ، وعبقٌ من عبقه

وفاءً ببعض حقه

وإيماناً بفضله

وعهداً أن أمضيَ في الطريق الذي بدأ حتىٰ نلتقيَ في دنيا الخلود.

وتعويضاً عن الحياة التي كنتُ أحبُّ أن أعودَ إلىٰ دمشق، فأملأَ منها نفسي ثم عدتُ لأنثر علىٰ قبرِهِ الطاهر دموعي، وهذه الباقةُ من الأزهارِ البيضاء»[1].

أما زوجة خاله[2]: فقد خصَّها بمقالة رثاء تعبيراً عمّا يكنّه لها من احترامٍ وتقديرٍ، ووفاءً لها، ابتدأ المقالة بقوله:

«كانت كشعلة متقدة من نشاط مجنّح، كوكبة عزم لايني ولا يتوقف، كانت لها حدّةُ سيفٍ مصقولٍ في يد بطل، واندفاعةُ فدائي في معركة وجودٍ، وكان لها ـ إلىٰ ذلك ـ قلب كبير كبير، يتّسعُ للناس مرةً إذا أصابوا، ومرّاتٍ إذا هم أخطؤوا.. ما عرفتِ الحياةَ إلاَ خدمةً للذين يعانون الحياة، وما أدركتْ منها إلا لذة الغلبةِ علىٰ مصاعبها.

من هنا كان أكثر الذين أحبتهم، وانحنت تحدِبُ عليهم في عطفٍ، هاتان الطائفتان اللتان تقفان علىٰ طرفي الحياة: الأطفال الذين يقبلون عليها، والمسنون الذين ينصرفون عنها...».

وقد قسّم مقاله إلىٰ أربعة أقسام: ١ ـ حياة. ٢ ـ مرض. ٣ ـ موت. ٤ ـ وماذا؟ وعن الموت قال:

«وانشقت السماءُ لتستقبل وجهاً ملائكيّاً كانت أرسلته إلىٰ الأرض علىٰ صيغة إنسان.. وألقي في روعنا هاتفٌ علويٌّ يؤدي في ترتيل بارع، وكأنّه صوتٌ يلفُّ الأرض يحتويها... سمعنا منه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦ـ ٤٧]» ثم يختم مقاله بقوله:

«يا ويلي.. وإذن فلن يفتح أمامي هذا الباب مرة أخرىٰ... لن ينفرج عن هذه الإنسانة الملاك تستقبلني... تطبع علىٰ خدي قبلتها، وأنحني على يديها أقبلهما، لن تمتدّ يدُها تمسحُ وجهي وتقول وهي تلمحُ إعيائي، في

---

(١) مقدمة المجتمعات الإسلامية.

(٢) وهي والدة زوجته السيدة أم معتز.

حب وحنان وبشيء من تثريبٍ خفيفٍ: كيف الأولاد؟.. هل جلست إليهم؟!»[1].

وامتد وفاؤه لخاله فشمل البيتَ الذي عاش فيه برعايته، هذا البيت الذي كان قطب حركة علمية واجتماعية مرموقة في حركات دمشق خلال حكم الملك فيصل وسنوات الانتداب، وتمر الأيام والسنون وذكره لخاله لا يبارح مخيلته وقلمه في حله وترحاله وفي رحلته إلىٰ توبنغن بألمانية سنة (١٩٥٦م)[2] حنّ إلىٰ هذا البيت، وتذكر ما كان لهذا البيت من شأن وتاريخ علمي عريق، فكتب مقالة بعنوان: «إلىٰ بيتنا القديم»[3] نقتطف منها ما يلي:

«أصحيحٌ يا بيتنا الذي فيه نشأتُ أنّهم... أهلي الذين أدير حولهم الذكريات، ويطيف بهم القلب... أصحيحٌ أنهم تركوك؟! أودعوك الحب الذي ما عرف الناس حبّاً مثله، والحنان الذي هو أرقُّ من قلوب الأمهات، وأحلى من وجوه الأحبةِ بعد غيابٍ طويلٍ...

أيُّها البيتُ الذي شهدتُ فيه الشمسَ، ومنه نَشَقْتُ الهواء، ومن السماء الذي تبدو من نوافذه عرفتُ السماء.. فيه عرفتُ الله والعِلمَ والأسرةَ... أصحيحٌ أنّهم ارتحلوا إلىٰ غيرك؟!.

أضقتَ بهم يا بيتنا الذي يقع منا في القلب، وقد اتّسعتَ منهم للجيل بعد الجيل؟! أما عاشَ فيك الأبُ، وتفتّح الأبناءُ، والتقىٰ الأهلُ من كلِّ طرفٍ علىٰ هذه المائدة التي كانت تنصب في هذه الغرفة من غرفك في الشتاء... فإذا البيتُ ذو الغرف الصغيرة التي يركبُ بعضُها بعضاً في غير نظامٍ، كأنّما هو حيٌّ كاملٌ قد انتشر فيه أولئك وهؤلاء من النسوة والرجال، ومن الكبار والأطفال، ولكلٍّ منهم في كلِّ صفحة جدارٌ منك، وفي كل موطئ قدم من أرضكَ حدثٌ يذكره ويحنُّ إليه، ثم لا تزيدُه الأيامُ إلاَ تذكراً له وتعلُّقاً به؟!.

---

(١) مجلة الآداب، الجزء٢، السنة السابعة عشرة، عام ١٩٦٩م، ص٣٤ ـ ٣٥.

(٢) في هذه الفترة انتقلت أسرةُ خاله إلىٰ بيتٍ جديدٍ أوسع.

(٣) نشر المقال في مجلة الأديب، سنة ١٩٥٩م، الجزء الأول، ص٨ ـ ٩.

. . . ومن ينسىٰ هذه الغرفة التي كانت زين الغرف في دمشق ، كانت في مجموعة الكتب التي فيها أحلىٰ ما اطمأنت إليه النفسُ. . . كان يدخُلها أولئك العلماء ، والذين يطلبون العلم ، والدّارسون الذين يتمنّون أن يكونوا من الدارسين.

لكأنّي ـ وبيني وبينك أيتها الدار كلُّ هذه الآماد الفساح ـ أسمعُ صوتَ هذا العالِم الذي تدين له دمشق ثقافة ومجتمعاً بالكثير ، ينبعثُ في كل أطرافك. . . لكأنّ هذا الصوت الضاحكَ يرىٰ كلَّ هذه الآلاف التي دخلت هذا البيت ، وما خرجت إلا مفيدةً منه ، أو متعاونةً معه ، وترتسم في رنة هذا الصوت بسمة صاحبه ، ويبدو في صداه هذا الوجه الطهور ، وجه محدث الشام وعالمِها وعامِلها الذي عاش عيشةَ كفاحٍ وزهوٍّ واستعلاءٍ علىٰ الجاه والمنصب الكبير.

أرأيتِ يا دار وجهه. . وجه خالي. .

أترين يا داري التي أحبَّ ، هذا الوجه الرحبَ السمحَ. . أليس هو الذي حبَّب إليَّ المعرفة ، وركّز في نفسي أنَّ كرامة العلم فوق كل كرامة ، وعلّمني أنَّ كل مناصب الدنيا وسلطانها ليس إلا خداعاً باطلاً ، ووهماً زائفاً؟!.

أليس هذا وجهه الذي أرىٰ. . أترينه يا دار كما أراه ، يرحمه الله؟!.

تحية الوفاء يا دار. . أهلي ما غادروك. . وقد علَّموا الناس الوفاء. . . ألستِ قطعةً من أرض الوطن الحبيب. . . تحيةً يا دار ، وغمرت جنباتك السعادةُ».

وقد بقي أستاذنا طيلة حياته يشعر بعاطفة الوفاء والعرفان نحو خاله ، يذكره بالإكبار والتبجيل في كتبه ، ومقالاته ، وخصلةُ الوفاء هذه ظلت ملازمةً له طيلة حياته في علاقاته كلِّها.

كان هذا الوفاء إذن جِبلّةً جُبِلَ عليها أستاذنا في كل مراحل حياته ، مع كلّ أساتذته ومعارفه ، وفي كلِّ مؤلف من مؤلفاته حتىٰ وفي كثير من مقالاته نجد الوفاءَ والنبلَ ، متمثّلاً بتلك الكلمات الرقيقة العذبة التي يتحدّث فيها عن

مشرفه وأساتذته وأصدقائه وزملائه وطلابه ، فهو دائماً يردُّ الفضل إلىٰ ذويه ، ولا ينسىٰ لأساتذته الأوائل في مكتب عنبر فضلهم وتوجيههم نحو علوم اللغة العربية وخاصّةً الأدب. وفي ذلك يقول:

«فقد حُبِّبَ إليَّ الشاعر (النابغة) من خلال بعض الدروس التي استمعت فيها ، أيام كنّا في مرحلة الدراسة الثانوية ، إلىٰ أستاذنا الجليل المرحوم العلامة محمد سليم الجندي ـ أجزل الله له الثواب ـ. وكان ـ رحمه الله ـ تكرّم فأذن لي أنْ أعلِّق دراسته التي أعدّها عن النابغة ، حين كانت كراريسَ مخطوطة معروفة يعرفها الصفوة من طلابه ، وهي الدراسةُ التي طبعت بعد وفاته ـ أفسح الله في خلده ـ باسم: النابغة الذبياني»[1].

ومن أساتذته في مكتب عنبر الشاعر الكبير محمد البزم ، وكان أستاذنا معجباً بعلمه وفصاحته ، وبلغ من إخلاصه ووفائه له أنّه لما بلغ به المرض ، وعجز عن متابعة التدريس حلَّ محله في التدريس تطوعاً ونيابة[2].

وقد سبق أن تحدّثنا عن صلته بأساتذته في مصر ، وأنّه كان مديناً إلىٰ طائفة منهم كالدكتور طه حسين ، والأستاذ أمين الخولي ، والأستاذ إبراهيم مصطفىٰ ، والدكتور عبد الوهاب عزام.

وفي مقدمة كتابه «حركة الفتح العربي» يكرّرُ شكره لأستاذه أمين الخولي ، مع ما كان من خلاف كبير بالرأي بينهما:

«وأنا أعيدُ هنا شكر أستاذي المشرف الأستاذ الجليل أمين الخولي ، فقد عوّدني الصبر ، وحبّب إليَّ الأناةَ ، وأخذني بالعمل الدائب ، وردّني مرة ومرة إلىٰ ما يجب أن يأخذَ به الدارسون أنفسَهم من النهج العلمي ، ومن الروح العالية التي لا تضيق بالطرق الوعرة الشاقة».

وخصَّ أستاذَه طه حسين بوفاء خاصّ ، فقد قام بعمل كبير هو جَمْعُهُ أَشْهَرَ

---

(١) مقدمة ديوان النابغة صنعة ابن السكيت ، ص ج.
(٢) الموقف الأدبي ، العدد ١٧٨ ـ ١٧٩ ، ص٣١٢.

أعماله ، وضمها في كتاب في ثلاثة أجزاء ضمّت تاريخ الأدب العربي ، وعندما تحدّث عن أستاذه في مقالاته وصفه بكلماتِ الإعجابِ والاحترام ، فيقول في أوّل مقالته عنه «ذكريات ومواقف» :

«أجلُّ هو في عيني وفي نفسي من أن أتناولَ حياته ببحثٍ. . . ولا يحتمِلُ وفائي لأساتذتي أنْ ألقاهم بغير النظرة الحييةِ ، إنّي لأغضي حياءً منهم ، وتوقيراً لهم ، وهي أحلىٰ في مجالاتِ التقديرِ من أن تقدّمَ ذخرك النفسي كله عطراً بين يدي من تقدّر وتوقّر»[1] .

ولا يفوته أمانة للعلم ووفاءً لمن قدّم له اقتراحاً أو مشورةً أن يذكره بالشكر ، ونجد ذلك في مقدمة كتابه «الصحافة الأدبية» إذ يقول :

«أُحِبُّ أن أقولَ لكم: إنَّ الفضل في شقِّ هذا الطريق الجديد بين يدي الدراسة الأدبية. . . يعود إلىٰ الأستاذ الدكتور إسحاق الحسيني» .

ولا ينسىٰ للأستاذ خليل مردم رعايته وتوجيهه له فيقول :

«يحتم علي الوفاءُ أن أقدّمَ إلىٰ الأستاذ الجليل خليل مردم. . . أطيبَ الحمدِ علىٰ الذي لقيْتُ من رعايته ، فقد أبىٰ أن يملّ حين كان يقتربُ مني الملل ، وكان إصغاؤه الهادئ إلىٰ ما أقرؤه ، وتنبيهاته الدقيقة علىٰ ما يسمع. . . بعض عدتي في إخراج هذا الكتاب»[2] .

وكان من وفائه أنه كرّر في كثيرٍ من كتبه شكره للأستاذ أحمد عبيد فقال :

«ولستُ أفي في هذه الكلمات للأستاذ المحقق أحمد عبيد حقّه من الشكر. . .»[3] .

وتتجلّىٰ لنا الأمانة العلمية والوفاء في ذكره لطلابه فقال :

---

(١) مجلة المعرفة ، العدد ١٥٣ ، عام ١٩٧٤م .

(٢) خريدة القصر : ١/ ١٨ .

(٣) خريدة القصر : ٢/ المقدمة .

«وكان في كلية الآداب طائفةٌ من طلابي أعانوني في النسخِ أو المقابلةِ ، يسّرَ الله لهم سُبُلَ التعلّم والتعليم وشكر لهم »[1] .

وأستاذنا لا يرى خُلُقَ الوفاء خاصّاً بالتصرّفات اليومية العادية ، وإنّما ينقل معه هذا الخُلق إلى أعماله العلمية ، فهو يثني علىٰ من أوتي خلق الوفاء العلمي وذلك بإسناد القول لقائله ، فنجده يشكر لصديقه الأستاذ ظافر القاسمي رحمه الله صنيعه في كتابه «نظام الحكم في الشريعة والتاريخ» بقوله :

«ويتميّزُ هذا المنهج[2] من نحو خلقيٍّ بالوفاء للذين كتبوا أو ألفوا في هذا الموضوع من قبلُ ، وهو خلقٌ أضحىٰ عند كثيرين خلقاً نادراً ، فهم ينقلون الصفحاتِ من مصادرهم ، ويتعرفون من خلال كتابٍ أو بحثٍ إلىٰ المشكلة ، ثم يتجاوزون الوقفة عند الكتابِ الذي دلّهم ، بله الإشارة إليه عندما يتحدّثون عن المشكلة ، ولست أشيرُ إلىٰ ما وراء ذلك مما يجترحون ، فأنا لا أتحدّثُ عن عملية السطو ، ولكنّي أتحدّث عن عمليات التأليف»[3] .

٢ ـ تواضعه :

كان خُلُق التواضع الذي تميَّزَ به الدكتور شكري خُلقاً عفوياً فيه ، عرفه عنه الناسُ كلُّهم ، صغيرُهم وكبيرُهم ، ولذا أوتي محبّةً في نفوس الناس ، وخاصّةً في نفوس طلابه الذين التفّوا حوله ، فضمّهم إليه بحنانه ورعايته وتوجيهه ، وأحبَّ أن يرقىٰ بهم في مدارج العلم ومناهلِ العرفان ، لم يَعْرِفْ عنه طالبٌ أنه تجهَّم في وجهه ، أو قسا عليه في الكلام ، أو أعرضَ عنه حين السؤال. . . حتىٰ ليظن بعضُ الطلاب أنَّ له في قلبه مكانةً خاصّةً مِنْ بين الطلاب كلّهم .

---

(١) أبو العتاهية ، ص٨.

(٢) أي : منهج الأستاذ القاسمي .

(٣) طبع في بيروت بدار النفائس سنة (١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م) ، وعرّف به الدكتور شكري فيصل في مجلة المجمع سنة (١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م) .

وهذا التواضعُ عرفه عنه أيضاً أبناءُ حيّه القديم في المناسبات العامة والخاصة ، فتودَّدَ إليهم وبَرَّهم ، ومدّ يدَ العونِ إلىٰ مَنْ قصده منهم ، يستقبله في بيته ، ومن أراد منهم السفرَ للدراسة في مصرَ كتب إلىٰ أصدقائه مستوصياً بهم ، ومدّ الكثير من أبناء حيِّه ، فأعانهم بالجاه أو العلم أو بالمال ، وهو بذلك يصدر عن مشاعرهم ، وينطلق من عواطفهم ، ويدرِكُ إحساساتهم ، لأنّه نشأ نشأة كدٍّ وكدحٍ ، فوصلَ إلىٰ ما وصل إليه من درجاتٍ علميةٍ ومناصبَ كبيرةٍ ، واطلاعاتٍ ثقافيةٍ مختلفةٍ بجدّه ودأبه ونشاطه ، فلم ينسَ كلَّ مَنْ حوله ، وبقي معهم يشاطِرُهم أفراحَهم وأحزانهم ، فإذا تكلّم مع الكبار تكلّم علىٰ استحياءٍ وخجلٍ ، وإذا جاء الفقير أو الصغير تواضع له كأنّه والدٌ أو أخٌ كبير.

كانت الابتسامة علىٰ وجهه الذي تقرأ فيه الطيبَ والبراءةَ والفطرةَ السليمةَ ، ويندرُ أن تراه مقطّباً ، وإذا غضبَ لأمرٍ ما عاد سريعاً إلى طبيعته الهادئة ولطفه المعروف ، لأنّه كان ذا بصيرةٍ داخليةٍ ، يُدرِكَ بواطن الأمور وخوافيها ، وكانت طبيعتُه تتغلّب علىٰ ما وقع وأدىٰ إلىٰ الغضب.

إن في ذاكرتي مواقف ـ وما أكثرها ـ شاهدتُها منه ، في الجامعة ، وفي المجمع ، وفي البيت ، وفي السفر والغُربة ، ورأيتُ تلك المواهب العظيمة ، والسجايا والصفات التي تدلُّ علىٰ الأصالة الخُلقية والسمو الروحي الكبير.

٣ ـ الإيثار :

ومن صفاته المتميزة: الإيثار ، فقد شغلته همومُ أمته وواقعها وتفرّقها عن نفسه ، فكان دائم التفكير بسعادة أسرته ومن حوله من أهله وجيرانه وأصحابه خاصة ، ووطنه وأمته عامة.

كان يكره «الأنا» ويمقتُها ، ويشاهِدُ ذلك عند بعض الذين شغلتهم ذاتهم عمّا سواها ، ويرىٰ المتباهين بأعمالهم ـ ولو كانت لا تصلُ إلىٰ المستوىٰ المطلوب ـ فيغضي حياء ، وينأىٰ عنهم خَجَلاً ، وإذا سمع ذلك قال: سلاماً.

ويزدادُ ألمه من تضخُّم «الأنا» عند الناس علىٰ مرّ الأيام ، واستمر ذلك حتىٰ آخر حياته ، ففي مقدمته لتاريخ علماء دمشق[1] (وهي من أواخر ما كتب) :

«إنّ هذا الوفاء الذي يمثّله الحديث الشريف : «ليس مِنّا مَنْ لم يوقّر كبيرَنا ، ويَرْحَمْ صغيرَنا» أوشكَ أَنْ يُنسىٰ في خضمٍّ من نمو الذات ، وتضخُّمِ الأنا ، وغلبةِ النظر الضيّق للذات الفردية .

الجيل الحاضر يوشكُ أن ينسىٰ - إنْ لم يكن قد نسيَ فعلاً - فَضْلَ الجيل الذي سبقه ، والجيل الذي يأتي يوشك أن ينسىٰ فضل الجيل الحاضر ، و«الأنا» تعصِفُ بالرؤوس والنفوس ، علىٰ حين أنّ التاريخَ حلقات تتسلسلُ واحدةٌ منها إثر واحدة ، والمجتمع أجيالٌ متعاقبةٌ بعضُها يلي بعضاً ، والحضارةُ لبناتٌ متماسكةٌ يتكوّنُ منها الصرحُ ، وليس لحلقةٍ أو جيلٍ أو لبنةٍ أن تدّعيَ لنفسها فوق الذي لها . ومن هنا يأتي ما يكونُ مِنْ عملٍ هذا الكتاب في نفسك : أن ينمّيَ فيها الشعورَ بالوفاء ، والاعترافَ بالجميل للذين تقدمونا علىٰ طريق بناءِ هذا المجتمع في مرحلة التأسيس ، واستعادة عناصر الخير فيه ، وإشاعتها في هذا الجيل في مثل قوتها في الأجيال الزاهية من أجيال الحضارة العربية الإسلامية» .

* * *

إنّ تواضع أستاذنا وإيثارَه ، وإحقاقَ الحقِّ عنده ، والاعترافَ بفضل الآخرين عليه نجدُ شواهده في تلك المقدّمات لكتبه التي تحدّثَ فيها عن عمله ، فلم يصل الغرور إليه ، ولكنّه يسأل الله البعد عن هوىٰ النفس ، فيقول في مقدمة تحقيقه لتاريخ ابن عساكر : جزء عاصم :

«وبعدُ ، فما أكثرَ ما يخالِطُ أعمالَ الإنسانِ أحياناً من هوًى ، وما يُدَاخِلُه

---

(١) تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر ، تأليف محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة ، طبع بدار الفكر بدمشق ، سنة (١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م) .

من حظِّ النفس ، وما أبعدَ ما يتطلّعُ إليه دائماً من آفاق . . . فلنسألِ الله سبحانه ضارعين ، أن يباعِدَ بيننا وبين الأهواء ، وأن يسقِطَ من نفوسنا حظَّ نفوسنا ، حتىٰ يبقىٰ العملُ خالصاً لوجهه ، وأن يمدَّنا بالعون علىٰ تحقيقِ ما نتطلَّعُ إليه ، ليكونَ ذلك وفاءً لبعض حقه علينا . . في تراثنا الذي نجلُّ ، وتاريخنا الذي نقدِّرُ ، ومستقبلنا الذي نرجو» .

ويقول أيضاً في مقدمة كتابه (تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام) :

«وإذا كنتُ لا أحبُّ أن أبالغَ في وصف ما عملتُ ، فلستُ أحبُّ كذلك أن أبالغَ في تقويم النتائج التي وصلتُ إليها ، إنَّ عملاً ما لا يمكن أن يُسمّيه صاحبه عملاً كاملاً ، وحين يجرؤ فيسمُه هذه السمة فإنّ ذلك يعني أنَّ وقدة الحياةِ المتوهّجة المتقدة قد آذنت بالخمودِ» .

بهذه الدقّة في التعبير ، والمنهج القويم ، وهذا السلوك المتواضع استطاع أستاذُنا أن يحقِّق هذا المستوىٰ الرفيع من الإنتاج العلمي ، والتأليف المتميز ، كما استطاع أن يَدْخُلَ إِلىٰ أعماق القلوب محبةً واحتراماً وتقديراً .

* * *

المبحث السابع

وفاته ورثاؤه

١ ـ وفاته:

كان من فضل الله علىٰ أستاذنا قبولُه ما عرضته عليه الجامعة الإسلامية في المدينة المنوّرة مشرفاً علىٰ طلبة الدراسات العليا فيها منذ عام (١٤٠١هـ) وحتىٰ وفاته سنة (١٤٠٥هـ) ، كما أنّه رفض أيَّ عمل آخر مع كلِّ الإغراءات لتسلُّم عمادة كلية الآداب في إحدى الجامعات الخليجية.

وفي الأشهر الأخيرة من حياته ساءت صحته ، فاضطر إلىٰ مراجعة طبيب في ألمانية ، من جرّاء إصابته بقصور في القلب بسبب الإجهاد المستمر وتوالي الآلام ، ثم نُصِحَ بإجراء عملية جراحية في جنيف بسويسرة ، ودخل المشفىٰ يوم السبت في (السابع عشر من ذي القعدة سنة ١٤٠٥هـ = ٣ آب ١٩٨٥م) ، ونجحت العملية الجراحية ، ولكنّ قلبه لم يحتمل التخديرَ ، فتوقَّف القلبُ الكبير الرحيم عن الحركة ، وعجز الطب عن عمل أي شيء ، فكان ذلك اليوم هو الأجل بقضاء الله وقدره.

ومن الدلائل علىٰ منزلته الطيبة عند ربه ـ إن شاء الله ـ ، وحبه الصادق للرسول ﷺ أَنْ أكرمه الله ، فجعل مثواه الأخير في البقيع مع صحابة رسول الله ﷺ وشهداء المسلمين وعلمائهم وصالحيهم ، وذلك بعد أنْ صُلي عليه في المسجد النبوي يوم السبت (٢٤ من ذي القعدة١٤٠٥هـ = ١٠ آب ١٩٨٥م) ، ثم حُمِلَ علىٰ الأكتاف ، وحضر تشييعَه كبارُ العلماء والصالحين وأولادُه البررة.

٢ـ رثاؤه:

وتواردت العشرات من البرقيات والرسائل معزّيةً ، يملؤها الحزنُ على

فقد فارسٍ من أكبر فرسان العربية ، وعالِمٍ وهبَ نفسَه للعلم. رحمه الله تعالىٰ.

واستقبل أهلُه وأصدقاؤه المعزّين بدمشق بدار ابن عمه وأخيه من الرضاع الأستاذ عبد الفتاح فيصل في أيام (١٢ و ١٣ و١٤ آب ١٩٨٥م).

ورثاه الشاعر عبد الرحيم الحصني في قصيدةٍ بعنوان (في ذكرىٰ الحبيب شكري)[١] نقتطف منها الأبيات التالية :

أَشْرِقْ مِنَ الخُلْدِ وَلْيَأْنَسْ بِكَ البَلَدُ ... واسْلَمْ فأنتَ لنا أَمسٌ وأنتَ غَدُ
وامْسَحْ بمرآكَ ما أَدْمَىٰ جَوَانِحَنَا ... مِنَ الحنينِ فَقَدْ أَوْدَىٰ بِنَا الجَلَدُ
وَاسْأل دَوَاتِكَ هَلْ جَفَّ المِدَادُ بِهَا ... مـا لليَـرَاعِ عَـنِ الأوراقِ يَنْفَـرِدُ
كَمْ مِنْ أناملِكَ انْسَابَتْ لَنَا قِيَمٌ ... عَلَىٰ الطُّرُوْسِ فكانَ الوَعْيُ وَالرَّشَدُ
فَكُـلُّ نُقْطَـةِ حِبْـرٍ للهُـدَىٰ قَبَسٌ ... وَكُـلُّ وَمْضَـةِ حَـرْفٍ لِلنُّهَـىٰ رَصَـدُ
فأَيْنَ تِلْكَ القُطُوْفُ الدَّانياتُ وَقَدْ ... مَالَ الشِّرَاعُ بنا ، وانْحَلّتِ العُقَدُ
متـارِفٌ مـن ريـاضِ الفِكْـرِ وارفـةٌ ... تُسَلسِـلُ العلـمَ صهبـاءً لِمَـنْ يَـرِدُ
كانتْ لنا العروة الوُثْقَىٰ فَكُلُّ هَوًى ... مِن خَمْرِهَا يُسْتَقَىٰ مِنْ أَرْضِها يَفِدُ
أعِـدْ لأَيّـامِنـا الغَـرّاءِ سيـرتَهـا ... الأُوْلَىٰ ، فَمِنْ عِنْدِكَ الإِمْدَادُ والسَّنَدُ
يـا زَاهِـداً كـلَّ نعمـاءٍ يُـؤمِّلُهـا ... مِـنْ هـذِهِ الـدَّارُ قلـبٌ طـاهـرٌ وَيَـدُ
أخلصتَ للعلمِ والأجيالِ مُكْتَفِياً ... بِمَـا يَـؤُوْلُ إِلَيْـهِ الكـدُّ والـود
وَمَـا طَمِحْـتَ لأَلْقَـابٍ ولاَ مُتَـعٍ ... وَقُلْتَ حَسْبي مُنًى أَنْ يَسْلَمَ الجَسَدُ
مِن هاهنا العُلَمَاءُ امتازَ مَوْقِعُهم ... في العالمينَ بما عَفُّوْا ومَا زَهِدُوْا

وقد وصلتْ برقياتُ التعزيةُ إلىٰ «مجمع اللغة العربية» بدمشق واتحاد الكتّاب العرب ، وإلىٰ أسرته ، ومن هذه البرقيات الواردة إلىٰ مجمع دمشق نورِدُ ثلاثاً منها[٢] :

---

(١) القصيدة كاملةً في مجلة الموقف الأدبي ، العدد ١٧٨ ـ ١٧٩ ، ص٣٢٤ ـ ٣٢٨ .
(٢) شكري فيصل وصداقة خمسين سنة ، للدكتور عدنان الخطيب ، ص٧٥ .

١ ـ برقيةُ المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم:

تلقيتُ بأسًى وحزنٍ نبأَ وفاةِ المرحوم الأستاذ الدكتور **شكري فيصل أحد رموز الثقافة العربية ودعائِمها** ، وإنِّي إذْ أتقدَّمُ باسمي وباسم المنظمة العربية بالتعازي في هذا الفقد القومي إلىٰ سيادتكم وإلىٰ السادة أعضاء المجمع الموقّر ، فإنِّي أسألُ اللهَ للفقيدِ العزيزِ الرحمةَ ما أدّىٰ لوطنه ولأمته وثقافتِها مِنْ خدماتٍ جليلةٍ ، ولكلِّ أَجَلٍ كتابٌ . وإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

التوقيع : د . محيي الدين صابر

٢ ـ برقية وزير الشؤون الثقافية التونسية:

في الوقت الذي كنّا نهيِّئُ لقدوم العلامة الكبير الأستاذ شكري فيصل عضوَ مجمعكم الموقّر ، وعضو المجلس العلمي للمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات «بيت الحكمة بتونس» وذلك لمشاركتنا الاحتفال بمرور ثلاثين سنة علىٰ انبعاث مجلة «الفكر» جاءنا نعي الصديقِ العزيز ليجمّد في أفئدتنا حرارةَ لقاءٍ انتظرناه بفارغ صبر . . . وليعصفَ بشوقٍ طالما اختلجَ في أنفسنا .

وبهذه المناسبةِ الأليمةِ أتقدَّمُ إليكم باسمي الخاص وباسم جميع أعضاء أسرة الفكر وأصدقاء الفقيد من المثقفين بتونس بأحرّ التعازي ، راجياً من الله أن يتغمَّده برحمته الواسعة ، ويرزقنا وإيّاكم جميلَ الصبر والسلوان . وإِنّا لله وإِنّا إليه راجعون .

التوقيع : البشير بن سلامة

٣ ـ برقية رئيس المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات في تونس «بيت الحكمة» :

لقد علمنا ببالغ الأسىٰ والحسرة أنَّ أسرة الأدب في الوطن العربي فقدتْ أحدَ أعضائها البارزين الدكتور شكري فيصل ، الذي عرفناه باحثاً مجتهداً ،

وعالماً نافعاً ، وصديقاً وفيّاً . وقد استفادت مؤسستُنا الكثيرَ من علم الفقيد ومن كريم نُصْحِهِ إذ كان عضواً ناشطاً في مجلسها العلمي .

فالباري تعالىٰ نسألُ أن يتغمّدَ بواسعِ رحمتِهِ المغفورَ له الأستاذ الدكتور شكري فيصل ، وأن يرزقَ مجمع اللغة العربية وجميعَ العاملين من أجلِ إبرازِ ثقافة أمتنا جميلَ الصبر والسلوان .

التوقيع : د . أحمد عبد السلام

وقد أقام اتحاد الكتاب العرب بدمشق حفلاً تأبينيّاً كبيراً ، وعقد ندوة اشترك فيهما معه كلٌّ من مجمع اللغة العربية وكلية الآداب ، وأسرة الفقيد ، وذلك بتاريخ : (٢٠ من تشرين الأول عام ١٩٨٥م) ، وقد عقدت الندوة جلستين :

الجلسة الأولىٰ :

ـ افتتح الدكتور علي عقلة عرسان رئيس اتحاد الكتاب العرب الحفلَ بكلمةٍ موجزةٍ .

ـ كلمة اتحاد الكتّاب العرب : د . حسام الخطيب .

ـ كلمة جامعة دمشق ، كلية الآداب : د . عمر موسىٰ باشا .

ـ كلمة مجمع اللغة العربية : د . عدنان الخطيب .

ـ في ذكرىٰ الحبيب شكري : شعر : الأستاذ عبد الرحيم الحصني .

ـ كلمة أسرة الفقيد للأستاذة عاطفة فيصل .

الجلسة الثانية :

ـ شكري فيصل المتذوّق الأمهر ، مقاربته للأدب : د . عبد النبي اصطيف .

ـ شكري فيصل: بعض السماتِ البارزة في منهجه التربوي: د. محمود أحمد السيد.

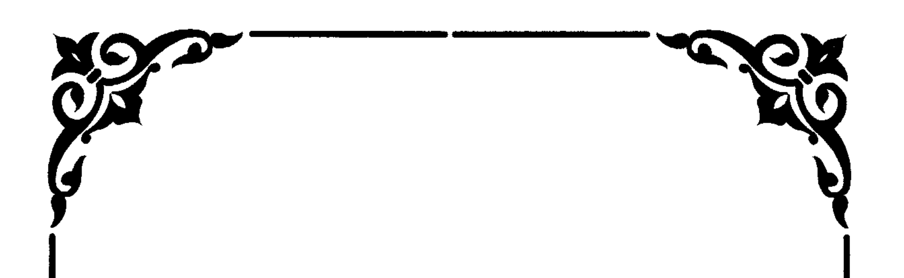
ـ شكري فيصل: حياته وانجازاته: د. محمد مطيع الحافظ[1].

وأخيراً فقد كرّمته محافظة دمشق بإطلاق اسمه علىٰ شارع من شوارع حيّ الميدان.

* * *

---

(١) نُشِرَتْ هذه الأبحاث في مجلة الموقف الأدبي، في الأعداد ١٧٨ ـ ١٧٩، ١٨٥.



الفصل الثاني

التعريف بمؤلفاته

المبحث الأول: المؤلفات.

المبحث الثاني: تحقيق المخطوطات.

المبحث الثالث: البحوث والمحاضرات والندوات.

المبحث الأول

المؤلفات

١ ـ مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي

عرض ونقد واقتراح[١]

هذا الكتابُ هو الرسالةُ التي قدّمها الدكتور شكري إلىٰ كلّية الآداب في جامعة فؤاد الأول للحصول علىٰ درجة «الماجستير» وقد ناقشتها بتاريخ: (١/٧/١٩٤٨م) لجنةٌ مؤلّفةٌ من الأستاذ أمين الخولي مشرفاً، والأستاذ مصطفىٰ السقا، والأستاذ محمد خلف الله عميد كلية الآداب في الإسكندرية عضوين، ومُنحَ عليها الماجستير بدرجة جيد جدّاً.

وفي مقدمة الكتاب يهدي الدكتور كتابه هذا إلىٰ أُمه، التي يقول عنها: «**إنّها التي علمته الصبرَ، وحبّبَت إليه القناعةَ... التي كانت تكتمُ الحنوَّ في طفولته، ثم كانت تفجّر الحنينَ في فتوته في القاهرة**».

وفي تصديره يقفُ القارئُ علىٰ مخالفةِ الأستاذ المشرف أمين الخولي لرأي المؤلف الدكتور شكري، ويظهر أنّه كان عنيفاً في هذه المخالفة، فقد كان الخولي معروفاً بتشدُّده الإقليمي، وكان أيضاً شديداً علىٰ الدكتور، وعنيداً في التمسك برأيه، ولكنّه لم يستطعْ ليَّ زند طالبه، فكان أن استمرّ الدكتور شكري في وجهته القومية إلىٰ الأدب العربي.

---

(١) طبع بالقاهرة (١٩٥٢م)، مطبعة دار الهنا في: ٢٤٣ صفحة، والطبعة الثانية (١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م) بدمشق عبيد إخوان، والطبعة الثالثة: دار العلم للملايين بيروت (١٩٧٨م).

كان غرضُ الدكتور في هذا الكتاب النفيس «**دراسة مناهج البحث في أدبنا العربي والطرائق التي غلبت علىٰ الدراسات الأدبية ، والنظريات التي تتحكم فيها من ورائها فتوجهها هذه الوجهة أو تلك**» هذا الغرض هو القريب ، أما الغرض البعيد فهو رسمُ منهج لدراسة الأدب العربي تستفيضه من خلال هذا العرض الناقد للمحاولات المختلفة ، وهذا التعرُّف المتعمّق للنظريات المتباينة التي تنازعت تأريخ الأدب العربي في الدراسات القديمة والدراسات المحدثة .

واعتمد الدكتور في بحثه أنّه «**خيرٌ للأدب أن ينطلقَ فيسعىٰ إلىٰ منهج جديدٍ ، يضبطُ دراسته ، ويوحِّدُ وجهته ، ويجعله ينشد وجدانه في هذه المدارس الفنية العميقة ، بدل أن ينشدها في مظاهر خادعةٍ من وحدة العصر ، أو وحدة المنشأ والوطن ، أو وحدة الغرض والموضوع**» .

ولم يكن هذا وحده ، وإنّما نظر الدكتور فرأىٰ أنَّ درسَ الأدب العربي لم يزل ضئيل الحظِّ من النماء ، قليلَ النصيب من النضج ، فالدراسات الإنسانية الأخرى تتقدّم ، أمّا دراسة الأدب فلا تزال في مكانها من البساطة حيناً ، ومن الغموض حيناً آخر ، وعلّةُ هذا التأخر ترجعُ إلىٰ فقر المناهج ، وعدم وجود منهجٍ يضبط درس الأدب ، ويصحّح منهجه .

ولذا كان اعتمادُ الباحثين في دراسة الأدب علىٰ تقسيمه إلىٰ عصورٍ ، وفي كلِّ عصرٍ نشهدُ هذا الشاعر أو هذا الكاتب من هذه القمم الشامخة ، أو التي خُيّلَ للباحثين ذاتَ يومٍ أنّها وحدَها القمم الشامخة .

هذه البواعث كلها هي التي استثارت الدكتور أن يدرسَ اتجاهات البحث في الأدب العربي ومناهجه ، بعد أن ارتفعت الدعوةُ في مصر وفي كلية الآداب بوجهٍ خاص إلىٰ الدراسة الإقليمية للأدب العربي .

ومن هذا المنطلق خصص هذا الكتاب لدراسة ست نظريات تعاورت دراسة الأدب العربي حديثاً ، لكي يخلصَ من هذه الدراسة الشاملة إلىٰ المناداة بطريقة جديدة اعتمدها في دراسة الأدب .

وفيما يلي أقدّمُ دراسةً موجزةً للنظريات الست :

أولاً ـ النظرية المدرسية :

هذه النظريةُ تقوم علىٰ قسمة الأدب العربي إلىٰ العصر الجاهلي ، وعصر صدر الإسلام ، وعصر الدولة الأموية ، وعصر الدولة العباسية بما فيه الأدب الأندلسي ، وعصر الدول المتتابعة ، وربّما خُصَّ عصر النهضة الحديثة بتسمية مستقلة .

وأبرزُ ممثلي هذه المدرسة : حسن توفيق العدل ، والشيخ أحمد الإسكندري ، وأحمد حسن الزيات[1] .

وينتقد الدكتور شكري هذه المدرسة ، لأنها تربط بين السياسة والأدب ، فالتيار الأدبي لا يمكن أن يُحَدَّ ببدء عهدٍ سياسي وانقضائه .

ويأخذُ علىٰ هذه المدرسة تشبثّها بالعامل الزمني ، ونسيانها أثرَ العامل المكاني ، وهو فرقٌ نلمسه في التباين بين شعر البادية وبين الشعر المتردد في جنان الشام وأرض السواد ودجلتها ، وأنفاس الحضارة في بساتين قرطبة .

وقد رفضَ الدكتور هذه النظرية لأنّها أصيبت بالجمود ، ووقفت بالدراسة الأدبية عند القمم الشامخة مِنْ كلِّ عصر . في حين أنَّ دراسة واحد من المقلين النوابغ تكشف عن كثير من الخبيء المستغلقِ في تاريخنا الأدبي .

وعلىٰ الرغم من أنّ هذه المدرسة قد أدّت خدمةً لدراسة الأدب إلاّ أنَّ من حقّ التطور أن يسعىٰ إلىٰ إقامة بنيانٍ جديدٍ يكون من شأنه تفادي عيوب النظرية المدرسية .

ثانياً ـ نظرية الفنون الأدبية :

في مقدمة كتاب (تاريخ آداب اللغة العربية) لجرجي زيدان بذورُ محاولةٍ جديدةٍ في سبيل دراسة الأدب العربي وفق ألوان هذا الأدب ، أي إنّه اعتمد تقسيم النشاط الأدبي علىٰ موضوعاته، أي فنونه المختلفة كالغزل، والوصف،

---

(١) بلغت هذه المدرسة نضجها على يد الدكتور شوقي ضيف ، انظر كلام الدكتور شكري فيصل ، ص(١١٦) ، فهو يشهد لهذه المدرسة .

والفخر ، والهجاء ، والحماسة ، وهذه الطريقةُ ستتيحُ لنا تتبع الفنون الأدبية مع الزمن ، ودورانها مع العصور ، وتتيح لنا أيضاً التعرّف الهادئ للعامل الإقليمي في الأدب ، ذلك أنَّ دراسة فنٍّ أدبي معين حسب مراحله ترسمُ لهذا الفن خطَّيه اللذين يمثّلانه من زمان ومكان ، وتكونُ ملزمة حكماً بدراسة المشاهير الذين نبغوا في هذا الفن ، وكذلك الأدباء الذين لم ينالوا درجة عليا من الشهرة.

وطريقة **الفنون الأدبية** تفيد أكبرَ الفائدةِ في الموازنة التي تتيحها بين النماذج الأدبية ، وفيما ينتج عن هذه الموازنة من خيرٍ في دراسة الأدب وتاريخه. وهذه الطريقةُ تعتمد علىٰ جمع النماذج الأدبية التي تدورُ حول فنٍّ ما من الفنون ، وتنتج لنا هذه الدراسة الموازنة بين أسلوب وأسلوب ، وبين أديب وأديب ، وتعلمنا الدقة والعمق ، وندرك منها جوانبَ الكمال في فنٍّ ما ، ومناحي النقص فيه.

ولكنّ الدكتور شكري يأخذُ علىٰ هذه النظرية أنَّ من أبرز عيوبها «التجزئة» التي تجنحُ إليها في دراسة الشاعر ، ذلك أنها تدرسُ نتاجه موزعاً بين الفنون المختلفة ، أي إنها تهتم بالفنّ الأدبي ، وتهمل الأديب أو الشاعر.

ويأخذُ علىٰ هذه النظرية أيضاً أنَّ القصيدة الواحدة تضم عدداً من الفنون الأدبية من وقوف علىٰ الأطلال ، ووصف الناقة ، والغزل ، والغرض المطلوب. . فتجزئة الأثر الفني في الدراسة يحجبُ كثيراً من مميزاته.

تلك أبرز وجوه النقد لهذه النظرية ، ومع ذلك فقد وجدت لها في البيئة الجامعية بوجه خاص من يأخذ بها ، ويعمل بوحيها ، فشهدنا دراسة شعر الطبيعة ، وشعر الحرب ، وشعر الرثاء ، وشعر الغزل.

وملخّص القول ـ كما يقول الدكتور شكري رحمه الله ـ في الفرق بين النظرية المدرسية ونظرية الفنون أنَّ الأولىٰ تركيب يُنسىٰ فيه التحليل ، وأنَّ الثانية تحليل يتعذّر معه التركيب ، ولابدّ في تاريخ الأدب من النظرية التي تستطيع أن تبرأ من هذين العيبين وأن تجمع بين هاتين الميزتين.

ثالثاً ـ نظرية الجنس:

نقطة الارتكاز عند أصحاب هذه النظرية أنَّ العرب حملوا راية الإسلام من الجزيرة العربية إلىٰ أطراف الأرض، كما حملوا إلىٰ العالم في شرقه وغربه اللغة العربية، واستطاعوا في وثبةٍ جريئةٍ وفترةٍ وجيزةٍ تعريبَ البلاد التي فتحوها، فغدت شعوب هذه الأرض تدين بالإسلام، وتتكلَّم اللغة العربية، وتقول الشعر، وتدبّجُ الخطب، وتحبّر المقالات والعلوم.

علىٰ أنّ هذه الشعوب لم تذبْ في البوتقة العربية، بل ظلّت تحتفظ بكثيرٍ من جذورها وخصائصها.

وتتلخّص هذه النظرية: في أنّ الأدب العربي لم يكن أدبَ العربِ وحدَهم، ولكنّه كان في جملته أدب الأمم التي دخلت في الإسلام. كما أنَّ بين هذه الأجناس التي أظلها الإسلام فروقاً أصيلة مادةً ومعنًى، وبقيت هذه الفروق أو كثيرٌ منها لتصبحَ مادةً أصيلة في التكوين الأدبي.

ومن منطلق هذه الفوارق العرقية دعا بعضُ الباحثين إلىٰ دراسة الأدب العربي علىٰ أساس الأجناس، فندرس الأدب العربي الذي تفرّد به العرب، وندرس الأدبَ العربيَّ الذي صاغه الأدباء الفرس بالعربية...

لم تستجب هذه الدعوة لدراسة الأدب علىٰ الوجه المطلوب، لأنها تنطلق من مفهوم غامض هو أثرُ الوراثةِ العرقية في النتاج الأدبي، فالإسلامُ ساوىٰ بين المسلمين في الحقوق والواجبات، واندمج المسلمون بعضهم في بعض اندماجاً واسعاً بحيث لم يعد ميسوراً القول بوجود شاعر من عرقٍ صافٍ، وآخر من عرق هجين.

رابعاً ـ النظرية الثقافية:

تنظر هذه النظرية إلىٰ الأدب علىٰ أنّه ثمرة من ثمرات الثقافة، تتبلور فيه طائفة من المشاعر والأفكار، وتصطلحُ عليه مجموعةٌ من التصورات والأخيلة فيتحدّث عنها، ويؤدّيها في صورة من صور الأداء النثري أو الشعري.

ولا يختلف الأدب العربي في عُرْفِ النظرية الثقافية عن الآداب الأخرىٰ في أنّه ثمرة للثقافات المختلفة التي غمرت العالم الإسلامي علىٰ تتابع العصور ، فالثقافات الفارسية والهندية واليونانية والرومانية وغيرها انتقلت إلىٰ العرب مع شعوبها ، ومن أبرز النماذج : امتزاج الثقافة العربية والفارسية في عبد الله بن المقفع ، وامتزاج الثقافات العربية والفارسية واليونانية في الجاحظ ، فقد حذق كثيرٌ من الأدباء ـ وخاصة الفرس منهم ـ الأدب العربي والأدب الفارسي ، فجمعوا بين محاسن الثقافتين ، وهكذا نشأ أدبٌ جديد ، يحمل خصائص مشتركة ، ومزايا جديدة ، هي نتاج للتزاوج الثقافي ، وبذلك فإنّ النظرية الثقافية تسرّبت إلىٰ الأدب علىٰ أنّه جزءٌ من تاريخ الحضارة ، غير أنّها بعيدةٌ عن دراسة الموهبةِ والحياةِ الشخصية والتجربةِ النفسية للأديب ، وكذلك تُعنىٰ بالعناصر العقلية ، والأدب مزيجٌ مِنَ العناصر العقلية والعاطفية.

ومهما يكن فالنظرية الثقافية طريقةٌ من الطرائق ، ولكنّها ليست الطريقة الوحيدةَ ، وينقصها كثيرٌ من الدقة والغَوْص.

خامساً ـ نظرية المذاهب الفنية :

هذه النظرية تريدُ أن تدرس الأدب وفق الطوابع الفنية التي تسود في عصرٍ من العصور الأدبية ، ولقد عرفت هذه النظرية سبيلها إلىٰ الأدب العربي في مرات متعاقبة ، وتمسك بها جماعةٌ من مؤرّخي الأدب ونقاده في العصور الأولىٰ ، ثم تمسك بها جماعةٌ آخرون في العصور الحديثة.

فالمرزباني قسّم الشعراء إلىٰ : شعراء جاهليين ، وإسلاميين، ومُحْدَثين. . وقصد رعاية الناحية الفنية دون الزمنية.

وأمّا ابن رَشِيق في كتابه «العمدة» فقد قسّم الشعراء إلىٰ أربعة أقسام : **شاعر خنذيد** ، وهو الذي يجمع إلىٰ جودة شعره رواية الشعر الجيد من شعر غيره ، **وشاعر مُطلق** ، وهو مجوّدٌ إلاّ أنّه لا يروي لغيره ، **وشاعرٌ فقط** ، وهو فوق الرديء بدرجة ، **وشعرورٌ**: وهو لا شيء.

أما المحدثون ، ومنهم الشيخ حسين المرصفي ، فقد جعل الشعراء في ثلاث طبقات: **الأولى** للعرب الجاهليين ، والإسلاميين إلىٰ بشار بن برد ، **والثانية** للمحدثين من أبي نواس إلىٰ مَنْ قبل القاضي الفاضل ، **والثالثة** للشعراء الذين راعوا البديع من القاضي الفاضل إلىٰ هذا الوقت.

ونجدُ تقسيماً آخر عند الخالدي ، فجعل الشعراء أربع طبقات: جاهلية ، وإسلامية ، وخصَّ العصر العباسي بطبقتين.

وعرض الدكتور طه حسين في كتابه (في الأدب الجاهلي) إلىٰ مدرسة زهير الفنية ، فهو يدرس زهيراً وأوس بن حجر من قبله والحُطيئة وكعب وجميل ، ويرىٰ أنّهم يشكلون مذهباً فنيّاً واحداً ومتكاملاً ، واعتمد هذا المذهب علىٰ اللفظ الرصين ، ويحفل بالعناصر المادية للتشبيه.

ويمكن الاستفادةُ من هذه المدرسة في التعرّف إلىٰ الشعر المنحول؛ هذا من الناحية النظرية ، أما من الناحية العملية فالجزمُ بنسبة الشعر إلىٰ الشاعر لا يخلو من مجازفة ، ثم إنَّ هذه النظرية تنقلب الوسيلةُ عندها هدفاً ، والهدفُ وسيلةً ، فتصنف المدارسَ الأدبية أولاً ، ثم تحاول أن تقيس بها الأدباء ثانياً ، وبذلك تنقلب إلىٰ عمل خيالي يعتمد علىٰ الظنِّ.

سادساً ـ النظرية الإقليمية:

تريد النظرية الإقليميةُ أن تدرسَ الأدب العربي لا موزعاً بين الأنواع الأدبية أو الأجناس أو الثقافات ، بل موزّعاً بين الأقاليم الإسلامية المختلفة ، فتدرسُ الأدبَ العربي في مصر ، والأدبَ العربي في الشام ، وفي المغرب ، علىٰ أنَّ في كل من هذه الأقطار أدباً متميزاً؛ فأحمد الإسكندري قسم دراسة الأدب إلىٰ قسمين: حالة اللغة العربية وآدابها في الممالك الشرقية ، وحالتها في الممالك الغربية ، وجرجي زيدان يؤكِّدُ أنّ للإقليم تأثيراً في أخلاق الناس وأبدانهم ، ولذا فقد امتازَ كلُّ إقليمٍ من بلاد العرب بباب من أبواب الشعر ، وعلىٰ هذا قسّم الشعراء إلىٰ سبعة أقسام: شعراء مصر ، والشام ، والعراق ، وفارس ، والأندلس ، والمغرب ، وجزيرة العرب.

واستطاع الدكتور شكري أن يقف الموقف الثابت والقويَّ المعتمِد علىٰ البرهان ، وبيَّنَ أنَّ دراسة الأدب علىٰ أساس النظرية الإقليمية لا تقومُ علىٰ أساس صحيح ، ولا تنتهي إلىٰ نتيجة خصبة ، ولا تؤدي إلىٰ غاية تتلاءم مع واقع الحياة الفنية وحاجتها إلىٰ التوحد ، لتكونَ مصدر الوحدةِ في مشاعر متكلمي العربية ومُثُلهم .

وهذه النظريات التي عرضنا لها لم ترضِ الدكتور شكري رحمه الله ، ونادىٰ بمنهج جديد أوجز تعريفه له بقوله : «**وحدة في الهدف ، وكثرة في الوسائل**» وهذا المنهج يدعو إلىٰ الإفادة من النتائج التي وصلت إليها المدارس السابقة ، والحقائق التي توصلت إليها ، وهو يقول بأنّ هذا المنهج الجديد ليس منهجاً جديداً كلَّ الجدة ، ولكنّه هذا التفاعل الذي تحققه المناهج المختلفة بعد توجيهها ولفتها هذا اللفت الخاصّ ، والخروج بها من منطقة الاستئثارالضيق بالدراسة الأدبية إلىٰ منطقة التعاون الواسع ، إنّه نوعٌ من التركيب الذي يعتمدُ الإبداع وأسلوب الجمع .

وانتهىٰ الدكتور رحمه الله تعالىٰ بقوله :

«**نحن نرحب بدراسة أثر الأقاليم الإسلامية في أدبها ، ونحن نفرحُ بالتعرّف الصادق إلىٰ خصائص الجنس عند شاعر أو كاتب ، ونحن نكبِرُ دراسة الثقافات وتفاعلها ، وما أَلقَتْ علىٰ الأدب من ظلال ، وما أغدقت عليه من فكر ، ونحسُّ لذلك الأثر في نشأة مذاهب فنية جديدة ، ونحن نتناول الدراسة الزمنية ، وما يكون من هذه الصلة بين الشعر والسياسة ، ومن هنا لم يكن المنهجُ الجديدُ قسيماً للمناهج السابقة ، ولا خصماً لها ، بل هو تتويج لها ، وتركيب يبدعُ النتائج التي تصل إليها. وإنَّ المنهجَ الذي يجبُ أن نصطنعه يقومُ علىٰ هذا الانتقال من الفرديّ إلىٰ العام ، ومن الجزئي إلىٰ الكلي ، فندرس الأديبَ أو الشاعرَ في كلِّ أوضاعه وألوانه ، ونحيطُ بكلِّ مظاهره وصوره ، ونتعمّق عوالمه الداخلية ، ونرصدُ كلَّ أحاسيسه ، فإذا نحن نكشفُ عن هذه الروح التي سادته ، والمُثُل التي أظلته**» .

ويوضّحُ الأستاذ شفيق جبري منهج الدكتور شكري بقوله : «أما المنهج

الجديد الذي يدعو إليه الدكتور شكري فيصل فسبيلُه قسمة الشعراء والأدباء قسمة مدارس ومذاهب ، لا قسمة عصور وفنون وأقاليم ، ومن جملة الغايات التي توخّاها في منهجه الجديد فهمُ الأدب بمعناه العام ، وإقامة الدراسة الأدبية علىٰ هذا الفهم لأسباب كثيرة أولها مجاوزة الأدب اللفظي الذي خمدت فيه القوالب ، والمزاوجة بين الأدب والفكر حتىٰ يضمن للدراسة الأدبية المتعة والفائدة ، ويضمنَ للدارسين اللذة والثقافة» .

وبعد ، فإنَّ هذا الكتاب من الكتب القيمة التي كان لها أثرها في دراسة الأدب ، وأصبح أحد المقررات في عددٍ من الجامعات العربية يدرسه طلابها ، واعتمد مرجعاً أساسياً في دراسة الأدب العربي .

* * *

٢ ـ المجتمعات الإسلامية في القرن الأول

نشأتها ، مقوماتها ، تطورها اللغوي والأدبي[(١)]

هذا الكتابُ هو الرسالةُ الأصليةُ التي تقدّم بها أستاذنا لنيل درجة الدكتوراه، وقد ناقشت الرسالةَ في (٢٤/ ١/ ١٣٧١ هـ ـ ٢٥/ ١٠/ ١٩٥١م) لجنةٌ مؤلفة من الدكتور زكي محمد حسن رئيساً، والأستاذ أمين الخولي مشرفاً، والدكتور أحمد أمين، والدكتور حسن إبراهيم، والدكتور فؤاد حسنين .

في بداية الكتاب نجدُ صفحة الإهداء الذي خصَّ به خاله العلامة محمود ياسين ، الذي أراد الله أن يصطفيه إلىٰ جواره قبل أن يملأ عينيه من ثمرة الغرسة التي انتزعها من أرضها ليزرعها في أرض خصبة من العلم : « . . **إلىٰ روح خالي محدّث الشام الأستاذ الشيخ محمود ياسين . . أهدي هذا الكتاب ، فهو روحٌ من روحه ، وعبقٌ من عبقه ، وفاءً ببعض حقه ، وإيماناً بفضله . . .** » .

---

(١) طبع بالقاهرة سنة (١٣٧١هـ = ١٩٥٢م) نشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة ومكتبة المثنى ببغداد: ٤٨٦ صفحة + ٢٠ صفحة للمقدمة ، ثم طبع بدار العلم للملايين في بيروت عدة طبعات .

وسبب اختياره لهذا الموضوع هو أنّه كان حريصاً علىٰ أن يبوِّئ الحركة الإسلامية مكانها من هذه الحركات التي تمخّضت عنها الإنسانية ، وأن يدركَ في شيءٍ من العمق دورها الضخم في قيادة الناس ، وأسلوبها في جمعهم علىٰ صعيد واحدٍ من الفكر والعقيدة واللغة.

واستقرّ عنده أنَّ موضوعاً يعرض لدراسة الفتح الإسلامي ، وتكونُ غايته البعيدة أن تبلغَ آثاره من حيث التطور اللغوي والأدبي في المجتمعات الإسلامية ، يجب أن يقوم علىٰ دعامتين : أولاهما من التاريخ نفسه ، والثانية من علم الاجتماع ، وعلم الاجتماع اللغوي بوجه خاص.

اعتمد أستاذُنا لإبراز صورة المجتمعات الإسلامية بعد فتوحات الإسلام علىٰ التحليل والتركيب: كيف كانت الطبقات في البلاد التي فتحها المسلمون؟ ما هي لغاتهم؟ كيف تمَّ الامتزاج مع هذه الطبقات؟ وما هو أثر التفاعل في هذا الامتزاج؟ كيف خالطت لغةُ العرب لغات الشعوب التي انتشر فيها الإسلام؟ ما هي الفائدة التي جنتها العربية من هذه اللغات؟ . . .

وأراد أستاذنا أن يوضح أنَّ المتعارف في المجتمعات الجاهلية أنها كانت عبارةً عن عصبيات متناحرة ، تقوم علىٰ خلاف القبائل وانقسامها ، وأنَّ هذه القبائل كانت وكأنّما كلُّ واحدةٍ منها أمةٌ مستقلة ، ولكنَّ هذا المتعارف لم يذهب إليه الدكتور شكري ، ولكنّه قرر أن مجتمعات الجاهلية لم تكن علىٰ هذه الصورة من الجمود والتشتت ، ولم تكن القبائل تعيشُ في هذا التباعد ، وإنّما كانت هناك حركة تسوقُ القبائل وتقرّبُ بينها.

وفي المجتمعات الإسلامية بعد الفتوح أصبحت اللغةُ العربيةُ ملك الولايات التي فتحت ، فامتزج العربُ بأهل تلك الولايات ، فكان لهذا الامتزاج أثرٌ في العرب أنفسهم وفي لغتهم ، انتقل العرب من البدو إلىٰ عالم كانت آفاقه جديدة ، فاتصلوا بمدن ورثت أشياءَ كثيرةً من الحضارات القديمة ، وأدّىٰ هذا الامتزاجُ إلىٰ انقلابٍ في أفكارهم ، ولغتهم وأدبهم ، وكانت عواقبُ ذلك أنِ استفاض اللحنُ في كلام الناس، ولكنَّ لغة العرب بعد الفتوح غلبت كلَّ اللغات ، فلم تستطع لغةٌ واحدةٌ منها أن تستأصل العربية.

جعل الدكتور رحمه الله كتابه في مقدمة وأربعة كتب:

أما **المقدمة** فهي في الجزيرة العربية: موقعها وتضاريسها، والوحدة والتنوع في مظاهر الحياة.

وأما **الكتاب الأول**: **فهو من الجاهلية إلىٰ الإسلام**، من حيث المجتمع، وحركة القبائل في الجاهلية، والمجتمع العربي أوائل عهد الإسلام في اختلاط القبائل، وفي تشكل المجتمع الإسلامي.

وتحدث في **الكتاب الثاني**: **عن نشأة المجتمعات الإسلامية الجديدة في الأقطار المفتوحة**: في الشام، وصلاتها اللغوية وقراباتها القبلية، وفي العراق، ومعالم المجتمع الجديد فيه، وحركة التعريب فيه، وانتشار الإسلام فيه، وفي مصر وطرابلس وبرقة والنوبة، وفي المغرب كذلك.

وفي **الكتاب الثالث** الذي جعله **للتطور اللغوي**، تحدّث عن التطور الكمي، والتطور الكيفي من حيث الاختلاط، وأثر ذلك علىٰ اللغة، من نشوء اللحن، ونشوء لغة التفاهم، ونشأة النحو، والعلائق اللغوية في أواخر القرن الأول.

وكان **الكتاب الرابع** ـ الذي هو أطول الأبواب ـ في **التطور الأدبي**؛ وفيه الدور الأدبي الأول، وسمّاه **دور الهدوء**، وبين فيه مكان الأدب والشعر في الدعوة الإسلامية، وأثر الاستنفار للجهاد، والاستجابة له في الحياة النفسية للعرب، وشعر الفتوح، ونمو النثر الأدبي، والطوابع العامة للأدب في هذا الدور من حيث الطوابع المشتركة للحياة الأدبية من توجيه الأدب وأثره في الفنون الأدبية، وعوامل التفتح واليقظة، والتطور الموضوعي في الشعر والنثر، وشعر الغزل التقليدي، والتطور الموضوعي ذو المظهر الإسلامي في الشعر والنثر، والتطور الشكلي والتجدد في الأسلوب.

ويقول الدكتور عبد الوهاب حومد في التعريف بهذا الكتاب:

«أخذ المؤلّف رحمه الله على عاتقه أن يغوصَ في أعماق تلك المجتمعات الحديثة غوصاً رفيعاً واعياً، لأنَّ الإسلام لم يحطِّمْ نواميسها ونظمها

وعقائدها وعاداتها ، ولم يقلبها رأساً علىٰ عقب ، بل سارَ فيها السيرَ الواعي الذي أمرَ به الشرع في قوله تعالىٰ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، وقوله: ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] ، وقد تتبع حركة انتشار الإسلام المذهلة في أرضٍ متعطشة إلىٰ نور المعرفة ، فجرَّت وراءَها حركةَ تعريبٍ واسعةٍ ، وواكبت حركة انتشار الإسلام حركةُ التعريب علىٰ نطاق واسع ، إلاَّ أنّ هذه المواكبة اصطدمت في بعض المجتمعات الجديدة ، فقصَّرتْ حركةُ التعريب عن حركة انتشار الإسلام ، ومن خلال استقرائه الوقائع وجدَ المؤلِّفُ أنَّ اللغة الفارسية قاومت اللغة العربية في بلاد فارس مقاومة عنيدة ، وقد أرجعَ فشل تعريب هذه البلاد إلىٰ سببين:

الأول: أن المقاتِلةَ العرب لم يكونوا يتجاوزون ـ يوم استُخْلِف سليمان بن عبد الملك عام (٩٦هـ) علىٰ حدّ تقدير المؤرخ البلاذري؛ وهو حجة موثوقةٌ ـ أربعين ألفاً من مقاتلة البصرة ، وسبعةَ آلاف من مقاتلة الكوفة ، وسبعةَ آلاف من الموالي ، وكان مَنْ وراءهم من العرب في تلك البلاد لا يزيدون علىٰ أربعة أمثال هذا العدد ، وبذلك لم يكن العربُ الموجودون في البلاد يزيدون على ربع مليون فقط ، في وسط تلك الإمبراطورية الواسعة ذات الأمجاد التليدة والمعتزة بماضيها.

أما **السبب الثاني** في فشل تعريب فارس فهو: انقسام الفاتحين العرب في فارس ، وتخاصُمُهم فيما بينهم ، الأمر الذي حملهم علىٰ الاهتمام بأمور أخرى غير التعريب.

ومع ذلك فإنَّ القرون التالية سوف تشهدُ فرساً استعربوا وأصابوا حظّاً عالياً من الثقافة العالية والتأليف في مختلف علوم اللغة العربية.

وليس بدعاً أن تأخذَ اللغةُ العربيةُ عن لغات الشعوب غير العربية التي أسلمت كثيراً من ألفاظها ، فاغتنت بها ، ووسعت قاموس ألفاظها ، كما أنّه من طبيعة الأشياء أن يأخذ الفاتحون العرب من الشعوب التي أخضعوها كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم بسبب المعايشة المشتركة ، بعد أن كيَّفوها ، وعدّلوا فيها ، لتنسجم مع أحكام الإسلام الذي أصبحَ دين **الدولة**.

وكان من آثار هذا الاختلاط تسرّبُ اللكنة الأعجمية إلىٰ الألسنة ، فالصاد مثلاً عسيرة اللفظ علىٰ الأعاجم ، وكانوا يخطئون في تركيب الجمل نفسها حتى لتستعصي علىٰ الفهم . . غير أنَّ كثرة الأعاجم واختلاطهم القويَّ بالعرب أثَّرا في اللغة العربية أثراً سيئاً . . وقد عرفت حركة الفتوح أدباً جديداً تمثَّل أكثر ما تمثل في تمجيد البطولات في خوض المعارك ، ورفعة راية الجهاد ، والاستشهاد في سبيل الله ، ونشر الدعوة . . ولكن حين تدخلُ السيوفُ في أغمادها ، ويضمّدُ المقاتلون جراحهم في أرض الغربة ، يأخذهم الحنين في هدأة الليل إلىٰ الأب والأم والزوجة والولد في أرض الوطن ، فيترجمون عواطفهم هذه بأبيات أو قصائد أخذت تُعْرَفُ بشعر المواجد .

غير أنّه بعد أن يتحقق النصر ، ويسود السلم ، يأخذ المقاتل بالاندماج في الحياة المدنية ، ويخْلد إلىٰ راحة الأسرة التي أنشأها كثيرٌ من العرب في أرض الغربةِ ، وعندها تعودُ الشاعرية إلىٰ القلوب تَحفِرُ في ثناياها مساربَ لينابيعَ صافيةٍ ، تترقرق علىٰ جنباتها شعراً غزليّاً ناعماً متأثراً برقة البيئة الجديدة ، وهي علىٰ كلِّ حالٍ بيئةٌ بعيدةٌ عن بكاء الأطلال ، وبعر الآرام ، أو مراجيع الوشم في نواشير المعاصم .

غير أنَّ السياسة ما لبثت أنْ حركت عقاربها في صورة أشعار نظمتها الفِرقُ الدينية في الدعوة إلىٰ مبادئها» .

ويقول الأستاذ شفيق جبري :

«لقد استطاع الدكتور شكري أن يصوّرَ لنا في مؤلَّفه العظيم هذا العالم الجديد الذي تصارعتْ فيه بعدَ الفتوحات الإسلامية لغةُ العرب ولغات ثانية ، ومجتمع العرب ومجتمعات ثانية ، حتىٰ كدنا نرىٰ آثار هذا التنازع بأعيننا ، فكأنما عشنا بين ظهراني الإماء والعبيد ، والزنوج والأنباط ، الذين خالطوا العرب ، فتعلموا لغتهم ، وجمعوا بينها وبين عجمتهم ، ولكنَّ لغة العرب بعد الفتوح غلبتْ علىٰ كلِّ اللغات التي مرّت بها ، فلم تستطع لغةٌ واحدة منها أن تستأصل العربية .

أفلا يحقُّ لنا بعد هذه الصورة الناطقة التي ازدحمت في كتاب: (المجتمعات الإسلامية في القرن الأول) أن نثنيَ علىٰ صاحبه أجملَ الثناء، وأن نشيد بفضله وجهوده؟!».

* * *

٣ ـ حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول

دراسة تمهيدية لنشأة المجتمات الإسلامية[١]

هذا الكتاب هو الرسالة الإضافية التي تقدّم بها الدكتور شكري رحمه الله لنيل درجة الدكتوراه، وقد ناقشت الرسالةَ في (٢٤/ ١/ ١٣٧١هـ = ٢٥/ ١/ ١٩٥١م) لجنةٌ مؤلفة من الدكتور زكي محمد حسن رئيساً، والأستاذ أمين الخولي مشرفاً، والدكتور أحمد أمين، والدكتور حسن إبراهيم، والدكتور فؤاد حسنين.

موضوعُ هذا الكتاب دراسةُ (حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول)، وذلك للتعرّف علىٰ التطور اللغوي والأدبي الذي شهدته الجماعة العربية منذ انطلاقها من الجزيرة العربية، تحمل دعوتها، حتىٰ استقرارها في المهاجر الجديدة، تبني مجتمعاً، وتكوّن أمة، وتحكي لغة، وتنشئ أدباً. وللوصول إلى معرفة ذلك لابدَّ من دراسة المجتمعات الجديدة، ودراسة الفتوحات، ورصد معالمها الظاهرة والخفية.

والكتب التي تدرسُ التاريخ الإسلامي فتعرِضُ للفتوح كثيرة، ولكنَّ أغلبها يُعنىٰ بالفتوح عنايةً قريبةً، هي أقربُ إلىٰ أن تكون حكاية أو عرضاً، لا نفاذ إلىٰ الروح التي تكمنُ وراء هذه الوقائع، ولذا سعى الدكتور في دراسته هذه أن يعنىٰ بالفتوحات من هذا الوجه.. وكذلك تعاقبت في المكتبة

---

(١) طبع بالقاهرة بدار الكتاب العربي بمصر، والتزمت طبعه ونشره مكتبة الخانجي بمصر سنة (١٣٧١ هـ = ١٩٥٢م) في: ١٩٦ صفحة ومقدمة في ١٢ صفحة، وبآخره خمسُ خرائط توضيحية، ثم أُعيد طبعه في دار العلم للملايين.

العربية كتب كثيرةٌ في دراسة الحركات الاجتماعية والسياسية في الإسلام ، وأغلبُها ينصبُّ على القرون المزدهرة ، وأقلها لا يقف عند القرن الأول وقفة مستطيلة ، كما أنَّها لم تدرس الأسس الأولىٰ لهذه الحركات ، فكان هذا الكتاب منهجاً جديداً في دراسة التاريخ عامةً والفتوحات الإسلامية خاصةً .

وقد جزّأ الدكتور الفتوحَ في أقسام خمسة : فتوح الشام ، وفتوح العراق ، وفتوح مصر ، وفتوح ما وراء مصر ، وفتوح ما وراء العراق ، ودرس كل قسم دراسةَ إيضاح وتحديدٍ وتتبّعٍ ، فجمع ما بين الروايات ، وقابل بعضها ببعض ، وضم بعضها إلىٰ بعض ، ليصلَ إلى صورة واضحة لحركة الجيوش في هذه المناطق ، حتىٰ انتهىٰ بها الأمرُ أخيراً إلىٰ الغلبة والاستقرار .

وعاب الدكتور علىٰ بعض المؤرّخين المحدَثين الذين أرخوا حركة الفتح في نظرتهم إلىٰ هذه الحركة من نحو خاص ، والتزامهم التعليل والمناقشة علىٰ هذا النحو ، ويردُّ عليهم بقوله :

«وما من شيء أبعدُ عن الصواب من أن نلتزمَ في هذه الحركة الواسعة العريضة وجهاً واحداً ، وما لم يفدِ المؤرّخُ من دراسته سعةَ الأفق والقدرة على الانفلات من تزمُّتِ التعليل الواحد ، فسيظلُّ بعيداً عن المؤرخ الحق .

إنَّ النظرةَ المتكاملة وحدها ـ كما يبدو لي ـ هي التي تستطيعُ أن تلفّ حركة الفتح ، وأن تفسّرها ، لأنّ هذه النظرة هي نظرةُ الإسلامِ نفسِه إلىٰ الحياة» .

ويصف الأستاذ شفيق جبري الكتابَ بقوله :

«لا نجدُ لنا مندوحةً عن الإشادة بالنهج العلمي الذي نهجه المؤلف فيه ، إنّا نرىٰ الفكر الرياضي مفقوداً في أكثر كتبنا ، وأعني بهذا الفكر الرياضي تسلسل المباحث ، وربط بعضها ببعض ربطاً منطقيّاً ، حتىٰ لا يركبَ بعضُها بعضاً ، وإذا كان الفكر الرياضي مفقوداً في أكثر كتبنا ، فإنّ كتاب الدكتور شكري فيصل ينعمُ به نعمة كبيرة ، وحسب صاحبه هذا الفضل .

لقد حاول أكثرُ المؤرخين في مؤلفاتهم أن يأخذوا بأيدينا في مسالك الجيوش، فوقفنا علىٰ حركات الجيوش وسكناتها ، واطّلعنا علىٰ عَدَدِها

وعُدَدِها، ورأينا بأعيننا هزمها وانهزامها، وشهدنا أكثر من ذلك الروحَ الخفية التي تدفعها إلىٰ الفتح والتوسع في الآفاق، والخلاصة رأينا المثلَ الأعلىٰ الذي يمشي بها، وقد دلنا علىٰ هذا المثل الأعلى عبد الله بن الزبير في خطبة من خطبه في فتح إفريقية؛ إذ قال: فبتنا وباتوا، وللمسلمين دويٌّ بالقرآن كدويّ النحل، وبات المشركون في خمورهم وملاعبهم، فهذا الدويُّ بالقرآن هو الذي دفع المسلمين إلىٰ فتوحاتهم فكان لهم أملان: أمل في الدنيا وأمل في الآخرة.

هذا كله اهتدىٰ إليه المؤرخون، ولكنَّ الشيء الذي لا يزال نجهل أكثرَهُ أو أقلَّهُ، إنّما هو حالة العدو النفسية في تلك الفتوح، فنحن نعلم في هذا العصر أنّ للحالات النفسية أثراً كبيراً في الحروب، في الهزم والانهزام فالعُدد وحدَها لا تفسِّرُ لنا هذا الهزم وهذا الانهزام، فلا بدَّ من الوصول إلىٰ أعماق النفوس، حتىٰ نعلمَ حالاتها في مثل هذه الحروب، فكيف كانت حالاتُ العدو النفسية في نفوس المسلمين، لاشكَّ في أنَّ جيوش المسلمين انتفعت بضعف هذه الحالات بقدر انتفاعها بقوة رجالها وشدة إيمانهم، فالتاريخ لا يزال غامضاً في هذا المعنىٰ، فهو لم يفسِّرْ لنا الحالات النفسية في الجيوش المنهزمة وفي بلادِها، وهذا عنصرٌ ذو شأنٍ في عصرنا هذا في تحليلات الحروب.

وإذا كان يجدرُ بنا الإشادة بكتاب الدكتور شكري فيصل (حركة الفتح الإسلامي) فإنَّا نشيدُ به لأنّه لم يهمل في بعضه هذا العنصر العظيم».

* * *

٤ ـ تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من ٱمرئ القيس إلىٰ ابن أبي ربيعة[1]

يعتقد الدكتور شكري رحمه الله بأنَّ دراستنا للأدب العربي دراسةَ وعي

(١) طبع بمطبعة جامعة دمشق أول مرة عام (١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م) في: ٤٩٨ صفحة، ثم أعيد طبعه عام (١٩٦٢م)، ثم طبع في مطبعة الحياة بدمشق عام (١٩٦٥م)، ثم طبع بدار العلم للملايين ببيروت.

لتطوره وخطاه ، ورسمٍ لمعالمه وصواه ، لن تكون مجدية ما لم تقمْ علىٰ أساسٍ مكينٍ من الوقفة الطويلة المستأنية عند أدبنا في مراحله الأولىٰ ، بغية التعرُّفِ الأتمّ لهذا الأدب ، والتمرّس الأقوىٰ به ، وإدراك ما أفاضت هذه النبعةُ الأصيلة على العُصور التاليات من ظلّها ومائها ، وما أضفت من رونقها وألَقِها.

ومن هنا كان يملأُ نفسه يوماً بعد يوم أنّه لكي تستقيمَ الدراسات الأدبية عندنا ، ولكي تتخذ وجهها الحق من نحو لغوي ، ومن نحو نفسي ، ومن نحو علمي ، **فإنّه لابدّ لنا من أن نأخذَ أنفسنا بدراسة النصوص أولاً ، وأن نجعلَ من هذه النصوص كذلك منطلقنا وقوة الدفع في طريق دراستنا.**

من ذلك كانت الركيزةُ الأولىٰ لهذا النهج الذي مضىٰ عليه في هذه الدراسة ، **أي البَدء من النصوص فهماً لها ، وتعويلاً عليها ، واستنتاجاً منها** ، ويبدو ذلك واضحاً حين يقفُ القارئُ في دراسته لشعر عمر ، فقد درس ثلاثاً من قصائده دراسةً أبان في كلٍّ منها عن الذي تدلُّ عليه من أمر شخصيته ونفسيته وملامح حبه ومناحي أسلوبه ، ثم توّجَ ذلك بعدُ بدراسةٍ لكلِّ شعر عمر من خلال الديوان. . وتتضح خطّةُ الدراسة في هذه الركائز الثلاث: **في التحليل ، وفي التركيب ، وفي المرونة والإغناء.**

ولفت نظره الحيّز الذي شغله الغزلُ من الشعر العربي ، فكانت حوله أو فيه أولىٰ الدراسات التي انصرفَ إليها منذ بدأ التدريس في الجامعة عام (١٩٥١م) ، وكان يغني هذه الدراسات عاماً بعد عام بما يجتمع عنده من ملاحظ ، وينتهي إليه من نتائج حتىٰ كان هذا الكتاب.

وأما عن مادة الكتاب فقد كانت دراسةً لتطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ، وفي ضوء هذا الغرض التطوري كسّرَ الكتاب علىٰ ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في الغزل الجاهلي ، **والباب الثاني:** في الغزل في صدر الإسلام ، **والباب الثالث:** الغزل في العصر الأموي.

قدّم **للباب الأول:** بحديثٍ عن **مكانة الغزل من الشعر الجاهلي** ، ثم قسّم هذا الشعر تسهيلاً للدراسة إلىٰ هذه الأقسام الكبرى من مثل الوقوف علىٰ

الأطلال ، ووصف المحاسن ، ومشاهد التحمل والارتحال ، ثم انتهىٰ إلىٰ النتائج التي تتيحُها دراسةُ هذه النصوص في التعرّف إلىٰ ما بين الشعراء من تخالف أو تآلف ، وفي إدراك مميزات الجاهليين.

وفي **الباب الثاني**: **عصر صدر الإسلام** كان هذا التطوّرُ الذي طرأ علىٰ الحياة النفسية والاجتماعية ، فكان لابدّ للبحث من مقدمتين عامتين:

أولاهما: في الحديث عن **موقف الإسلام من الحياة العاطفية** ، ومن الحبِّ خاصة.

والأخرىٰ: في الحديثِ عن **موقف الإسلام من الشعر والشعراء**.

ثم تحدّث عن الذي آل إليه شعر الغزل في هذا العصر ، ووقف وقفة متمهلة عند بعض الشعراء المخضرمين ، وعند شاعرين كان لهما مكانهما البارز في حركة هذا الشعر ، هما **أبو مِحْجَن الثقفي** ، **وحُميد بن ثور الهلالي** ، فالأول لم ينجُ من أهواء الخمرة ، والثاني لم يستطعْ أن ينجو من أهواء الغزل.

وقد أبان في دراسة هذا الباب عن نواحي الجدّة والتميُّز عند هذين الشاعرين ، ورصد ملامحَ حياتهما ، وخصائص شعرهما.. وتكشّفت شخصيةُ حميد الشعرية عن جديدٍ في الأسلوب ومستطرف من الصياغة.

أما الباب الثالث فقد خصه بدراسة **الغزل في العصر الأموي** ، موزعاً بين قسمين كبيرين: دراسة **الغزل العذري** ، ودراسة **الغزل العمري**.

ومهّد لذلك بدراسة **الشعر في العصر الأموي** ، وكيف آلَ إلىٰ أن يكونَ قريباً في مفهومه من الشعر في **العصر** الجاهلي ، وما كان من أثرِ الحياة الدينية والاجتماعية والفنية في ذلك.

ثم مضىٰ يتتبّعُ **الغزل العذري** ، فعرض نشأة هذا الحب ، وعرّف بخصائصه ، ووقف عند **جميل** ، علىٰ أنّه ممثل لهذه النزعة في الحبِّ والشعر ، وأطال الوقوف عند شعره ، فدرس أربعاً من مقطوعاته دراسةً مطوّلة ، ثم جاز ذلك إلىٰ الحديث عن الطوابع العامة لهذا الغزل.

وحين أخذ يتحدّث عن عمر بن أبي ربيعة جعل بداية ذلك الحديث عن حياة عمر في بيئته الكبرىٰ ، أي في مجتمعه ثم في بيئته الصغرىٰ: أسرته ، والحديث عن البيئة الكبرىٰ كان بمثابة تعريف بالإطار الاجتماعي الذي عاش عمر فيه في مجالات السياسة والاجتماع والفن ، كما أنَّ الحديث عن بيئته الصغرىٰ أسرته كان بمثابة كشف للذي ورَّثته أسرتُه من آثار.

وقد بدأ النظرَ في شعر عمر بدراسة مطوّلة من مطولاته هي الرائيةُ الكبرى في (نُعم) ، ثم بدراسة قصيدة من قصائده هي دالية: (ليت هنداً) ، وانتهىٰ بدراسة قصيدة أخرىٰ هي الرائية: (هيّج القلب) ، دراسةً مستوفية كانت تجسيداً لكل الذي دعا إليه ، واستبان من هذه الدراسة كثرة كثيرة من الجزئيات عن عمر محبّاً وشاعراً وإنساناً ، من حبه وشخصيته وأسلوبه.

من خلال ذلك ربط بين هذا كله ، وبين غرض البحث من إدراك تطور الغزل العربي ونقلته ، ولذلك كانت هذه الدراسةُ تحفل بالمقارنات بين **الغزل العمري** وبين **الغزل العذري** ، وبين **الغزل العمري** و**الغزل الجاهلي**. وكان القسم الأخير من هذا البحث تتويجاً له ، كان عن مناحي التجديد في شعر عمر ، وعن أثره في تطوير الشعر العربي ومظاهر هذا التطوير.

وانتهىٰ الدكتور ـ رحمه الله ـ إلىٰ أنَّ عمر أحدث في الشعر العربي ما لم يحدثه الذين جاؤوا قبله أو جاؤوا حوله ، وتيار عمر كان هو التيار الغالب بعدُ في الشعر.

ويبرِّر الدكتور وقفته الطويلة علىٰ عمر بأنّه يعده رائد مدرسة شعرية ستتطور كثيراً ، وتتشعب بها الطرق علىٰ أيدي الشعراء العباسيين ثم الأندلسيين.

ويقول الدكتور عبد الوهاب حومد ـ رحمه الله ـ عن هذا الكتاب:

«الحديثُ عن الغزل يظلُّ حديثاً جذاباً ، محبباً إلىٰ النفس ، أثيراً إلىٰ القلب ، إنه خلجات الهوىٰ في أعماق النفس ، ولوعة الشوق تترقرق علىٰ مرارة الحرمان ، ويكون الغزل أحلىٰ إذا تحدّث عنه مؤلِّفٌ عُرِفَ بعواطفه

الدينية القوية ، واستمساكه بالقواعد الشرعية ، وقد بحث الدكتور شكري هذا التطوّر بحث العالم الموضوعي لرسم مساره ، وإبراز الفوارق بين عصرٍ لم يكن يردع الشاعر فيه رادع ، وعصرٍ كان علىٰ الشاعر فيه أن يعرف أنه يتحرّك بين الحلال والحرام ، وبين المباح والتعرض إلىٰ حد القذف.

وقد خصص الدكتور شكري كتابه المتألّق والمتأنّق لدراسة تطور الغزل العربي من امرئ القيس الذي قالت له فاطمة ، وقد حال بهما الغبيط :

«عقرتَ بعيري يا امرئَ القيسِ فانْزِلِ».

إلىٰ عمر بن أبي ربيعة الذي نقل عنه الرواةُ وهو يحتَضرُ أنّه أقسم بالله علىٰ أنه لم يرفع ثوبه علىٰ حرام ، أي: إنَّ غزله كان نفثاتِ قلبٍ موجَعٍ يتغذّىٰ بالأوهام.

وقد برهن المؤلّف عن تمكنٍ من النصوص الأدبية ، وطاقةٍ عجيبة في تحليلها ، واستخراج أعمق المعاني منها.. ويخلصُ إلىٰ القول بأنَّ الغزلَ الجاهلي يتّصف بأنه غزل تشبيهي ، يُعنىٰ بالمظاهر الخارجية ، ومنه ما يمتازُ بالدقة ، ومنه ما يظلّ سطحيّاً.. والمرأة عند الجاهليين شيءٌ هام في حياتهم العاطفية والجمالية ، وجمالُها هو الصورة المثلىٰ للجمال ، وفي الحديث عنها كان امرؤ القيس مثلاً يتمتع بجرأة متناهية في القول الماجن ، وكان عنترةُ يتغزّل باحتشام في عبلة ، لا يُسِفُّ ولا يترخّص في القول.

والحب في الإسلام ـ كما يقول الدكتور شكري ـ ليس قَصرُ هذه العاطفة السامية علىٰ إرواء الهوىٰ ، وإشباع الغرض ، وإنّما يجب أن يكون قوة حافزة ودافعة إلىٰ تحقيق غايات الدين من إعمار المجتمع ، وإنشاء الأجيال المؤمنة.

ويبدو لنا أنَّ الغزليين الإسلاميين لم يبقوا علىٰ هذا الفهم ، فقد انشطروا إلىٰ شعراء أحبوا محبوباتهم حبّاً عذريّاً كجميل بن معمر ، وإلىٰ شعراء اتخذوا من الغزل مطية لإثبات شاعريتهم القوية ، ولم يَقصِروا حُبَّهم علىٰ بثينة والأخيلية ، بل عددوا النساء اللواتي تغزّلوا بهنّ! وما أحلىٰ ما قاله عمر بن أبي ربيعة في هذه الأبيات العفيفة :

نظرتُ إليها بالمُحَصَّبِ من مِنًى ... ولي نظرٌ لولا التحرُّجُ عازِمُ
فقلتُ: أصبحٌ أمْ مصابيحُ بِيْعةٍ ... بدَتْ لكَ تحتَ السَّجْفِ أم أَنْتَ حَالِمُ
بعيدةُ مَهْوَىٰ القُرطِ إمَّا لنوفلٍ ... أبوها، وإمَّا عبدُ شَمْسٍ وهاشمُ

ويأتي علىٰ رأس هؤلاء المجددين عمر بن أبي ربيعة الذي خصّه الدكتور شكري بدراسة عميقة، وخاصة رائيته المشهورة، بلغت أكثر من ثلث الكتاب».

ويختم الدكتور حومد حديثه عن الكتاب بقوله: «ويكفيني أن أقول في هذا المؤلف الرائع: إنّه عملٌ إبداعي حقّاً، ما أظنُّ أن أحداً من المؤلفين في الأدب سبقه إليه».

* * *

٥ ـ الصحافة الأدبية
وجهة جديدة في دراسة الأدب المعاصر وتاريخه
مجلة المجمع العلمي العربي: البحث اللغوي(١)

تضمّن الكتابُ عشرَ محاضراتٍ ألقاها أستاذُنا علىٰ طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية في معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة، نحا فيها نحواً جديداً من أنحاء الدراسة الأدبية في سبيل استكمال دراسة الأدب المعاصر، ذلك أنّ القدر الأكبر من ثروتنا الأدبية إنّما نشأ في الصحافة الأدبية، فالمتَّبعُ عادةً في الدراسة الأدبية أنها تعتمِدُ علىٰ معرفة المذاهب الأدبية، ودراسة أعلام الأدب، ودراية الفنون الأدبية المختلفة، غيرأنّ هذه الدراسة للأدب لا تلقي بالاً إلىٰ الصحافة الأدبية، التي مهّدت لأدبنا المعاصر وأغنته، وأمدَّت كتّابنا، وأثَّرت في أُدبائنا، وقد عُرِفَ كثيرٌ من أكابر كتّابنا وشعرائنا في هذا العصر بنتائج خواطرهم في المجلات قَبل أنْ يُعرفوا بهذه النتائج في كتبهم ودواوينهم من الناحيتين الفكرية والخلقية.. وكان أثر المجلات

---

(١) طبعه: معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة سنة (١٩٦٠م)، ١١٩صفحة.

واضحاً ، فكانت مدرسةً للمثقفين ، ومدرسةً لعامة المتعلمين ، ومدرسةً لتخريج الناشئين.

بما تقدّم كشف أستاذُنا عن أهميّة المجلات ، وذلك في المحاضرات **الثلاث الأُولىٰ** ، دعا فيها إِلىٰ نهجٍ جديد في تاريخ أدب العصر ودراسته ، ثم طبّق في **سبع محاضراتٍ** النهجَ الذي دعا إليه علىٰ (مجلة المجمع العلمي العربي) بدمشق في مباحثها اللغوية.

فبعد أن فرغ من الكلام علىٰ المجلات وتأثيرِها انتقل في محاضراته **الرابعة والخامسة والسادسة** إِلىٰ الكلام علىٰ مجلة (المجمع) بدمشق بوجه خاص ، فكان منصفاً كلَّ الإنصاف في اعترافه بأنّ هذه المجلة مثّلت جانباً عظيماً من أدبنا خلال الأربعين السنة التي مضت عليها.

لم يغادر الدكتور شكري فيصل شيئاً ممّا يتصل بالمجمع من حيث التعريف بالمجمع: نشأته وأعماله ، ثم بالمجلة من حيث أبوابها وأقسامها ومعالمها والسمات الخاصة بها من بداية صدورها واستمرارها ، ومواعيد إخراجها ، ولكنّ الموضوع الذي توسّع فيه وتبسّط إنّما هو موضوع المباحث اللغوية في مجلة (المجمع) فهذا الطابع اللغوي في رأيه هو الغالِبُ عليها ، فقد كانت ترمي إلىٰ إصلاح اللغة والنهوض بها ، ولقد تتبّعَ هذه الموضوعات تتبعاً دقيقاً دلَّ علىٰ سَعةِ صدره ، فأحصىٰ هذه الموضوعات في المجلة في خلال الأربعين سنة ، وأحصىٰ أصحابها ، وبيَّن روحَ كلٍّ واحد منهم في مبحثه.

وأراد أستاذُنا في دراسته هذه عن مجلة المجمع أنْ يبيِّنَ الدراسات اللغوية فيها مِنْ حيثُ التعريف باللغة العربية وخصائصها ، والعلاقات والمقارنات والتأثيرات بين العربية وغيرها ، والدراسات اللغوية الموقوفة علىٰ عصورٍ بأعيانها ، أو كتبٍ بذاتها ، وموضوعات الفصحىٰ والعامية ، وكذلك اللهجات ، والأبحاث النحوية والصرفية ، ومقالات الكتابة والخط ، وتعليم اللغة ومعاجم اللغة ، ونشر الرسائل والكتب اللغوية.

وخصَّص الدكتور محاضرتيه **السابعة والثامنة** في وجوه البحث اللغوي ومراحله في المجلة ، وذلك في دراسة الكلمات اللغوية وتفسيرها ، وتصحيح لغة الكتَّاب والمؤلفين ، وتنقية لغة الدواوين ولغة الجرائد من الدخيل ، وإبعادِ الكلمات الأجنبية ، والأساليب العاميّة ، وإحياء الفصيح ، ووضع المصطلحات العلمية ، ودراسة اللغة تاريخيّاً ، والخصومات حول التجديد اللغوي .

لقد تتبع أستاذُنا هذه الموضوعات تتبعاً دقيقاً يدلُّ علىٰ سعة اطلاعه ، فأحصىٰ هذه الموضوعات في المجلة في خلال الأربعين سنة ، وأحصىٰ أصحابها ، وبيَّن روح كلِّ واحدٍ منهم في مبحثه .

في المحاضرة **التاسعة** تحدّث عن طوابع البحث اللغوي في المجلة فذكرَ تنوّعَ أبحاثها اللغوية القديمة والحديثة كعلم وفقه ، وتنوعَ الباحثين والعلماء .

أمّا المحاضرة **العاشرة** فلاحظَ أنَّ الهدف الرئيس والكبير الذي يرتسم علىٰ الأفق اللغوي من وراء هذه البحوث إنّما هو المحافظة علىٰ اللغة ، والرعاية لسننها ، والوفاء لأساليبها .

ولقد عبَّر الأستاذ شفيق جبري عن أهمية هذه المحاضرات بقوله : «وإذا كان لي ما أقرُّ به في هذا المقام ، فإنِّي أُقرُّ بمبلغ خدمة الدكتور شكري فيصل لمجمعنا ، فقد أظهرَ أعماله أتمَّ إظهار ، ووضحَ فضله أكملَ توضيح ، ولاسيّما في إشارته إلىٰ محافظة المجمع علىٰ اللغة ، وما يخالِطُ هذه المحافظة من الاعتزاز ، ولا بأسَ بأنْ أؤيد شعوره هذا ببعض كلامه ، فقد جاء في إحدىٰ محاضراته ما يلي :

«ويبدو أنّ هذه المحافظة كان يرافِقُها نوعٌ من الشعورِ الحاد بالاعتزاز القومي الذي لا حدَّ له باللغة ، والتفاني في سبيلها ، والإيمان المطلق بأنّها من العرب بمثابة العمود الفِقْري ، بل إنّها لتشبه الجملة العصبية إذا فقدوها فقدوا ذاكرتهم وتفكيرهم . . . فيها تستقرُّ ذكرياتهم المشتركة ، ومطامحهم البعيدة ، وآمالهم وآلامهم . . . وفي ألفاظها تتجسّدُ مطامحهم ومشاعرهم ،

إنّهم في رنين أصواتها وحركاتها يجدون أصواتَ أجدادِهم ورنينَ الأفراحِ في مستقبلهم».

وإذا رجا الأستاذ أن يكون أثرُ محاضراته في نفوس الذين سمعوها إغراءً بالدراسة ، وإثارةً للتنبيه ، وإنارةً للطريق ، فقد تمَّ له ذلك ، ولئن كان له فضلٌ في التنويه بمجمعنا العلمي والتعريف بمجلته ، فإنّ له مثل هذا الفضل في إشادته بالمحافظة علىٰ هذه اللغة في عصر كانت الأذواقُ ترغبُ فيه عن هذه المحافظة ، وتعبثُ بالميراث الضخم الذي خلَّفه لنا الماضي ، وهو ميراث اللغة عنوان عظمة العرب في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم» .

* * *

٦ ـ الحركة اللغوية في الوطن العربي (١٩١٨ ـ ١٩٧٥م)
أدلة بكتبها وأبحاثها ودراستها[١]

هذا الكتابُ هو آخرُ مؤلّفات أستاذنا ـ رحمه الله ـ أتمّ تأليفه بالمدينة المنورة ، قبل سفره إلىٰ سويسرة لإجراء العملية الجراحية وطبع بعد وفاته بمتابعة وإشراف كل من د. محمد مطيع الحافظ و د. رياض عبد الحميد مراد.

وكان الدافعُ إلىٰ تأليفه خدمة العربية بعد أن تعذّر العملُ لها في الساحات الأخرىٰ ، وكانت الغايةُ تيسير السبيل أمام العمل اللغوي بعد أن أضحتِ اللغة هي أكثرَ ما أبقت الأيام من روابط بين البلاد العربية.

وذلك لأنّ الفكر العربي عانىٰ أزمة تكرار الجهود في كثير من الميادين ، وكان أشدّ المعاناة في ذلك في ميدانين اثنين: ميدان الحديث عن الوحدة العربية ، وميدان الحديث عن اللغة العربية.

وقد قدّر لأستاذنا أن يتابع ذلك ، ويشارك فيهما كتابة ودراسة وعملاً ، فوجد نفسَه أمام الكلام المكرور المعاد . . فما أكثر المؤتمرات! وما أكثر الدراسات! وتكاد التوصيات أن تكون متشابهة! . .

---

(١) مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي بالتعاون مع دار طلاس بدمشق (١٤١٢هـ = ١٩٩٢م) ، ٢٤٠ صفحة + ٧صفحات مقدمة.

من أجل وضع الجهود السابقة موضع الإفادة منها ، قام بعمله هذا حتىٰ لا يبدأ الذي يحبون أن يعملوا من الصفر ، وحتىٰ يتابع المتابعون علىٰ هدًى وبصيرة . . وكان تأليفهُ هذا الكتاب صدًى لحرصه علىٰ سلامة العمل اللغوي وتقدمه .

وقد صنف فيه الموضوعات اللغوية في ثمانية عشر باباً ، ورتّب الموضوعات التي ضمها ترتيبَ الألف باء ، وحرص علىٰ أن يشيرَ في صفحة العنوان التي تفتتح الباب إلىٰ تفاصيل ما يضمُّه هذا الباب ، كما حرص كذلك في أغلبِ الأبواب على أن يمهّدَ ببعض الملاحظات التي تساعِدُ القارئَ علىٰ أن يتبيّنَ آفاق الباب وحدوده ، وأن يتعرّف معرفةً تقريبيةً إلىٰ مضامينه .

قدّم أستاذنا بعد مقدمته للكتاب إيضاحات تساعِدُ علىٰ استخدام الكلام من بيان الرموز والاختصارات ، ثم ألحق جداولَ : واحد لأسماء الشهور الميلادية وأصولها السريانية والعربية واللاتينية ، وجدول آخر لمجلة **مجمع اللغة العربية الأردني** ، يضم سنواتها وأعدادها وتاريخ صدور كل عدد ، وكذلك جدول لمجلة **مجمع اللغة العربية بدمشق** ، وآخر لمجلة **مجمع القاهرة** يضم الأجزاء والسنوات وما يقابلها من دورات انعقاد مؤتمر المجمع ومجلسه .

أما الأبواب الثمانية عشر التي ضمها الكتاب فهي :

الباب الأول : التعريب والمصطلحات ، وهو في فصلين :

الفصل الأول : عن التعريب ، ويضمُّ التعريب وقضاياه ، وتجاربه القديمة والحديثة ، وندواته ومؤتمراته ، والجهود فيه ، وتعريب التعليم ، والأبحاث التي تتحدَّث عن موضوع التعريب .

الفصل الثاني : ويضم **علم المصطلحات** ، ومعاجمها ، ومشكلاتها ، وصلتها بالتراث ، والأبحاث التي تنصبّ علىٰ موضوع المصطلح .

الباب الثاني : **المعاجم** والرسائل اللغوية العربية ، ويضم صناعة المعاجم ، تاريخ المعاجم القديمة والحديثة ، الرسائل اللغوية ، المقالات

عن بعض الألفاظ والمسميات العربية ، والموسوعات .

الباب الثالث: مباحث لغوية عامة ، ويتناول اللغة عامة ، واللغة العربية خاصة: نشأتها ، حروفها وأصواتها ، أصولها وخصائصها ، مشكلاتها ، والمواقف المعاصرة منها ، صلاتها بالإسلام والبلاد والشعوب الإسلامية والعلوم .

الباب الرابع: علوم العربية ، ويضم: قضايا من علم النحو والصرف وفقه اللغة ، ومسائل الاحتجاج ، وصلة علوم العربية بعلوم الثقافة الإسلامية كالمنطق والفلسفة والأصول ، والشواهد في العربية .

الباب الخامس: تاريخ اللغة العربية وجغرافيتها ، ويضم بداياتها وانتشارها ، تطورها في الماضي ، وحركة تطورها في الحاضر ، أوضاعها الخاصة في بعض البلاد العربية والإسلامية ، الدراسات العربية والإسلامية عن العربية في البلاد الإسلامية غير العربية ، النقوش العربية القديمة .

الباب السادس: تعليم اللغة العربية ، وفيه: تاريخ تعليم العربية عامةً ، وفي مناطق معينة ، طرائقه ، ما كتب عن تيسير تعليم العربية .

الباب السابع: الفصحىٰ والعامية ، وفيه: الصراعُ بين الفصحىٰ والعاميّة ، اللهجات ، الأخطاء الشائعة ، الدخيل والمولد ، الأمثال .

الباب الثامن: اللغة العربية وصلاتها باللغات الأخرىٰ ، ويتضمن دراسات مقارنة للعربية بغيرها ، الألفاظ الأجنبية في اللغة العربية ، الترجمة .

الباب التاسع: الدراسات اللغوية الحديثة ، وفيه: الصوتيات ، وتطبيقاتها في النقد والمعجميّة والتعريب .

الباب العاشر: الكتابة العربية ، ويتضمن الخط ، الإملاء ، الطباعة ، الحروف والحركات ، رسم المصحف ، تراجم ودراسات لبعض أعلام الخطاطين ، ظاهرة الاختصار في الكتابة .

الباب الحادي عشر: الإحصاءات اللغوية، والمفردات الشائعة في بعض المراحل الدراسية، الأرصدة اللغوية، مشاريع العربية الأساسية، المعاجم الأساسية.

الباب الثاني عشر: المؤسسات اللغوية، أوضاعها وأنشطتها، المجامع اللغوية، المؤتمرات اللغوية، الدورات والندوات واللجان اللغوية.

الباب الثالث عشر: بين كتب اللغة ومع علمائها، وفيه دراسة عن علماء لغويين مجمعيين، وتعريف لكتب لغوية قديمة، وملاحظات علىٰ أعمال لغوية.

الباب الرابع عشر: فهارس وأدلة لبعض المجلات اللغوية، وأدلة للبحث اللغوي، والمطبوعات والرسائل اللغوية.

الباب الخامس عشر: الأدب والبلاغة والشعر والصحافة، وفيه اتجاهات ومشكلات ومناهج ومصطلحات، وتاريخ وتطوير.

الباب السادس عشر: الأرقام والرموز، استخدامها وتعريبها، وتطورها.

الباب السابع عشر: الاستشراق والاستعراب، حركته، دراسات معاصرة عن العربية في البلاد العربية.

الباب الثامن عشر: أقيسة، وأساليب، وألفاظ، وصيغ، الجديد من الأساليب وصحتها.

* * *

تنبيه

ثمّةَ كتبٌ مدرسيةٌ ألّفها الدكتور شكري فيصل منفرداً أو بالاشتراك مع بعض زملائه وفق المناهج الرسمية ، وهذه الكتب هي[1] :

٧ ـ «الفنون الأدبية» :

نصوصٌ مختارةٌ من الأدب القديم والحديث ، كتاب مطالعة للمدارس المتوسطة ، السنة الثالثة (الكفاءة) ، وتسمى الآن شهادة التعليم الأساسي[2] .

٨ ـ «الزاد من الأدب العربي» :

ألفه وفق المنهاج الحديث المقرر لطلاب صف الشهادة المتوسطة. بالاشتراك مع الأستاذ أنور العطار ، والأستاذ خلدون الكناني[3] .

٩ ـ «النصوص الأدبية» :

مختارات من آثارِ الأدباء في جزأين وفق المنهاج الجديد: الأول مقرر على الصف العاشر ، والثاني مقرر على الصفين الحادي عشر والثاني عشر ، ألفه بالاشتراك مع الأستاذ خلدون الكناني[4] .

* * *

---

(١) سبق ذكرها ص ١٨ في الفصل الأول.

(٢) طبع في المطبعة الهاشمية بدمشق سنة (١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م) ثم أعيدت طباعته أكثر من مرة.

(٣) عنيت بنشره مكتبة عرفة بدمشق سنة (١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م) ، وطبع في مطبعة الترقي بدمشق في ٢١٠ صفحات.

(٤) كانت الطبعة الأولى في مطبعة دار اليقظة العربية بدمشق سنة (١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م) ، والطبعة الثانية بالمطبعة الهاشمية بدمشق سنة (١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م) ويقع في ١٨٠ صفحة.

المبحث الثاني

تحقيق المخطوطات

تمهيد

منهجه في إخراج المخطوطات

لعلي أستطيعُ أن أوكّد أنَّ لأستاذنا الدكتور شكري ـ رحمه الله ـ منهجاً متميزاً في تحقيق المخطوطات ، ونظرة صائبة في ذلك ، فله منهجه الخاص في تحقيق النص ، وإثبات الاختلافات في الهامش ، وفي شرح المبهمات فيه ، والإحالة إلىٰ مصادر الترجمة ، ومراجعها في الكتب مرتبة حسب التسلسل الزمني للمؤلفين ، وصنع جداول للتراجم والتمهيدات لها ، وصنع الفهارس المتعددة التي تفيد الباحث في جوانب كثيرة ، وغيرها من الأمور التي نهجها في تحقيقه للخريدة ، هذا المنهج جعل منه مدرسةً متكاملةً في التحقيق ، رائدة في بلاد الشام ، وكان تحقيقُ الخريدة علىٰ يديه أنموذجاً رائعاً لتوضيح منهجه ، مما جعل معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية يعتمد نهجه ، ويعممه علىٰ المراكز العلمية في العالم بعد مناقشات عدة في ندوة ببغداد عام (١٩٨٠م).

ومن المفيد أنْ أنقلَ فيما يلي ما ذكره ـ رحمه الله ـ في مقدمة الجزء الثالث من الخريدة توضيحاً لنظرته في التحقيق، يقول رحمه الله تحت عنوان:

«طريقان في إخراج النصوص

وبعدُ ، فقد كان إخراجُ هذا الجزء علىٰ هذا النحو مصحوباً بهذه التمهيدات التي تبشّر به، والجداول التي تُيسِّر الإفادةَ منه، والتعليقاتِ

والهوامشِ التي تنيرُ جانباً منه، أو تثير أمراً مشكلاً فيه ـ أحدَ طريقينِ يذهبُ فيهما العاملون في هذا التراث، يقابله هذا الطريقُ الآخر، الذي يرىٰ أنْ يُقتصرَ علىٰ إخراج النص مصحَّحاً، مجرّداً من كلِّ هذا المَلاحظ، خلواً من كلِّ هذه الهوامش والتعليقات والتمهيدات، وهو ما دعا إليه في الفترة الأخيرة كثرةٌ من المحققين، وأخذوا به، وجهدوا في إشاعته ومتابعته، وحرصوا علىٰ أن يكونَ وحدَه طريقَ التراث إلىٰ الظهور.

ولقد ارتضيتُ الطريقَ الأول الذي سلكته، إيماناً منّي بجدواه، واطمئناناً إلىٰ عائدته علىٰ الفكر العربي المعاصر، الذي يحاوِلُ أن يكشف ذاته، وأن يدرسَ تاريخه، في النطاق الفني، وفي النطاق الاجتماعي، في سير الحياة الأدبية بوجدان الأمة، وفي سير الحياة العامة بأحداثها وأقدارها.

وبين هذين الاتجاهين يدورُ شيءٌ من حوارٍ، وطرف من حديث، ويتجاوز الأمرُ أحياناً الحديثَ والحوارَ إلىٰ شيءٍ من النقاش، وما يجرُّ إليه النقاشُ من نقدٍ أو حُكمٍ أو تقييمٍ.

ولعلّي كنتُ استمعتُ إلىٰ بعض النقدات والإشارات حين أخرجتُ الجزء الأول والثاني[1]؛ وربّما كنتُ أشيرُ إليها، من غيرِ قصدٍ مني إلىٰ ذلك، في طرفٍ مما قلته في مقدمة الجزء الثاني حين تحدّثتُ عن تجنُّب الجهد، وإيثار العافية، في نشر تراثنا القديم.

والحق أنّه كان في نفسي منذُ حينٍ، من أمر تفضيل واحدٍ من هذين الاتجاهين أو تغليبه، شيءٌ لا أكادُ أنتهي فيه إلىٰ رأي... وقد ظللتُ أداورُه وأحاورُه، لا أكشفه ولا أُسرّه، ولا أُبينُ عنه ولا أسكتُ عليه... حتىٰ إذا كانتِ (الخريدةُ) في جزأيها الأوّلَيْن، بدا لي في هذا الاتجاهِ رأيٌ، لم أتردد في الأخذِ به، وفي الاستجابة إليه، ثم استحكم هذا الرأيُ مع الممارسة المتصلة، والنظر في التراث المنشور... فلمّا كانت تجربةُ هذا الجزء الثالث من الخريدة أضحىٰ من واجبي أن أقول، في غير ما تردد: إنّ كثرةً من تراثنا

---

(١) من الخريدة (ن).

الذي نخرجه في حاجةٍ إلىٰ أن تتظاهرَ عليه هذه الأعمالُ المختلفة ، من التعليقاتِ والتمهيداتِ والجداولِ والهوامشِ والفهارسِ ، بل لعلّه في حاجةٍ إلىٰ أن يُثْقَل بذلك ، حتىٰ يأتيَ عملُنا كاملاً ، أعني حتىٰ يؤدِّي عملُنا غايتَه الأصيلةَ من نشر النصوص ، وتمهيدِ السبيل لدراستها .

إنّ الذين يدعون إلىٰ الاكتفاء بتقديم نصٍّ صحيحٍ إلىٰ القارئ العربي ، يثيرون الجدلَ حول طائفةٍ من النقاط . . . حول إثباتِ الخلافاتِ بين النسخ أو إغفالها ، وحول ترجمةِ الأعلامِ أو إهمالها ، وحولَ الإشارةِ إلىٰ بعض الأحداث أو السكوتِ عنها ، وحولَ شرحِ بعضِ الأبيات أو تجاوز شرحها . . . وهم يؤثرون أن يتخلّوْا عن ذلك ، مكتفينَ بما يسمونه النصَّ الصحيح .

ولكنْ من المؤكّد أنَّ هذه الأشياء كلَّها هي الطريقُ إلىٰ سلامة النص ، إلىٰ استبانة هذه السلامة ، وإلىٰ تأكيدِها ، إلىٰ معرفتها ، وإلىٰ الاطمئنان إليها . . ثم هي الطريقُ إلىٰ تيسير الإفادة من النصِّ ، حتىٰ لا تكونَ قاصرةً علىٰ القلّة القليلة من العلماء ، وإنّما تتجاوزهم إلىٰ الكثرةِ الكاثرةِ من العلماء والباحثين ، والدارسينَ الذين يقفون اليوم علىٰ عتبة الحياة العلمية ، وينشدون الوسائل لاجتيازها .

إنّ محورَ المناقشةِ في هذا الموضوع يدورُ حول الجواب عن السؤال التالي : لِمَنْ نقدِّمُ هذا التراثَ الذي ننشرهُ؟ أنحنُ نقدّمُهُ للمتخصصين المتعمّقين وحسبُ ، أم نحن نقدّمه للدارسين بوجه عام ، في المستويات المختلفة التي يقفون عليها؟ .

الواقع أننا ، في هذه الفترة من تاريخنا الأدبي بخاصة ، إنّما نقدّم هذا التراث للدارسين جميعاً ، نطلعهم عليه ، ونعرّفهم به ، ونضعُه بين أيديهم ، ليكونَ زادَهم في المطالعةِ والتثقُّف والمعاناة ، وما ينبني على ذلك بعد ، من دراسةٍ أو تقييمٍ أو استنتاجٍ ، أو استكمالٍ لمناحي التأريخ الأدبي ، أو سدٍّ لبعض الثغرات فيه .

هذا فضلاً عن أنَّ الزعم بأنَّ المختصين في غير حاجةٍ إلىٰ هذه التعليقات زعمٌ خاطئ. . فخدمةُ النصِّ تجعل صاحبه الذي عُنِيَ بإخراجِه أقدرَ في كثير من المرات ، علىٰ أن يكشفَ بعضَ جوانبه ، وأن يجلِّيَه ببعضِ ملاحظاته ، وكلُّنا ـ في أحيانٍ كثيرةٍ ـ عالةٌ علىٰ المحققين في النصوص التي يعملون فيها ، نستفيدُ مما ينتهون إليه ، ونُشارِكُ فيما أُتيحَ لهم أن يطَّلعوا عليه.

من أجلِ هذا لا يبدو أنّ من الخير أن نُكْرِهَ العملَ في إخراج النصوص علىٰ أنْ يتّخذَ طريقاً واحداً لا يجاوِزُه ، هو هذا الطريقُ الذي يؤثر إخراج التراث مجرَّداً من كل هذه الأعمال الأساسية في الهوامش والتعليقات والمقارنات والملاحظات. . فهذه المقارناتُ التي تردُّ بعضَ الروايات إلىٰ أصولها ، وتنبّه إلىٰ ما يكون من تداخلها أو تضاربها؛ وهذهِ التعليقاتُ التي تقفُ عند الأسماء في تشابكها واختلافها ، وتوضّحُ ما يكونُ من خطأ نسبتها أو صوابها؛ وهذه الهوامشُ التي تشيرُ إلىٰ تمازج القصائد واضطرابها ، وتتمهّل عند إيضاح بعضِ أبياتها ، وتثبت ما تجاوزه المؤلِّفُ ، أو تشيرُ إلىٰ ما أهمله ـ كلُّها عملٌ أساسيٌّ في فهم النص. . وهي لذلك عمل أساسيٌّ من واجب المحقّق حتىٰ يستقيمَ له التحقيقُ ، وحتىٰ يستقيمَ لنا نحنُ أن نفيدَ من عمله في ذلك ، فنشارِكُه جهده ، ننتفع بالذي لا يعرِفُ ، ونؤكّد ما نعرِفُ ، ونحاوِلُ أن نحلَّ العُقَدَ التي استوقفته.

أمّا أن نتركَ ذلك في مكانه ومناسبته ، آخذينَ بمبدأ الاقتصار علىٰ إخراجِ النصِّ مجرّداً ، مهملين كلَّ إثارة يبعثُها ، أو مشكلةٍ يطرحُها ، أو سؤالٍ يوحي به ، أو موقف يدعو إلىٰ معالجته ، فأمرٌ يبدو أنّه مخالفةٌ لطبيعةِ المرحلةِ التي نمرُّ بها ، وتحريفٌ لطبيعة التحقيق العلمي الذي ندعو إليه.

فأمّا أنّه مخالفةٌ لطبيعة المرحلة التي نمرُّ بها ، فذلك لأنَّ هذه المرحلة تقتضينا أن نضعَ هذا التراث مجلوّاً ، ومجرّداً ، مُيسَّراً له كلُّ سبيلٍ إلىٰ الفهم ، بين يدي الجيل الجديد ، الذي يستلم مفاتيحَ الدراسة الأدبية ، وتتفتح له ميادينها ، وتتجه إليها جهوده في طريقه إلىٰ التخصص بها والاقتصار عليها.

والذين يرقبون حركة تراثنا القديم ، نشراً ودراسة ، يلمحون أنَّ هنالك ـ لا شك ـ شيئاً من تخلّفٍ عن معاناة النصوص الأدبية ، وقعودٍ عن ممارستها ، ورغبةٍ عن مشقاتها؛ وأنَّ هناك ـ لا شك أيضاً ـ شيئاً من إقبالٍ علىٰ الدراسات الأدبية النظرية ، ورغبةٍ فيها ، وحرصٍ علىٰ تعجل الأحكام العامة حولها. . . وهناك نوعٌ من الانصراف إلىٰ واحدٍ من هذين الشقين. . . فالذين يُعْنَوْن بالنصوص إخراجاً ونشراً ـ أو كثرة منهم ـ لا يتفرّغون للدراسةِ الأدبية؛ والذين يقصرون جهودهم علىٰ الدراسة الأدبية ، يتجاوزون المراحلَ التي لَم تُنْشَرْ نصوصُها ، والشعراء والأدباء الذين لم تتح لدواوينهم أو آثارهم فرصة جلائها وعرضها.

ومن هنا كان من الخيرِ لمصلحةِ الدراساتِ نفسها ، ولمصلحةِ تراثنا ذاته ، أن نُعنىٰ بتقدمةِ نصوصِه علىٰ خيرِ ما يكونُ التقديمُ ، وأن نخرجَها علىٰ أكملِ ما يكونُ الإخراجُ ، صحةً وضبطاً ، وشرحاً وتعليقاً ، وتمهيداً وتذييلاً ، وتوقفاً عند كل ما يحسُنُ التوقّفُ عنده ، وإشارة إلىٰ كلِّ ما تجبُ الإشارةُ إليه.

وأمّا أنّه تحريفٌ لطبيعة التحقيق العلمي واستقامته ، فذلك لأنَّ الأصلَ في إخراج النصِّ ، أن ينظر المحقّقُ فيه وفيما حوله ، في بيئته الأدبية ، وفي بيئته الاجتماعية ، وأن يكشفَ إثاراته ، وأن يبين عن إشاراته ، وأن يدلَّ علىٰ المنازع التي صدر عنها ، وأن يتعرّفَ إلىٰ الناس الذين قيل فيهم. . ومثل هذا الجهد الذي لابدّ منه في التحقيق ، لابدّ منه بعد ذلك في الدراسة. . . فمن الخير إذاً أن يندمجَ هذان الجهدان معاً ، فيتولّىٰ محققو النصوص بالذات عملياتِ الشروح الأولىٰ هذه ، لكي تصبحَ جاهزةً للبحث الأدبي الصرف ، أو للبحث التاريخي الصرف ، أو لهما معاً. . فتُجلىٰ مضيئةً من غيرِ عتمة ، نيّرةً من غير لبسٍ ، مخدومةً خدمةً محرّرةً ، تتيحُ للبحثِ أن ينطلقَ بعد ذلك منها ، دونَ أن يضطر لمعاودةِ الجهد الذي بذله المحققون.

ولو كُنّا علىٰ شيءٍ من هذا التنظيم والتقسيم في معالجة التراث ، إحياءً ودراسةً ، أعني لو كان هنالك هؤلاء الفرقاء الذين يقتسمون هذا العمل: منهم

من يجمعُ الأصولَ ويعارِضُها ، ومنهم من يجلوها ويشرحُها ، ومنهم من يدرسُها ويستنتجُ منها. . لو كانت عندنا مثلُ هذه الفِرق التي تنهضُ بذلك كله ، علىٰ نهجٍ متصلٍ ، وتعاونٍ متكاملٍ ، وعلىٰ جهدٍ يلحقُ بعضُه بعضاً ، ويُتمُّ بعضُه بعضاً ، لكان من الممكنِ أن نجتزئَ بنشر النص ، وأن نحلَّ رأي أصحاب الطريق الآخر محلّه. . ولكننا نعلم أنَّهم قِلَّةٌ أولئك الذي ينذرون أنفسهم وضياءَ أعينهم لهذه المهمات ، قِلَّةٌ أولئكَ الذين يفوِّتون عن عَمْدٍ فُرَصَ الحياة المزخرفة ، يتجاهلون كلَّ إغراءاتها الملوّنة ، طيّبةً بذلك نفوسُهم ، ليقفوا جهدَهم علىٰ هذه الوعور ، حتىٰ يحيلوها دِماثاً[1] لينةً ، خالصةً لأدبهم وتاريخهم ولغتهم وتراثهم.

ألا تبدو الحاجةُ بعدَ هذه ماسّةً إلىٰ أن نعاوِدَ النظرَ في الطريقة التي يريدُ بها طائفةٌ من محققي النصوص أن يأخذوا بها أنفسَهم وزملاءهم ، وأن نفسحَ لواقعِ التراثِ نفسِه ولطبيعةِ النصوص المنشورةِ أن تلوِّن أعمالنا ، وأن تكيّفَها ، وأن تمنحَ هذه الأعمال الحريةَ التي يُخرَجَ بها كلُّ نصٍّ علىٰ النحو الذي يحقِّقُ أكبر الفائدةِ منه ، ويجنّب تكرار الجهد فيه ، ويؤدّي إلىٰ سهولةِ الكشف عنه ، ويساعد علىٰ أن يصلَ به إلىٰ مرحلةِ الدراسةِ ، دونَ أن يحتاجَ إلىٰ جهودٍ مكرورةٍ أُخرىٰ؟!».

* * *

١ـ مقدمة المرزوقي في شرحه لحماسة أبي تمام[2]

هذه المقدّمة التي قام بتحقيقها أستاذُنا ـ رحمه الله ـ هي أوّلُ عمل ينشره في مجلة (المجمع) ، كان ذلك سنة (١٩٥٢م) ، وهي السنةُ التي عُيّن فيها في كلية الآداب بجامعة دمشق ، ويلخّص أهميتَها بأنّها:

«مقدّمةٌ نقديةٌ بارعةٌ ، قلَّ أَنْ نظفَر في الخزانة العربية في باب النقد بمثل

---

(١) سهلة.
(٢) نشرها محققة في مجلة المجمع العلمي بدمشق سنة (١٩٥٢م)، المجلد ٣٧ ، ص٧٥ ـ ١٠٣.

دقّتها وتحديدها ، ولعلَّها وحدها هي التي عالجت عمود الشعر ، ووضعت معاييره».

يتحدّث المرزوقي في مقدمته هذه عن شرائط الاختيار للشعر ، وعمّا يتميز به النظمُ عن النثر ، وما يُحْمَد أو يُذَمُّ من الغلوِّ أو القصد ، وعن قواعد الشعر التي يجبُ الكلام فيها وعليها حتىٰ تصيرَ جوانِبُها محفوظةً من الوَهْن ، إذ لا يُحْكَمُ للشاعر أو عليه بالإساءةِ أو بالإحسانِ إلا بالفحص عنها ، وتمييز المصنوع مما يحوكه من المطبوع.

وقال : «إنَّ أبا تمام معروفُ المذهبِ فيما يقرضُه ، مألوفُ المسلكِ لما ينظمُه ، نازعٌ في الإبداعِ إلىٰ كلِّ غايةٍ ، حاملٌ في الاستعاراتِ كلَّ مشقةٍ. . . متغلغلٌ إلىٰ توعير اللفَظِ وتغميضِ المعنىٰ ، وهو عادلٌ فيما انتخبه في حماسته».

ثم يفصّل المرزوقيُّ القول في مذاهب نقاد الكلام في شرائط الاختيارات للشعر والنثر ، واختلافهم فيها ، وذلك لأنّ تصاريفَ المباني التي هي كالأوعية ، وتضاعيفَ المعاني التي هي كالأمتعة في المنثور اتّسع مجالُ الطبع فيها ومسرحُه ، وتشعّبَ مُراد الفكر فيها ومطرحُه.

ثم تحدّث عن عمود الشعر المعروف عند العرب ليتميّزَ تليدُ الصنعةِ من الطريفِ ، وقديمُ نظامِ القريضِ من الحديث ، ولتعرفَ مواطئُ أقدامِ المختارينَ فيما اختاروه.

إنّهم كانوا يحاولون شرفَ المعنى وصحته ، وجزالَةَ اللفظِ واستقامتَه ، والإصابةَ في الوصفِ ، ومن اجتماعِ هذه الأسباب الثلاثة كثرتْ سوائرُ الأمثال وشواردُ الأبيات ، والمقاربةُ في التشبيه ، والتحامُ أجزاء النظم والتئامها علىٰ تخيّر من لذيذِ الوزن ، ومناسبةِ المستعارِ منه للمستعارِ له ، ومشاكلةُ اللفظِ للمعنىٰ ، وشدّة اقتضائها للقافية حتىٰ لا منافرة بينهما.

فهذه سبعةُ أبوابٍ هي عمودُ الشعرِ ، ولكلِّ بابٍ منها معيارٌ.

اعتمد أستاذنا في تحقيقه لهذه المقدمة علىٰ أربع نسخ خطية ، وكان

قصده إخراج النصّ مضبوطاً واضحاً نيِّراً ، وكان له ما أراد.

وممّا تجدر الإشارةُ إليه أنَّ العلامة الكبير الشيخ الطاهر ابن عاشور علامةَ تونس قد أثنى علىٰ عمل الدكتور شكري وأيّده في مقالٍ له في مجلة المجمع ٢٩ ، ص ٣٨٧ ، سنة (١٩٥٤م).

* * *

٢ ـ خريدة القصر وجريدة العصر
قسم شعراء الشام[1]
للعماد الأصفهاني الكاتب المتوفى سنة (٥٩٧هـ)

مؤلّف هذا الكتاب هو عماد الدين محمد بن محمد الكاتب الأصبهاني ، من أكابر الكتاب ، نشأ في فارس ، وطوّف في بلاد العراق والشام ومصر ، ولقي فضلاءَها وأدباءَها ، صَحِبَ نور الدين الشهيد ، واستخدمه في ديوان الإنشاء ، وبعثه نورُ الدين رسولاً إلىٰ بغداد أيّام الخليفة المستنجد بالله ، ثم لحق بصلاح الدين بعدَ موتِ نور الدين ، فكان معه في مكانةِ وكيل وزارة ، وشهدَ حروبَ السلطانين مع الفرنجة ، ولمّا توفي صلاح الدين استوطن العمادُ دمشق ، ولزم مدرسته المعروفة بالعمادية ، وألّفَ المؤلفات الأدبية والتاريخية الكثيرة؛ منها: «الفتح القسي في الفتح القدسي» في فتوحات صلاح الدين ، و«البرق الشامي» و«خريدة القصر وجريدة العصر» الذي نتحدّث عنه في هذه الدراسة الموجزة.

وكتاب (الخريدة) حلقةٌ متوسّطةٌ في سلسلة من المؤلفات المتتابعة من قبلُ ومن بعدُ ، فالعمادُ جعل (الخريدة) ذيلاً علىٰ «**زينة الدهر**» للخَطيري الورّاق المتوفىٰ سنة (٥٦٨هـ) ، والخطيري جعل كتابه ذيلاً علىٰ «**دُمية القَصر وعُصرة أهل العصر**» للباخرزي المتوفىٰ سنة (٤٦٧هـ)، والباخرزيُّ جعل

---

(١) طبع الجزء الأول بالمطبعة الهاشمية بدمشق سنة (١٩٥٥م) ، نشره المجمع العلمي العربي بدمشق ، ويقع في (١٨+ ٦٩٠) صفحة و(٨) صور لمخطوطات الكتاب.

كتابه ذيلاً علىٰ «**يتيمة الدهر**» للثعالبي المتوفىٰ سنة (٤٢٩هـ)، والثعالبيُّ جعل كتابه ذيلاً علىٰ كتاب «**البارع**» لهارون بن علي المنجّم المتوفىٰ سنة (٢٨٨هـ).

ثم إنّ العماد ذيّلَ (الخريدة) بكتابه «السيل علىٰ الذيل» ثم غبرت قرونٌ جاء بعدها أبو العباس الخفاجي المتوفىٰ سنة (١٠٦٩هـ)، فألف كتابه «**ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا**» واختار فيه لشعراء الشام ومصر والمغرب وجزيرة العرب، ثم أتمَّ عمل الخفاجي عالمان: أوّلهما المحبِّي صاحب «**خلاصة الأثر**» المتوفىٰ سنة (١١١١هـ) في كتابه «**نفحة الريحانة ورشحة طلا الحانة**» والثاني علي المدني المعروف بابن معصوم في كتابه «**سلافة العصر في محاسن الشعر بكل مصر**».

«وكتابُ (**االخريدةِ**) ـ والقولُ للدكتور شكري رحمه الله ـ **من خيرِ كُتُبِ العماد، أنفق في جمعها فترةً طويلةً من حياته الحافلة، مذ كان يدرّس في النظامية في بغداد، واستعان عليها بأسفارِهِ وصِلاتِهِ ومكانته من السلطان، فلقي العددَ الكبير من العلماء والمحدّثين والرواة، ووقف علىٰ الجملة الطيبة من الدواوين، واتصل اتصالاً مباشراً بكثير من شعراء العصر وأدبائه، فشافههم، وسمع منهم، وكتبوا له، واستكتبهم، ودارت بينه وبينهم رسائلُ وقصائدُ، وظفر بالمجموعات الشعرية التي أعدّها معاصروه والسابقون عليه، وتوفر له من ذلك كله ما ساعده علىٰ أن يذكر «الشعراء الذين كانوا بعد المئة الخامسة إلىٰ سنة ٥٧٢ هـ**»[١].

وليست قيمةُ (الخريدة) في هذه الفترة الفسيحة من الزمان فحسب وإنّما قيمتُها كذلك في هذه الرقعة الفسيحة من المكان، فهي لا تقتصر علىٰ قطر من أقطار الإسلام بعينه، ولا علىٰ شعراء دولةٍ من الدول بذاتها، وإنّما تجمعُ شعراء العالم الإسلامي كله: شعراء العراق، والعجم، والشام، والجزيرة، ومصر، والمغرب.

---

(١) هذا ما ذكره ابن خلكان في ترجمة العماد، علىٰ أنّه توجد بعضُ التراجم القليلة لمن عاشوا في غير هذه الفترة.

و(الخريدة) في أربعة أقسام أساسية: **الأول**: قسم العراق، **والثاني**: العجم وفارس وخراسان، **والثالث**: الشام، **والرابع**: مصر وصقلية والمغرب وبلاد الأندلس.

وقد طُبِعَ قسم **شعراء مصر بتحقيق** الدكتور أحمد أمين والدكتور شوقي ضيف والدكتور إحسان عباس، طبعته لجنة التأليف والنشر سنة (١٩٥١ـ١٩٥٢م)، وطبع المجمع العلمي العراقي: **قسم شعراء العراق** بتحقيق الأستاذ محمد بهجة الأثري وغيره.

يفتتح العماد **قسم شعراء الشام** بذكر عدّة من شعراء بلاد الساحل[١]، ثم يجاوِزُ ذلك إلىٰ شعراء دمشق، والقدس، فشعراء حمص، وحماة، وشيزر، فالمعرة، وحلب، ومنبج، وحرّان، ثم يعقِدُ باباً لشِعراء جزيرة بني ربيعة، وديار بكر، وما يجاورها من البلاد، وينتهي إلىٰ ذكر محاسنِ الحجاز واليمن.

وتعود صلةُ الدكتور شكري رحمه الله بالخريدة إلىٰ الفترة الممتدة بين سنوات (١٩٤٨ ـ ١٩٥٠م)، حين كان في القاهرة يعدُّ رسالة الدكتوراه، وفي هذه الفترة كان يستمع إلىٰ ما يدورُ بين الأستاذ مظفر سلطان وبين الأستاذ أمين الخولي من نقاشٍ وحديثٍ حول دراسة الأستاذ مظفر عن العماد الأصبهاني[٢]. وفي أواخر هذه الفترة كان الدكتور إحسان عباس يتردد إلىٰ معهد الدراسات في القاهرة، ومعه تجارب الطبع لكتاب (خريدة القصر لشعراء مصر) حين ذاك استقرّ في نفس الدكتور أن يشارِكَ في نشر الخريدة.

وبعد عودته إلىٰ دمشق وجد المجمع العلمي العربي يهمُّ بنشر الخريدة، ووقع تكليفه بذلك من نفسه الموقع الطيب، وصادف هوًى متمكناً، ولقي

---

(١) هذه البدايةُ بشعراء بلاد الساحل كانت قبلَ أن يتوصّل أستاذنا الدكتور شكري ـ رحمه الله ـ إلىٰ نسختي فاس لبداية قسم شعراء الشام الذي يبدأ بمقدمةٍ نقدية للعماد عن شعراء الشام.

(٢) وقد نشرت هذه الدراسة وزارة المعارف السورية سنة (١٣٧٠هـ = ١٩٥١م).

من الأستاذ رئيس المجمع محمد كرد علي كلَّ تشجيع ، ثم تابع الأستاذُ خليل مردم مسيرةَ المجمع برئاسته ، ولقي الدكتور شكري أكبر التشجيع وأقوىٰ النُّصرة علىٰ متابعة العمل.

وصدر الجزء الأول من الخريدة في أواخر عام (١٩٥٥م)، واعتمد الدكتور المحقق علىٰ خمس مخطوطات تتفاوت قيمها ، ولكنَّ أجلَّها مخطوطةُ المكتبة الوطنية بباريز.

في هذا الجزء الأول من قسم شعراء الشام ترجماتٌ ومختاراتٌ لخمسة وأربعين علماً: من شعراء بلاد الساحل الشامي (٣) وشعراء دمشق (١٠) وعلماء دمشق والقدس (١٠) وفضلاء دمشق (٨) وفضلاء حمص (٢) وفضلاء حماة (٢) وبني منقذ من شيزر (١٠) ، وفي تضاعيف هذا الجزء فصولٌ ورسائِلُ نثرية طويلة كرسالة: «النسر والبلبل» للمهذّب الدمشقي ، ورسالة في الصيد والشراب للأمير يغمر بن عيسىٰ.

أمّا عن عمل أستاذنا في هذا الجزء فيحدّثنا عنه الأستاذ عبد الهادي هاشم رحمه الله بقوله: «أنفق المحقّق الفاضلُ ، مشكوراً محموداً ، الكثيرَ من الجهد والوقتِ في إخراجِ هذا الجزء للناس ، وطبعه طبعةً علميةً نقديةً منقحةً صحيحةً ، فجمع ما تيسّر له من أصول الكتاب ، وقارن بين الروايات ، وتخيّر أفضلَها ، وضبطَ الكلماتِ التي يتوقَّفُ جمهور القراء عندها ، وشرح معنى الغريب منها ، وترجم لمن وردتْ أسماؤهم في المتن ، واستند في ذلك إلىٰ المراجع العربية الموثوقة ، فيسّر بذلك قراءة هذا السفر الثمين ، وهوّن الإفادة منه علىٰ أيسر وجه وأهدىٰ سبيل ، ووطّأ المحقِّق بمقدمةٍ تعرِّف بالكتاب ومؤلفه ، وتصفُ الأصول التي اعتمدها ، تقفوها رواميز هذه الأصول ، ثم ألحق بهذا الجزء مستدرَكاً أودَعه ما بدا له فيه رأيٌ مستأنَفٌ بعد أن سبق طبعه ، وعقّب علىٰ ذلك بستّة فهارس لأبوابِ هذا الجزء ، وأسماءِ شعرائه ، والمختارِ من منظومه ومنثوره ، وللأماكن ، والأعلام ، والمراجع ، والكتب الواردة في متنه وحواشيه. وَوَضْعُ فهارسَ متقنةٍ وافيةٍ لمثل هذا الكتاب الوسيع أمرٌ محتّم في كلِّ طبعة نقدية ، ولا يقدّرها حقَّ

قدرها إلا الباحثون المتتبعون ، ولا يعرِفُ عناءَ وَضْعِها علىٰ الوجه الأكمل إِلاَّ من اضطلع بمثل هذا الأمر ، وكابدَ مشقاته ، وفهارسُ هذا الجزء متقنةٌ وافيةٌ ، تدلُّ علىٰ الدّقةِ والدأبِ والتبصر» .

وأما منهجُ أستاذنا في تحقيقه فكان :

١ ـ اعتمد النسخة الباريسيةَ أصلاً ، وأغلبُ ما اتّجه إليه إثباتُه في المتن ما رجّحه من النصِّ ، ثم ذكر في الحاشيةِ الرواية المرجوحة عنده .

٢ ـ استعان بمصادر ومراجع عندما وجد أنَّ الأصول التي بين يديه لا تسعفه وحدها ، فرجع إلىٰ (ديوان الغزي) ، و(ديوان أسامة بن منقذ) ، و(تاريخ دمشق) لابن عساكر ، و(سير أعلام النبلاء) ، و(تاريخ الإسلام) للذهبي ، و(وفيات الأعيان) لابن خلكان ، و(الروضتين في أخبار الدولتين) لأبي شامة المقدسي وغيرها .

٣ ـ وعن إيضاح النصّ والتمهيد له فقد حرص أن يترجِمَ للأعلام التي يمرُّ عليها ، وأن يربط بين هذه التراجم وبين الموضوع ، وأن يذكر بعض الروايات التي عثر عليها في مناسبة القصيدة .

٤ ـ كان للعماد طريقةٌ خاصة ومذهبٌ معيّنٌ في الاختيارات الشعرية ، فكان الأستاذُ يشير إلىٰ الأبيات التي أهملها العماد ، كما يشيرُ إلىٰ الخلاف في الترتيب بقصد الإيضاح .

٥ ـ ممّا عُرف عن أستاذنا تواضُعه ، وحسنُ خلقه ، وهذا ما نجده في مؤلفاته وتحقيقاته ، ومن هذا التواضع قوله في مقدّمته لتحقيق هذا الجزء : **«ولستُ أزعمُ أنّي فعلتُ كلَّ ما يُستطاع ، أو كلَّ ما أستطيعُ فعله . . . فالذين يعانونَ هذا العملَ ويتمرّسون به ، والذين يقدّرونه ويحسنون تقديره ، يدركون أنَّ الأُولىٰ لا يَقْدر أن يقولها أحدٌ مدىٰ الحياة ، وأنْ لا سبيل إليها ، لأنَّ ما يغمض عليك اليوم يتّضح لك غداً ، وما يستغلِقُ في ساعةٍ من ساعاتِ الليلِ ينفتحُ في ساعةٍ من ساعاتِ النهارِ ، وما لا تسعِفُك به مناسبةٌ تسعِفُكَ به مناسبةٌ أخرىٰ ، وما لا تراه في هذا الكتاب ، أو تراه علىٰ وجهٍ ، قد تراه في كتابٍ**

آخر ، وقد تراه علىٰ وجه ثانٍ ، غير أنَّكَ لا تملِكُ أن تجعلَ وقتَكَ كلَّه وعمرَكَ كلَّه وقفاً علىٰ كتاب ، وقصاراك أن تبذلَ الجهدَ الذي تستطيعُ في ظروف الزمان أو المكان أو العمل الذي أنتَ فيه» .

والجديرُ بالذكر أنَّ أستاذنا قد واجه مشقّات كثيرة في تحقيق هذا الكتاب ، فالكتابُ يضمُّ تراجم لعددٍ من الشعراء ، لكلٍّ أسلوبُه ومميزاتُه ومنهجُه ، ففيهم الحكّامُ والفقهاءُ والمحدثون ، والكتابُ يضمُّ أيضاً مختاراتٍ من النثر الذي يخضع لكلٍّ الذي خضعَ له نثر القاضي الفاضل ومَنْ جاء بعده من تغليب الصنعة حتىٰ لا تكادَ تعثر علىٰ المعنىٰ إلا بجهدٍ وتأوُّلٍ .

ويختم أستاذُنا مقدمته بالشكر وفاءً لرئيس المجمع علىٰ ما كان من توجيهه ، ولمن أعانه علىٰ ظهور هذا العمل .

* * *

ثم صدر الجزء الثاني من (الخريدة)[1] بعد أربع سنوات من صدور الجزء الأول ، ويعودُ السبب في ذلك إلىٰ ما يتّصل بالكتاب ، وما يضمه من تراجم أدباء تختلِفُ مواطنهم وبيئاتهم ، ويتباينُ شعرهم ونثرهم ، واضطر أستاذُنا أن يكون جهدُه تبعاً لهذا التمايز والتباين ، موزّعاً بين هذه الكثرة من البيئات والأماكن ، وهذه الوفرة من الأساليبِ والأشكال ، وهذا العديد من الأمراء والسلاطين ، وهذه المجموعات من الأفرادِ والبيوت ، التي طوىٰ عليها العمادُ هذا القسم من الخريدة .

وهذا الجزء من الكتاب لا يشاكِلُ الجزءَ السابق فحسب في أنّه يتحدّث عن شعراء بأعيانهم يجلوهم ، ويعرض شعرهم ، وإنّما ينفرِدُ في أنّه يتحدّثُ عن أسرٍ كاملةٍ فشا فيها الشعر ، ودار هذا الفنُّ من القول بين الأجدادِ والآباء ، والأبناء والأحفاد ، حتىٰ أصبحَ تراثاً يزدادُ مع الأيام ، فإذا نحن أمام مجموعاتٍ من الشعر ذاتِ لونٍ معين ، وأمامَ مجموعةٍ من الشعراء لا تربطهم

(١) طبع بالمطبعة الهاشمية بدمشق عام (١٣٧٨هـ = ١٩٥٩م) ، نشره المجمع العلمي العربي بدمشق ، ويقع في ٥٥٩ صفحة .

قرابةُ الأدب فحسب ، وإنّما تربطهم قرابة النسب ، وهذا ما جعل أستاذنا يندفع إلىٰ ميادينَ مختلفة في التنقيب للوصول إلىٰ مصدر يجدُ فيه بغيته ، وهذا الأمرُ لا يستطيعُ تحقيقه إِلاَّ أصحابُ الدُّرْبة من المحققين المتقنين الكبار. وكان هدفُ أستاذنا من هذا هو تقريب تراثنا القديم ، وتيسير الانتفاع به ، ووضع نتائجه موضع النظرة السريعة القريبة.

يضمُّ هذا الجزء تراجمَ ومختاراتٍ شعرية ونثرية لأهل المعرّة من بني سليمان التنوخيين ، وأولادِ أبي المجد الأول ، وأولادِ علي ابن أخي أبي العلاء ، وجماعةٍ من أهل معرة النعمان ، وتراجم لبني الدويدة ، وبني أبي حُصين ، ثم جماعة أخرىٰ من أهل معرة النعمان ، ومن بني عبد اللطيف ، وبني الحواري ، وبني المهنا ، وبني المهذّب. وتراجم الأدباء من حلب ، ومن بني جرادة ، وتراجِمَ لجماعةٍ متفرقين ، ثم تراجم لأدباء حرّان ، والرقة ، ورحبة مالك. وباب في ذكر محاسن جزيرة ربيعة ، وديار بكر ، وما يجاوِرُها من البلاد ، ثم تراجم لأدباء المَوْصِل ، ويخصُّ آل الشهرزوري بفصل خاص ، ويترجم بعد ذلك لجماعة من أهل سنجار ، ونُصَيْبِين ، والجزيرة ، وفنك ، وديار بكر ، ولجماعة من الأكراد الفضلاء.

ويتميّزُ هذا الجزء بكثرة النصوص النثرية إلىٰ جانب الشعر ، وهذه النصوص لا نعثر عليها في كتابٍ آخر ، وهي تضمُّ إضافةً إلىٰ نثر العماد نثر جماعة من الأدباء والعلماء والوعاظ والخطباء كأبي المجد الثاني ابن أخي أبي العلاء ، والحصكفي والفارقي محمد بن عبد الملك ، ومثلُ هذه النصوص التي تمثّل أوجهاً من النثر الفني مادةٌ خصبةٌ لدراسة النثر في هذا العصر من نحو ، وتطوره من نحوٍ آخر ، منذ سيطر أسلوبُ المقامات في بعض أشكاله ، وطريقة القاضي الفاضل في بعض أشكاله الأخرىٰ. وهذه النصوص جديرةٌ كذلك أن يُستفادَ منها في دراسة الحياة الاجتماعية ، والتعرف لبعض معالمها ، وتعطي أيضاً صورةً واضحةً عن أدب الحياة الدينية في أشكاله النثرية.

أما عن النهج في تحقيق هذا الجزء فذلك هو الذي فعله أستاذُنا في الجزء

الأول ، تحرّىٰ وَجْهَ الصحّة ، وأثبتَ الخلاف بين النسخ ، وشرحَ ما وقعَ في نفسِه ضرورة شرحه ، ومهّد للنص حيث يجبُ التمهيدُ من حياة صاحبه ، أو من أحداثِ التاريخ ، وساقَه ذلك إلىٰ التراجم والتعليقات والملاحظات التي يجدُها القارئُ في الهوامش . . ولتحقيق ذلك استعانَ بكلٍّ ما وقع عليه من المصادر ، وأوجز أو أشار إلىٰ النقول عن الكتب المطبوعة المتداولة ، وكانت له وِقفةٌ متأنيةٌ عند المصادر المخطوطة ليس في المكتبة الظاهرية ومكتبة المجمع العلمي العربي فحسب ، وإنّما استفاد من المكتبات الخاصة كمكتبة الأستاذ أحمد عبيد ومكتبة الدكتور يوسف العش .

أمّا الفهارس فقد نهج في وضعها نهجه في فهارس الجزء الأول ، غير أنّه لم يقف عند أسماء الأعلام ، وإنّما تجاوزها إلىٰ أسماء آبائهم وأجدادهم مهما يطل نسبهم ، وإلىٰ صناعتهم ، وألقابهم ، وكناهم ، وشهرتهم ، وإلىٰ مدنهم ، ومذاهبهم ، كلُّ ذلك مع الإحالات لكي يسهّل التعرّف إلىٰ الأسماء ليقع الباحث علىٰ طلبته ، وأخيراً يقول أستاذُنا عن عمله :

«لستُ أدعي لعملي في هذا كله الكمالَ والدقّة ، فما يملك الذين يعملون في التراث العربي ممن آتاهم الله خشيةَ العلماء ، أن يُخْطِروا ذلك علىٰ بالهم ، بَلْه أن يطلقوا به ألسنتَهم ، فلا يزالُ أكثرُ هذا التراث مُغَيَّباً أو في حكم المغيَّبِ ، ولعلّ كل الذي أقوله : إنّي أتمنى أن أكون قد وفَّيت هذا العمل حقه بالقدر الذي ملكتُ من جهد ، والمدىٰ الذي أنفقتُ من وقت ، والحدّ الذي استطعتُ من وسائل . . إنّ بعض الجداول مثلاً قد يكون محاولةً أولىٰ في هذا السبيل ما ظفرت فيها بأكثر من هذا القدر الذي وصلت إليه ، ولكنني مطمئنٌّ إلى أنَّ الباحثين الذين سيتعاقبون في هذا المجال سيغنون هذا العمل أو يزيدون في ضبطه» .

* * *

ثم أصدر الجزء الثالث من (الخريدة)[1] بعد خمس سنوات من إصدار

(١) طبع في المطبعة الهاشمية (١٣٨٣هـ = ١٩٦٤م) ، نشره المجمع العلمي العربي بدمشق ، ويقع في ٥٩٥ صفحة .

الجـزء الثـاني ، ويضمُّ هذا الجزء من قسم شعراء الشـام ترجماتٍ ومختارات لطائفةٍ من شعراء اليمن وتِهامة والحجاز ، اختار لهم بعضَ هذا الشعر ، وروىٰ طرفاً من أخبارهم .

وحين أخذَ العمادُ يقيم كتابه هذا ، ويجمع مختاراته ، كان في ذهنه أن يكسِّرَ الكتابَ علىٰ هذه الأقسام الأربعة الكبرىٰ : **قسم العراق** ، **وقسم العجم وفارس وخراسان**، **وقسم الشام**، **وقسم مصر وصقلية والمغرب وبلاد الأندلس** .

ولا يبدو للباحث أنّ وراء هذا التقسيم هدفٌ واضح ، هل كان القصد جانبَ الحياة السياسية ، أو الإنتاج الشعري ، أو الخطوط الجغرافية الكبرىٰ التي تَقسم العالم الإسلامي إلىٰ جناحيه العريضين : المشرق مما يلي العراق ، والمغرب مما يلي مصر ، ثم تتوقف عند قلب هذا العالم الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق؟! .

بعضُ هذه الجوانب كان موطن تنبّه العماد وتعليله ، وقد لجأ إلىٰ مثل هذا التعليل حين بدأ هذا الجزء بذكر محاسن فضلاء الحجاز واليمن فقال : «وقد ألحقتُ بالقسم الثالث ـ يريد قسم الشام ـ شعراء الحجاز وتهامة واليمن ، ورأيتُ تأخير هذا الإقليم ـ يريد الحجاز ـ الذي هو أَوْلىٰ بالتقديم ، صيانة لمنزل الوحي ، ومهبط الذكر القديم ، عن كلام البشر النظيم ، فتيمَّنتُ في خاتمة القسم الثالث باليمن ، ونظمتُها في سلكه ، فمُلكها الآن لمالك الشام وتوءم ملكه ، فإنّها معدودةٌ من مملكة بني أيوب الذين عصموها من النوائب العُصل النيوب ، وملؤوها بالمفاخر ، وفرَّغوا عِيابها من العيوب ، لقد تملأت اليمن يُمناً ، وعادت عَدَنُها عَدْناً ، وطلع بها شمسُ الدولة شمساً ، أبدىٰ نور نَجْدها وغَوْرها ، وجَلا بسنا إحسانه وعدله دَيْجورَ جوْرِها ، فآثرتُ إيرادها بين الشام ومصر واسطةً لعقدهما ، ورابطةً لعَقدهما» .

ووجد أستاذُنا ـ رحمه الله ـ أنَّ قيمة هذا الجزء تتمثّل في ثلاثة أنواع من القِيَم : **القيمة الأدبية** ، **والقيمة التاريخية** ، **القيمة الذاتية** في الدلالة علىٰ عمل العماد في التأليف ، وأسلوبه في الاختيار والجمع ، ثم خلص إلىٰ أنّ هذه

القيم الثلاث لا تتبدىٰ في هذا الجزء وحسب ، ولكنّها تتبدىٰ كذلك في كل أقسام الخريدة.

● **أما القيمة الأدبية**: ففي الخريدةِ شعراءُ مختلفون ، فيهم المجوّد ، وفيهم المقصّر ، منهم المشهور ، ومنهم المغمور ، وإنَّ القارئَ ليمرُّ بصفحات ومختارات فيتمنىٰ لو أنَّ العماد تجاوزها ، ويتوقَّفُ عند صفحات ومختاراتٍ فيشكرُ للعماد صنيعه. . وفيما بين دفتي هذا الكتاب يظفر القلب بشعراء وكتّاب كعُمارة والعيدي وابن القم وابن ظفر الصقلي ، ويطفو علىٰ ساحة الرؤية القريبة الدانية أسماء شعراء ليس لهم إلىٰ القلب سبيلٌ.

فإذا جاوزنا جانبَ الإجادة والإبداع في المختارات الشعرية ، كان للكتاب قيمته الأدبية من نحوٍ آخر ، ذلك أنَّ العمادَ استطاعَ أن يقدّم لدارسي أدب القرن الهجري السادس ثروةً كُبرىٰ من تراجم شعراء ، ومن شعرهم الذي لا نجده في غير الخريدة.

● **القيمة التاريخية**: الخريدة ليست مجموعةً شعريةً فحسب ، ولكنّها مرجع أساسي من مراجع رجال هذا العصر ، لأنّها تنطوي علىٰ تعريفٍ بناس لا نعرفهم إلا من خلالها ، ويؤكّد أستاذُنا ذلك فيقول:

«**إنّ الخريدةَ وفي هذا الجزء خاصةً كذلك وفوق ذلك كتابُ تأريخ ، وكشفٌ تاريخي رائعٌ للمنطقتين الكبيرتين من مناطق الجزيرة العربية: الحجاز واليمن**». ويقول توضيحاً لذلك:

«**وشدّ ما يروعُ القارئَ في هذا الجزء ما يتكشّف له من أمر اليمن بخاصةٍ. . . شدّ ما يروعه أن يلمحَ علىٰ يُسْر أو عسْر ، من وراء ضبابٍ صفيقٍ أو من وراء سحابٍ رقيقٍ ، كُلَّ معالم البيئة اليمنية ، أن يراها هذه الرؤية الشعرية الخاصة ، أن يجد نكهة اليمن في اعتدادِها وعتادِها ، في مآثرها ومفاخرها ، في حصونها وقصورها ، أن يتذوّق طعمَها في خلافاتها وخصوماتها. . . أن تتكشَّف له بيئتُها المادية بجبالها ومعاقلها ، بشجرها وحجرها ، بمساجدها وحصونها ، وأن تتكشَّفَ له بيئتُها المعنوية: بفرقها ومذاهبها ، بِشِيَعِها وأحزابها ، بأُسرِها الحاكمة ، وأسرِها المتطلعة إلىٰ**

الحكم ، بقضاتها وفقهائها ، بالمرأةِ التي تحكم ، برنّة الفخر التي لا تفارِقُ اليمنيَّ ، وبرنّة الثأر.

والحقُّ أنَّ الشعر اليمني يقدّمُ هذه النبعة الثرة الصافية لتأريخ اليمن بصورة غير مباشرة ، ومن المفيدِ والممتعِ والأجدىٰ في كتابة التاريخِ العربي أو في إعادة كتابته الرجوع إلىٰ الشعر الذي واكبه صاحبه ، وكان ظلّه ، ففي دراسة هذا الشعر تكمن ثروة من الجزئيات التاريخية لا ثمن لها.

وإذا كانتْ بعضُ الجماعاتِ الإنسانيةِ الأخرىٰ تستطيعُ أن تكتبَ تاريخَها من وراء أحداثها ، فإنّ الجماعة الإسلامية لا تستطيعُ أن تكتب هذا التاريخ كاملاً حافلاً ، ينبعث الضوء من كلِّ جانب فيه إلا حين يشتركُ الشعر مع الأحداث ، وتنحلُّ عقدةُ القصيدة لتتكشفَ عن كثير من الخيوط الدقيقة الخفية وراءها. بل لعلي لا أجنحُ إلىٰ غلوٍّ إن قلتُ: إنَّ اليمن خاصّةً في حاجةٍ إلىٰ هذا التعاون والمزاوجة في كتابة تاريخها. . . وليس أدلّ علىٰ ذلك من سيرةِ «عُمارة» التي كانت في واقعها مزيجاً رائعاً من الأحداث والشعر.

إنَّ قيمة (الخريدة) التاريخية إذاً ليست في أنّها هذا الكشف التاريخي الرائع الكامل عن جانب من جوانب الحياة العربية في اليمن بخاصة ، وإنّما هي بالإضافة إلىٰ ما قدّمتُ من حديثٍ عن قيمتها الفنية ، تحقيق لهذا التكامل الرائع بين التاريخ والأدب ، وهذا الاقترانُ الكامل المثمر بينهما»[1].

● **القيمة الذاتية**: وهي التي تتصل بالعمادِ نفسه ، وتعبِّر عن أسلوبه في التأليف ، ومنهجه في الجمع ، وطريقتِهِ في تزويد (الخريدة) بهذا الفيض من المختارات ، حتىٰ آلت هذه المجموعةُ الضخمة التي لا نجد نظيراً لها في المجموعات الشعرية المماثلة ، وسيرىٰ المتتبّع لهذا الجزء أنَّ الأصفهاني اعتمدَ اعتماداً كاملاً علىٰ كتاب عمارة «المختصر المفيد لأخبار زَبيد» أو علىٰ القسم الشعري منه ، والجديرُ بالملاحظة هو أسلوب العماد في الاقتباس من هذا الكتاب. وهناك جوانبُ أخرىٰ اعتمد عليها العماد كاللقاء والمشافهة ،

---

(١) **قلت**: وهذا يقوي حجة دارس الأدب حسب العصور كشوقي ضيف وأمثاله (ن).

والاستعارة والاقتباس وتنظيم هذا كله ، وترتيبه علىٰ نحو ما .

نهج العمل في تحقيق هذا الجزء :

١ ـ التمهيدات التاريخية: القيم الثلاث للخريدة: الأدبية والتاريخية والذاتية ، كان لها أثرٌ في طريقة إخراجه ، وأسلوب تحقيقه ، وبوجه خاص القيمة التاريخية ، ذلك أنَّ هذا التمازجَ بين الأدب والتاريخ ، وهذا التكامُل بينهما دفع أستاذَنا إلىٰ أن يتّبع أسلوباً جديداً في إخراج هذا الكتاب ، تمثَّل في هذه السلسلة من التمهيدات التاريخية التي قدمها بين يدي هذه المجموعة أو تلك من شعراء الخريدة ، وهذه التمهيدات كثيراً ما تكونُ توضيحاً لأحداثٍ خافيةٍ ، أو أسماء موجزة ، وكثيراً ما يكونُ هناك هذه الصلات المتصلة بين الأسماء والأحداث .

٢ ـ جداول الأسر: صنعُ هذه الجداول دفعته إليها رغبتُه في توضيح الأسماء ، وتيسير التعرف إليها ، وإدراك صلة المتأخّر بالمتقدّم ، والسلف بالخلف ، فرسم جداول لبعض الأسر الشريفة ، أو الأسر الحاكمة ، معتمداً علىٰ ما في كتب التراجم والتاريخ والأنساب .

٣ ـ هوامش النص: إنّ الأمر في الهوامش لا يعدو ما اتبعه أستاذنا مِن سَنَن في الجزأين السابقين: ضبط النص ، إثبات خلافات ما بين النسخ ، وشرح ما بدا له أنّه في حاجة إلىٰ شرحٍ من غريب وتراجم ومواقف وحوادث .

٤ ـ الفهارس: نهج فيه أستاذنا منهجه في الجزأين السابقين ، ففهرس للأعلام موضحاً الاسم والكنية واللقب والشهرة والمذهب والمهنة مع ذكر نسب الأعلام كاملاً .

* * *

وفي عام (١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م) أصدر الجزء الرابع من (الخريدة)[1] ،

---

(١) طبع بالمطبعة الهاشمية بدمشق سنة (١٣٨٨ هـ= ١٩٦٨م)، نشرهُ مجمع اللغة العربية ، ويقع في (٢٨٨+٤٨) صفحة .

ويتضمن بداية قسم شعراء الشام شعراء دمشق والشعراء الأمراء من بني أيوب من (الخريدة). وعن هذا الجزء يحدّثنا أستاذُنا ـ رحمه الله ـ عن مدى سروره لهذه الفرصة النادرة في العثور علىٰ قسمٍ من خريدة الشام ما عرفه من قبلُ في كلِّ النسخ التي تجمّعتْ لديه، وهو قدرٌ جيّدٌ من القسم الشامي من مقدمته.

ولم يدُرْ له بخلدٍ، ولا كان منه علىٰ بالٍ أنَّ سفره إلىٰ المغرب وإقامته فيها في العامين الدراسيين من عام (١٩٦٤م) إلىٰ عام (١٩٦٦م) في كلية الآداب من جامعة محمد الخامس سيجلو له طرفاً مجهولاً من خريدة الشام. ولكنّها المفاجأةُ ـ وليست غريبةً مع الذين يعيشون مع المخطوطاتِ العربية ـ لأنّ هذه المخطوطات مبعثرةٌ بعثرةَ الحياة العربية، مشتتة تشتتها. وكم كانت فرحتُه كبيرةً عندما اكتشف هذا الجزء ويحدّثنا ـ رحمه الله ـ عن ذلك بأدبه وأسلوبه المعروفين فيقول:

«وذاتَ يومٍ كنتُ أهبطُ «فاس» من ضاحيتِها الجديدة التي تقعُ علىٰ منسبط من الأرضِ إلىٰ فاس المدينة الأمّ، التي تتشابك طرقُها، وتنحدِرُ من هذه الوجهة أو تلك حتىٰ تتلاقىٰ في سُرّةِ المدينة، في القرويين، وكان في نيّتي أن أزورَ المسجد الجامع أصلّي فيه، ثم أزورَ المكتبة أقضي فيها سحابةَ اليوم. وتنقّلتْ بي خطاي حتىٰ انتهيتُ إلىٰ المكتبة، وفي المكتبة كنتُ أجلسُ إلَىٰ عالمِ مكتبة القرويين وشيخها وقيّمها الأستاذ العابد الفاسي، وكان يتحدَّثُ إليَّ في ودٍّ عن بعض ما في المكتبة من نفائس وكنوز، وكنتُ أحمِلُ من دمشق رقماً لنسخة مخطوطة من الخريدة، وهو رقمٌ كان عرفه زميلي الأستاذ سعيد الأفغاني إذ كان في زيارةٍ قصيرة للمغرب من قبلُ في أعوام سابقات... ولكن شدَّ ما فوجئت حين وقعتُ علىٰ مجلّدات مختلفاتٍ من الخريدة، بعضُها من قسم المغرب (مصر والمغرب وصقلية) وبعضُها من قسم الشام، وبعضُها من قسم العجم الذي كنتُ ألملم نسخَه من هنا وهناك.

ولم تكن هذه وحدَها المفاجأة الغنيّة المذهلة التي أمدتني بمتعة لا حدّ لها، وتركتني كما لو كان لي جناحان خفيان أطيرُ بهما منتشياً، وأحلِّق في آفاق ما قدَّرت أن يتاح لي أنْ أحلِّق بها، وإنّما كانت المفاجأةُ الغنية المذهلة

التي أطلقتني وقيّدتني ، ارتفعت بي وصدمتني أنني وجدتني أمام مقدّمةٍ لقسم شعراء الشام ، الذي كنتُ أحسبني قد أنجزتُ نشره ، تتضمن شعراء دمشق ، وفيهم شعراء بني أيوب ، وهي مقدِّمةٌ ليست في أيةٍ من النسخ التي كنتُ اعتمدتُ عليها» .

ثم يحدّثنا عن عمله في هذا الجزء فيقول :

«وطال ترددادي خلال عام دراسي كامل علىٰ مكتبة القرويين، تلفني أصواتُ مطارق سوق النحاسين حتىٰ لآلفها، وأحسُّ بالضجة إن سكت واحدٌ منها .

وقد كانت النسخةُ التي أعمل عليها نسخةً سقيمةً ، لم ينفع فيها أني أَلِفْتُ الخط المغربي ، ولم ينفع فيها كذلك أن أكونَ إلىٰ جانب الأستاذ الفاسي أطلبُ عونه علىٰ ما استبهم عليَّ ، وأشاركه استفتاح ما استغلق من حرفٍ أو كلمةٍ أو بيت ، لم ينفع فيها أني صبرت وصابرت ، وأني أفردتُ لها الجهد ، ونذرت لها الوقت ، وأني قَصَرْتُ عليها كل ما أملك من ذَيْن[1] ، ذلك أنَّ النسخة كانت شراكةً بين الأرضة والتلف. . . ومع ذلك كان لابدَّ من العمل عليها ، وأنفقتُ في هذا النحو ما يقربُ أن يكونَ عاماً كاملاً» .

ثم يحدثنا الدكتور ـ رحمه الله ـ في مقدمته الممتعة النافعة هذه عن مفاجأة أخرىٰ فيقول :

«أليستْ هي المقادير التي تُعدُّ لنا كلَّ شيءٍ ، ونحسبُ أننا نحنُ الذين نفعلُ كلَّ شيءٍ .

لقد كانت كلمةٌ طيبةٌ من الأستاذ العالم الجليل عبد السلام بن سودة بمثابة الشرارةِ المضيئةِ سمعتُها منه في الرباط في المكتبة ، وسمعته فيها يقول لي : هل رأيت تقي الدين العلوي مدرّس التاريخ في كلية القرويين؟ وهل رأيتَ عنده جزءاً من الخريدة؟ . .

وحين كنتُ أمرُّ بـ «الدوح» كان بيتُ الأستاذ التقي العلوي علىٰ يميني

---

(١) ذين : غنًى أو قدرة :

منحدراً وعلى يساري مُصعداً . . . وما كنتُ أدري أنَّ علىٰ رفٍّ في جدار من هذه الجُدُرِ، في بيت الأستاذ العلوي، نسخة من (الخريدة) سيكونُ لها في هذا الشأن.

ودخلتُ منزل الأستاذ التقي العلوي ، يقودني تهذيبٌ بالغ لا أملكُ أن أصفه ، ووداعةٌ وادعةٌ لا تقع عليها إلا في النادر . .

وأمسكتُ بالكتاب حين وجدتُ أنَّ هذا الجزء من الخريدة يتضمّن قسم شعراء دمشق ، وكانت المفاجأة أحلىٰ حين وجدتُ أنَّ الجزء مكتوب بخط مشرقي، حلو واضح، مشكول أحياناً، وأنّه قديمٌ قديمٌ يعود إلىٰ القرن السابع.

ووجدتني أتطلّع إلىٰ السماء ، كأنّما أتجه إلىٰ الله في صلاةٍ عميقةٍ مهموسةٍ ، وأتطلّعُ إلىٰ الكتابِ كأنّما أنظرُ إلىٰ جوهرةٍ ، إلىٰ درّةٍ صدفيةٍ «متىٰ يرها يهلُّ ويسجدُ» كما يقول النابغة في حُبٍّ وإشفاقٍ وطموحٍ . . .

وكان الأستاذ التقي يحبُّ أن يشارك في إحياء التراث بنشر هذا الجزء ، . . . ولكنّه حين رأىٰ صلتي بالخريدة ، وعملي فيها ، نزل عن ذلك كله ، وأباح لي في أريحيةِ عالمٍ ، وصوفيةِ تقيٍّ ، ونُبْلِ سيّدٍ أن أنوبَ عنه في ذلك.

وكذلك عمدتُ في العام الثاني (١٩٦٥ ـ ١٩٦٦م) لوجودي في المغرب إلىٰ تجديد عملي كله الذي أفنيت فيه عامي الأول ، في ضوء هذه النسخة الجديدة ، حتىٰ صح لي أن أخرجه علىٰ هذا النحو الذي يراه القارئ».

● إخراجُ النصّ وتسميةُ الكتاب :

مضىٰ ـ رحمه الله ـ في إخراجِ هذا النصّ علىٰ نحو ما فعل في إخراج الأجزاء السابقة ، لم يعتمد نسخةً بعينها علىٰ أنها الأصل أو الأمُّ. واعتمد عنواناً علىٰ النحو التالي: شعراء دمشق والشعراء الأمراء من بني أيوب.

● قيمة الكتاب :

١ ـ في هذا السفر كثيرٌ من الملاحظ النقدية التي كان ينثرها في أعقاب القصائد أو في مقدّماتها أو في أثنائها.

٢ ـ يعرّفنا الكتاب بهؤلاء الشعراء الأمراء ، كيف كانوا يقولون الشعر ، وكيف كانوا يستمعون إليه ، ويثيبون عليه.

٣ ـ يغني الكتاب معرفتنا بالعماد ، في شعره ونثره ، وحياته الأولىٰ في الشام وبداية صلته بنور الدين ، وتحوُّله بعدُ إلىٰ صلاح الدين.

٤ ـ في هذا السفر مجموعةٌ طيبة من الشعر الذي قيل في وصف دمشق.

٥ ـ تضع المختارات النثرية أمامنا صوراً جديدة للنثر الذي كان القاضي الفاضل إمامه.

يضم هذا السفر: مقدِّمةُ العماد لقسم شعراء الشام ، موازنة بين الشاميين والعراقيين ، العماد مع نور الدين وصلاح الدين ، من منهج العماد ، شعر العماد في وصف دمشق ومدحِ ملوكها ، شعراء بني أيوب ، باب ذكرُ محاسن الشعراء بدمشق وأعمالها ، وفيه ذكرُ أعيان الساحل.

وأخيراً لابدّ من الإشارةِ إلىٰ ما نشره عددٌ من العلماء من تعريف وثناء علىٰ جهود أستاذنا في عمله، أو نقد له. فقد تناول ذلك أو بعضاً منه كلٌّ من الأستاذ مصطفىٰ جواد في مجلة «المجمع العلمي العراقي» ، «ومجلة المجمع العلمي العربي بدمشق» ، والدكتورة السيدة بنت الشاطئ في مجلة «الأمناء» والأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد في «مجلة معهد المخطوطات العربية» والأستاذ ريتر في مجلة أويانس، والأستاذ محمد صابر خان في مجلة «الثقافة الإسلامية».

* * *

٣ ـ أبو العتاهية: أشعاره وأخباره[١]

أبو العتاهية إسماعيلُ بن القاسم العيني العَنَزي ، شاعرٌ عباسيٌّ مكثرٌ ، سريعُ الخاطر ، في شعره إبداعٌ ، صاحبُ لونٍ خاصٍّ في الأدب العربي ، امتاز بلون الزهد ، والتحدّث عن الحياة والموت ، والعلاقة بينهما ، وإنْ تخلّلَ ذلك بعض الغزل والمدح ، واشْتَهَرَ الشاعرُ بكثرةِ النظم وسرعته ،

---

(١) الطبعة الأولىٰ من منشورات مطبعة جامعة دمشق عام (١٩٦٥م)، والطبعة الثانية مصورة عن الأولىٰ بمطبعة الملاح بدمشق بلا تاريخ ، ويقع الكتاب في ٧٢٢ صفحة.

وبعدم العناية بشعره ، لاستطاعته النظمَ بسهولةٍ لم تُعْرَفْ عند غيره من الشعراء. وهو يعدُّ من مقدَّمي المولَّدين من طبقة بشار ، وأبي نواس ، وأمثالهما.

جمع الإمام يوسف بن عبد الله بن عبد البرّ النمري القرطبي ما وجدَ من «زهدياته» وشعره في الحكمة والعظة ، وما جرىٰ مجرىٰ الأمثال في مجلد ، منه نسخة مخطوطة حديثةٌ ، اطّلع عليها أحدُ الآباء اليسوعيين فقام بترتيب أبياتها علىٰ الحروف ، وشرح بعض مفرداتها ، وسماها «الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية» وطبعها سنة (١٨٨٦م) ببيروت.

أمّا البواعث وراءَ نشر أستاذنا الدكتور شكري الديوان ، فهي رغبته في إخراجه في طبعة محققة ، تدفع عنه ما تسرّب إليه من تحريف ، وترفعُ عنه ما نزل به من ضيم.

وكان وراء ذلك بواعث عميقة ، منذ بدأ التدريسَ في قسم اللغة العربية من كلية الآداب في جامعة دمشق في مادّة الأدب العباسي ، وآثرَ أن يدرّسه في وجهتين: **إحداهما: وجهة المجون** ، واختار أبا نواس علىٰ أنّه يمثل هذه الوجهة ، **والأخرىٰ: وجهة الزهد** ، واختار أبا العتاهية علىٰ أنّه يمثل هذه الوجهة.

غير أنّ شعر أبي نواس مجموعٌ معروفٌ لإقامة دراسة مطمئنة ، بينما شعرُ أبي العتاهية لم يكن كلُّه في أيدي الناس ، فثروته الشعرية تبددت أو كادت ، فلا ندري أينَ ذهبت مدائحهُ؟ وأين أهاجيه؟ فتجربته في الزهد لم تكنْ التجربة الأولىٰ والأخيرة في شعره ، وإنّما كانت جانباً من نفسِه ، أو جزءاً من حياته ، وإِلاَّ فأينَ تذهبُ هذه القدرة الرائعة التي عبّر عنها بقوله: لو شاء أن يجعلَ كلامَه كلَّه شعراً لفعل.

ويقول أستاذنا: «**لم تكن وقفتُنا عند الزهديات في شعر أبي العتاهية وقفةً مطمئنةً أو راضيةً ، كان بين أيدينا نصوصُ أبي العتاهية كما طبعت في بيروت في المطبعة اليسوعية ، وكانت الطبعة الأولىٰ منها سنة (١٨٨٦م) ثم تكررت بعد ذلك مرات ، أغلبُ الظن أنّها أربعٌ من غير كبير اختلاف ، ولكنّها لم تكن**

تحمِلُ مقدمةً يطمئنُّ القارئ إلىٰ كلّ مصادرها ، وإلىٰ تحديد هذه المصادر في كلِّ قصيدة أو مقطوعة. . بل هناك طمسٌ لهذه المصادر ، وسكوتٌ مقصود عنها . . . ومهما يكن من شيء ، فالمؤكَّد أني لم أستطع وأنا أدرسُ أبا العتاهية أنْ أطمئنَّ إلىٰ هذا الديوان ، أقيمُ الدراسة عليه».

ثم يقول: «**وقرأتُ للشيخ أحمد محمد شاكر في (الشعر والشعراء) لابن قتيبة تعليقةً علىٰ ترجمةِ أبي العتاهية قال فيها: «وديوانه معروفٌ مطبوعٌ ، طبعهُ الآباء اليسوعيون بمطبعتهم في بيروت ، وهم قومٌ لا يوثق بنقلهم ، لتلاعبهم وتعصبهم ، وتحريفهم ، ولكن هذا الذي وُجد بأيدي الناس» فكانت هذه المقالةُ مثاراً جديداً لي. . . وخطوةً جديدة في ذهني وقلبي نحو ديوان أبي العتاهية ، في سبيل نشرالديوان».**

وبدأ يسألُ عن مخطوطات الديوان ، فاهتدى إلىٰ نسخة الظاهرية التي صنعها ابن عبد البر النمري ، وأخذ يقابلُ بينها وبين الذي في مطبوعة الأب لويس شيخو ، ولفت نظره في شيءٍ من عنفٍ تحريفاتٌ غريبةٌ ، كأنها عملٌ مقصودٌ ، وتجاوزَ ذلك إلىٰ بترِ بعض الأبياتِ ذواتِ العددِ من بعض القصائدِ ، وذكَرَ قولةَ الشيخ شاكر رحمه الله ، وكان يظنُّ فيه بعض الحدّةِ ، فإذا حديثُه دون أن ينهض لهذا التضليلِ الذي انساقتْ إليه طبعة الأب شيخو ، والتي أرادتْ أن تسوقَ إليه الناسَ في شيء كثير من الاستخفافِ بكلِّ أمانةِ العلم ، وخُلُقِ العلماء.

واستقر عند أستاذنا أمرُ السؤال عن مخطوطاتٍ أخرىٰ للديوان ، فطفق يلوِّبُ في رغبة جامحة ، وحين كان في ألمانية أواخر تشرين الأول من عام (١٩٦٥م) موفَداً من الجامعة السورية للاطلاع كان من بعضِ همه أن يطّلع علىٰ مخطوطات برلين ، وتوبنغن ، فقضىٰ الأشهر الأربعة الأُولىٰ بين هذه المخطوطات ، وكان من سعادته أن عثر علىٰ نسخة من ديوان أبي العتاهية.

وعلىٰ ذلك فقد توافرت له نسختان مخطوطتان من الديوان: الأولىٰ التي في دمشق ، والثانية في توبنغن.

ولما عاد إلىٰ دمشق عاود تدريس العصر العباسي ، وظلَّ أبو العتاهية عنده نزعةً إلىٰ طبع ديوانه ومحاضراتٍ عن شعره.

ويحدِّثنا أستاذنا عن عمله بالديوان والأحداث التي دفعت به إلىٰ القيام بهذا العمل فيقول:

«ولعلّها بعضُ الظروف القاسية[1] التي يمرُّ بها المرء ، تفصل بينه وبين الناس لتعود به إلىٰ نفسه ، لا يجدُ غيرها يتحدَّث إليها ويسائلها ، ولا يملكُ سواها يستنطقُها ويحاورُها ، ولعلّ هذه الأشهر التي لم يكن فيها بيني وبين الحياة إلا خيوطٌ من ذكرياتٍ ، وكوَّةٌ أو كوَّاتٌ من ضوءٍ ، وقطعةٌ من أرضٍ هي أشبارٌ في أشبارٍ ، أو أذرعٌ في أذرعٍ ، وأصواتٌ تتناهىٰ ولا تتراءىٰ ، وملامحُ تخطفُ العين ، ثم تغيب ، وزيارات محدودات هي كلُّ ما يصلني بالحياة والأحياء.

وقد بدأتُ عملي معتمداً علىٰ مخطوطتي الظاهرية وتوبنغن».

ثم يوردُ أستاذنا نماذجَ كثيرة من التحريفات التي في طبعة الأب شيخو ، وتتلخّص في تحريف في الكلمة الواحدة مثل (أوّاب) فيحرفها الأب شيخو إلىٰ (أو آب)! وهو لا يطيقُ أن يرىٰ لفظة «محمد» ﷺ في شعر أبي العتاهية فيحرِّف هذه اللفظة ما صادفها التحريفُ الذي يشملُ أكثر البيتِ حتىٰ لا ينتقضَ الوزنُ فينقل البيت:

وإذا ذكـــرتَ محمـــداً ومصـــابَــه فــاذكــر مصــابَـكَ بــالنبــيِّ محمَّـدِ

فيحرّفه إلىٰ:

وإذا ذكـــرتَ العــابــديــنَ وذُلَّهــم فــاجعْــل مــلاذَك بــالإلــه الأَوْحَـدِ

ويتجاوزُ التحريفُ الكلمةَ الواحدةَ إلىٰ التعبير الكامل ، من أمثلة ذلك أنّه كان يستبعد التعبير الإسلامي: **«لا شريك له»** ويضع مكانه تعبيراً آخر مثل: **«لا شبيه له»**.

---

(١) لعله يشير إلىٰ فترة سجنه في عهد الانفصال ، انظر ما جاء في الفصل الأول صفحة (٤٩) (ن).

ثم هو يحذفُ البيتَ كله ويعمدُ إلىٰ طيِّ الأبيات ذوات العدد التي في مدحِ الرسول ﷺ.

ثم يتساءل أستاذنا:

«أليسَ من الحقِّ إذنْ أن تكونَ إعادةُ نشر ديوان أبي العتاهية أوّلَ واجبِ العاملين في الدراسة الأدبية أينما كانوا؟ استنقاذاً لسمعةِ هذا التراث أن يكونَ من بين الذين يعملون فيه مَنْ تهونُ عليهم كلُّ القيم العلمية والأخلاقية يدوسونها من غير رادع ثم لا يتورعون».

وتتلخّص خِطةُ عمل أستاذنا في تحقيق الديوان ونشره في:

١ ـ تحقيق النصوص:

واعتماده علىٰ نسخة توبنغن، واستعانته بنسخة الظاهرية، فأثبت الخلافات بين الأصول، وأشار إلىٰ كثير منها في الهوامش، وخرّج القصائدَ والأبيات، وعزاها إلىٰ مصدرٍ أو أكثر.

هذا عن الديوان، أمّا عن تكملةِ الديوان ـ أي شعر أبي العتاهية الذي لم يردْ في المخطوطتين ـ فقد جمعه من كتب الأدب والتاريخ والتصوّفِ.

٢ ـ الأشعار والأخبار:

سعىٰ أستاذنا إلىٰ الربط بين أشعار الشاعر وبين أخباره، لإقامة الدراسة الأدبية وفهم النصوص، فالأخبارُ والأشعارُ وجهان لحقيقةٍ واحدةٍ هي وجودُ هذا الشاعر في معناه المزدوج: من حيثُ هو إنسانٌ يشاركنا أحداثَ الحياة وتجاربها، ومن حيثُ هو فنان ينفردُ عنا بقدرته علىٰ الانفعال بها نوعَ انفعالٍ يقود إلىٰ صياغتها صياغةً متميزةً، والتعبير عنها تعبيراً فذّاً.

وفي ضوء هذا فقد كان في عمله حريصاً علىٰ أخبار أبي العتاهية قدر حرصه علىٰ أشعاره، وعلىٰ ذلك كان ما يرىٰ القارئُ من عناية بذكر كلّ ما يتصل بالقطعة من خبرٍ ضئيل أو جليلٍ.

٣ ـ الأخبار والأسانيد :

وقد ساقته العنايةُ بالأخبار إلىٰ أسانيدِ هذه الأخبار ، وإثارةِ العناية بهذه الأسانيد في كتب الأدب علىٰ نحو ما نرىٰ عند علمائنا المحدثين أو علىٰ نحو قريب منه .

وفي هذه الأسانيد امتحانُ الأخبار والاستيثاقُ منها ، لننقدها ونمحّصها ، ثم نبني علىٰ ذلك أحكامنا الأدبية .

واستقام العملُ لأستاذنا ، فبدأ في الأقسام المتلاحقة :

١ ـ **الزهديات**: وتضمُّ ديوان أبي العتاهية كما صنعه ابن عبد البر ، من ص١ ـ ٤٤٣ .

٢ ـ **الأرجوزة**: علىٰ نحو ما جاءت في نسخة توبنغن ، من ص٤٤٤ ـ ٤٦٦ .

٣ ـ **تكملة الديوان**: وتضمُّ ما اجتمع لأستاذنا من شعرِ أبي العتاهية في غير الزهد. من ص٤٧١ ـ ٦٨٠ .

٤ ـ **المستدرك**: ويتضمّن ما عثر عليه من شعرٍ أو خبرٍ أو إشارةٍ إلىٰ شعرٍ وخبرٍ من ص٦٨١ ـ ٧١١ .

وقد طبع الديوان طبعاً متقناً مشكولاً، وصُنفت القصائد علىٰ الحروف الألفبائية مع ذكر البحر العروضي ، يضاف إلىٰ ذلك الشروحات المفيدة في الهوامش .

وفي آخر الديوان صنع الأستاذ فهارس للمصادر ، وتصويبات ، وفهرساً ضم محتوىٰ الكتاب .

وتجدر الإشارة إلىٰ أن أستاذنا ـ كعادته في وفائه ـ قدم الشكر في مقدمته القيِّمة إلىٰ جماعة من أصدقائه وإخوانه وطلابه .

ومما لا شك فيه أن نشر (ديوان أبي العتاهية) بهذا التحقيق العلمي الأمين عملٌ جليلٌ ، وجهدٌ كبيرٌ قام به أستاذُنا جزاه الله خيراً .

* * *

٤ ـ ديوان النابغة الذبياني بتمامه
صنعة ابن السكيت[(١)]

تعودُ صلةُ أستاذنا ومحبته للنابغة أيّام كان علىٰ مقاعد الدرس ، من خلال الدروس التي استمع فيها أيام مرحلة الدراسة الثانوية إلىٰ الأستاذ الجليل العلامة محمد سليم الجندي يتحدّث فيها عن النابغة ، وكانت أمنيته رحمه الله أن ينشرَ ديوان النابغة بطبعة محققة ، ومضت هذه الرغبةُ تنمو ، وهو يتابع مراحل الدراسة في القاهرة ، ومراحل التدريس بدمشق .

وكان أمله أن يُيَسَّرَ للشعر الجاهلي من يُعنى به عنايةً مخلصةً ، لأن العناية بهذا الشعر من جميع جوانبه هي وحدها التي تستطيعُ أن تعيدَ إلىٰ أذهاننا تكوين الصورة المزدوجة : معرفة الشعر الجاهلي ، ومعرفة وجوه الحركة العلمية في القرون الأولىٰ ، ذلك أنَّ ما كُتِبَ عن قرن الجاهلية قبل البعثة ، وقرن الصحابة والتابعين بعد البعثة ، لا يفي بهما ، ولا ينهض لهما .

ومن أجل استجلاءٍ واضحٍ لصورة العصر الجاهلي لابدَّ لنا أن نتعرّف إلىٰ تراث هذا العصر ، معتمدينَ علىٰ أصول تراثية أصيلة ، وكان من هذه المشاعر وهذه الأفكار أنْ أخذ الديوانُ طريقه إلىٰ التحقيق .

ولذلك كان من الطبيعي أن يُعنىٰ بإخراج طبعة من (ديوان النابغة) تجتمعُ فيها الشروح الأصيلة ، وكان ابنُ السكّيت الأملَ المنشودَ في ذلك .

ثم تحدّث الدكتور عن الصعوبات التي واجهته في تحقيق هذا الشرح ، ومنها اعتمادُه علىٰ أصل واحد ، وأنه لابدّ من الاعتناء بالضبط والإحاطة بالأحداث والمعاني التي تعينُ علىٰ فهم النصّ ، وأن يسدَّ النقصَ الذي يعتري بعض الشروح السابقة التي كان بعض الشراح أو كثرة منهم يجاوزونها أو

---

(١) صدر عن دار الفكر ببيروت سنة (١٩٦٨م)، ويقع في ٢٧٥ صفحة ، إضافة إلىٰ ١٦ صفحة مقدمة .

يتجاوزون عنها ، ثم يختم مقدّمته بقوله :

«إنّ قيمة عمل ابنِ السكيت في هذه النسخةِ أنّه استقامَ له قدرٌ من شعر النابغة أكبرُ من كلِّ قدر استقام لغيره من ثقاتنا المتقدمين ، فهناك عديدٌ من القطع وجدتها عنده ، وليست عند أحد غيره ممن عُنوا بالنابغة ، أو شرحوا ديوانه ، ولذلك كان عنوانُ عمله هذا العنوان المثبت في صدر الكتاب: «ديوان النابغة الذبياني بتمامه» فإذا ذكرنا بعد ذلك ما لابن السكيت من منزلةٍ علميةٍ ، وإذا ذكرنا جهده في نطاق الشعر العربي ، وأنّه شرح شعر زهير والأعشى ، وعروة بن الورد ، وقيس بن الخطيم من المتقدمين ، وشعر عمر بن أبي ربيعة ، والأخطل من العصر الإسلامي ، وشعر أبي نواس من المحدَثين ؛ أدركنا أنّنا أمام أثر أصيل من آثارنا القديمة ، قمينٌ أن نتدارسَه ، وأن نفيدَ منه ، وأن يكون بعضَ البدايات السلمية للطريق المستقيمة».

* * *

٥ـ تاريخ مدينة دمشق حماها الله
وذكر فضلها وتسمية من حلّها من الأماثل
أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها
تصنيف الإمام الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر

كان من أماني أستاذنا متابعةُ العمل الذي بدأه رئيس المجمع الأستاذ محمد كرد علي بتحقيق تاريخ دمشق لابن عساكر ونشره ، فعندما عهد إليه بأمانة المجمع قدّم تقريراً لرئاسة المجمع ، بيّنَ فيه خِطّة العمل في هذا المشروع ، وطلب الموافقةَ عليه ، فعهدت إليه رئاسة لجنة سميت (لجنة تحقيق تاريخ ابن عساكر) كان من أعضائها: الأستاذ مطاع الطرابيشي ، والأستاذ رياض عبد الحميد مراد ، والأستاذة سكينة الشهابي ، والأستاذة روحية النحاس ، والأستاذ محمد سعيد الدباس ، ومحمد مطيع الحافظ.

وفي بداية العمل سعىٰ الدكتور بما أُوتي من خبرةٍ ومعارف في المراكز الثقافية والمكتبات والجامعات في العالم إلىٰ جمع مصوّرات المخطوطات من مكتبات العالم ، فحصل علىٰ عدد وافر منها.

واختار أن يكونَ حرفُ العين بدايةً لمتابعة العمل في التاريخ ، لأنّ الأصول المخطوطة لحرف العين وما بعدَه بخط القاسم ابن عساكر ، وهي التي قرأها علىٰ والده المؤلف ، كان ذلك بتوجيهٍ من الأستاذة الفاضلة **ملك هنانو** ذاتِ الخبرة الكبيرة بتاريخ ابن عساكر ، جزاها الله خيراً .

ثم بدأ العملُ بكتابة التراجم من عاصم حتىٰ عايذ ، ثم تحقيقها ، كلُّ ذلك بمشاركةِ الدكتور بكلِّ كلمةٍ في الجزء ، ثم كان رحمه الله يأخذُ ما انتهىٰ العمل فيه إلىٰ بيته لتحقيقه وتدقيقه ومراجعته ، ويعمَد إلىٰ قراءة تجارب الطبعَ مرّات كثيرة يضيفُ ويحذِفُ الشيء الكثير حتىٰ تكدّست مئاتُ الصفحات من التجارب ، وعليها خطّه وملاحظاته ، ولم يكتفِ بذلك بل كان يستشيرُ كبار العلماء والمحققين في أي مشكلةٍ تظهرُ له عند التحقيق ، ومن هؤلاء الأستاذ أحمد عبيد رحمه الله .

أ ـ تاريخ مدينة دمشق

تراجم حرف العين المتلوة بالألف من عاصم ـ عايذ[1]

يعرِضُ الدكتور ـ رحمه الله ـ في مقدّمة هذا الجزء محاولات المجمع لطبع التاريخ في عهد رئيس المجمع الأستاذ محمد كرد علي ، وما صدر في عهده وبعده ، ويذكرُ صلته بالكتاب فيقول :

«وحين شرَّفني زملائي من أعضاء المجمع بانتخابي أميناً للسرِّ؛ كان في رأسِ ما تطلّعتُ إليه أن يستأنِفَ المجمعُ ما انقطعَ من خطاه في نشر هذا الكتاب ، وكانت صلتي بالكتابِ تزدادُ وثوقاً به ، وتقديري له وأملي في إظهاره للناس يزداد تمكناً ، كلما استبان لي جديدٌ من مكانته بين كتب التراث عامة ، ومكانته من كتب التاريخ خاصة ، ومكانته لبلاد الشام بوجه أخص» .

ثم يتحدّث عن مضمون الكتاب ومادته العلمية :

---

(١) صدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق ، وطبعته الإدارة السياسية بوزارة الدفاع عام (١٩٧٧م)، ويقع هذا الجزء في ٩٦٧ صفحة .

«ذلك أنّ الكتاب إنما سُمّي تاريخَ دمشق بنوعٍ من التخصيص ، ولكنّه ما كان له أن يكونَ مقتصراً عليها . إنَّ الحافظ ابن عساكر لا يقدّم لنا تاريخاً دمشقياً ، ولا تاريخاً شامياً فحسب ، وإنما يقدّم تاريخاً حضاريّاً لهذه البلاد كلِّها التي انتشر فيها الإسلام وسادت العربية . . ألا يؤكد ذلك أنّ هذا التاريخَ هو تاريخٌ للعالم الإسلامي كله؟ ! .

ذلك هو الذي فهمه المجمعيون حين عزموا علىٰ نشره ، إنّهم لم يفكروا فيه لأنه كتابٌ من كتب التراث فحسب ، وإنّما فعلوا ذلك لأنّهم كانوا يريدون أن يُكْتَبَ التاريخ الحضاري والفكري والسياسي لبلاد الشام من خلال هذه المصادر التي ضاعت ، والتي احتفظ ابن عساكر بها كلها ، أو بأقسامٍ كثيرةٍ منها في نقوله عنها ، كما كانوا ينظرونَ إلىٰ أنَّ تجديدَ كتابة التاريخِ لهذه الأقطار العربية والإسلامية لا يمكن أن يمضيَ علىٰ أساسٍ سليمٍ مضيءٍ ما لم يظهر تاريخُ ابن عساكر إلىٰ النور ، وأن يوضَعَ موضعَ المدارسةِ والممارسةِ» .

وعن الصعوباتِ حول العمل بتاريخ دمشق يقول رحمه الله :

«ألم يكن أمراً طبيعيّاً أن تتكاثر الصعوباتُ بين يدي عملٍ ضخمٍ كهذا العمل الذي يهدفُ إلىٰ نشر كتاب أصله المخطوط في (٨٠٠) جزء كلٌّ عشرةِ أجزاءٍ تؤَلّفُ مجلدةً واحدة؟ . .

كان هذا السؤال الذي يدور علىٰ لساني ، ويهمس به ضميري ، ونخطئ حين نقدّرُ أنَّ ضخامة الكتاب وحدَها كانت هي الصعوبةُ التي واجهت العمل ، أو واجهت العاملين فيه ، كان هنالك قبل ذلك أنَّ الأصول الموجودة منه في حاجة إلىٰ كثير من الصبر عليها ، والتذليل لها ، لم يكن هناك نسخةٌ واحدةٌ كاملةٌ ، وإنّما اجتمع لدىٰ المجمع نسخ ناقصة وأجزاء متفرقة ، أقدم هذه النسخ نسخة الأزهر الشريف بخط القاسم ابن المؤلف ، ثم نسخة البرزالي ، ثم نسخ أخرىٰ في دمشق وإستامبول والمغرب ، ولو جُمِعت كلُّها بعضها إلىٰ بعض لما تكوّنَ منها نسخة كاملة» .

وعن المنهج الذي اتخذه الحافظ ابن عساكر في صياغة الترجمة يقول الدكتور رحمه الله :

«إنّه يقدِّمُ لك مادتها الأولىٰ مسندةً في كل جزئية من جزئياتها ، وتتعدَّدُ صور الخير بتعدّد الأسانيد . . . إنّه يتابع أصحاب الحديث في طريقهم في الإسناد . . ولهذا فإنّ كلَّ ما عند ابن عساكر في تاريخه ينشعِبُ في هذين القسمين الكبيرين : الأسانيد والأخبار .

فأما الأسانيدُ وتحقيقُها ، ومعارضة بعضها ببعض ، والتثبت من الأسماء والتعريف بها ، ومحاولة الاطمئنان إليها ، واستدراك ما قد يكون سقطَ منها ، أو تصحيح ما يصيبُ الأسماءَ من تصحيفٍ أو تحريفٍ ، ثم الفهرسة لها ، فعملٌ منفرِدٌ برأسه .

وأمّا الأخبار وضبطُها وتحقيقُها ومقابلتُها أحياناً علىٰ المصادر التي أخذت عنها فعملٌ آخر ، ونحن في كلا العملين بحاجة إلىٰ مجموعة من المصادر ليست هي دائماً مجموعة المصادر التي نحتاج إليها في العمل الآخر» .

وبعد الانتهاء من تحقيقه هذا الجزء قال رحمه الله :

«هذا وأجِدُني في نشوةِ فرحٍ غامر وأنا أقدّم هذا الجـزء ، أنسى معها وينسى ذلك أيضاً هؤلاء الذين ساعدوني علىٰ مراحل العمل كلها الصعوبات التي واجهتنـا ، والمشقّات التي احتملنـا ، والوقت الذي أنفقنا ، إنّها صعوباتٌ من كلِّ نوع في كلِّ مرحلة : في النسخ ، والمقابلة ، والتحقيق ، والفهرسة» .

هذا هو القسم الأوّل من المقدمة التي تكلّم فيها عن الكتاب ومؤلفه ، وأما القسم الثاني فتكلّم فيه عن عمله في التحقيق ، وينحصِرُ هذا العملُ في الكلام علىٰ الأجزاء المخطوطة ، وعلىٰ نهجه في التحقيق ، وعلىٰ مكان هذا الجزء المطبوع من النسخ المخطوطة ، وعلىٰ بعضِ الضوابط في إخراج الكتاب ، ثم ختم مقدِّمته البليغة بخاتمة ذكر فيها مراحل العمل ، وكانت خاتمةُ هذه المقدّمة دليلاً علىٰ إيمانه العميق : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران : ٨] .

لم يهمل الدكتور شكري الفهارس في آخر الكتاب: فهارس الأعلام، وشيوخ ابن عساكر، وشيوخ ابنه القاسم، وفهارس الأسانيد والسماعات، والآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة، والأمثال، والشعر، والأماكن، والأقوام، ومراجع التحقيق، والاستدراكات والتصويبات.

وهذه الفهارسُ كانت مفيدةً كل الفائدة، لأنها كانت مفتاحاً لكلِّ مَنْ عمل في تاريخ دمشق فيما بعد.

ب ـ تاريخ مدينة دمشق

تراجم: عبد الله بن جابر ـ عبد الله بن زيد[1]

هذا الجزء هو الثالث علىٰ نسقٍ من حرف العين، وكان الثاني تحت الطبع عند صدور هذا الجزء، وكان الاعتمادُ في هذا الجزء علىٰ نسخة البرزالي، مع الاستعانة ببعض النسخ الأخرىٰ. وأمّا المنهج فهو متابعةٌ للنهج الذي سبق في جزء (عاصم ـ عايذ) من حيث التحقيق والفهارس.

ولابدّ من الإشارة إلىٰ أنّ مقدمة هذا الجزء لم يكتبها الدكتور شكري بسبب سفره، وإقامته في المدينة المنورة. وإنّما كُتِبَتْ بإشرافِ المجمع.

جـ ـ تاريخ مدينة دمشق

تراجم: عبادة بن أوفىٰ ـ عبد الله بن ثوب[2]

يذكر أستاذنا في مقدّمة هذا الجزء أنّه قطعةٌ جديدةٌ من (تاريخ مدينة دمشق) لابن عساكر، تابعَ فيها التراجمَ المبدوءة بحرف العين، وذكر أيضاً في هذه المقدمة ثلاثةَ أمورٍ:

---

(١) صدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق عام (١٩٨١م) بالاشتراك مع الأستاذة سكينة الشهابي والأستاذ مطاع الطرابيشي، ويقع في ٩٩٩ صفحة.

(٢) صدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق سنة (١٩٨٢م) بالاشتراك مع الأستاذة روحية النحاس والأستاذ رياض عبد الحميد مراد، ويقع الكتاب في ٧٣١ صفحة.

الأمر الأول: المنهج في تحقيق هذا الجزء هو المنهجُ نفسه في الجزء السابق، إلاَّ أنّه استطاعَ أن يتخفَّف من إثقالِ الهوامش بالإشارات إلى الخلافاتِ اليسيرة بين النسخ ، ويشيرُ إلىٰ الاهتمام بالأسانيد والرجال دفعاً لكلِّ لبس.

وأما الأمر الثاني: فتحدّث فيه عن النسخ المعتمدة في هذا الجزء.

وأما الأمر الثالث: فهو العمل في فهارس الكتاب ، وأنّ هذه الفهارس والعنايةَ بها هي الطريقُ إلىٰ معاودة بناء التراث وتمثّله تمثُّلاً حيّاً ، واستحضار صورة دقيقة ، وأنّها هي السبيلُ إلىٰ تيسير العمل فيه علىٰ العاملين.

* * *

٦ ـ الوافي بالوفيات
تأليف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي
الجزء الحادي عشر
(ثامر ـ الحسن)[١]

هذا الكتاب أصدرته جمعية المستشرقينِ الألمان ضمن النشرات الإسلامية التي تقوم بنشرها ، وحين عزمتْ علىٰ نشر كتاب الوافي وزّعته علىٰ عدد من المحققين ، وقد قام أستاذُنا بتحقيق هذا الجزء علىٰ النحو الذي مضت فيه الأجزاءُ الأخرىٰ ، غير أنّه أخذ نفسَه علىٰ ترتيب المصادر في الحواشي ترتيباً زمنيّاً ، تراعىٰ فيه سنوات وفيات المؤلفين ، وهذا المنهجُ هو منهجه مع طلابه في إعداد الرسائل الجامعية ، وفي تحقيقاته.

وذكر في آخره المصادر والمراجع التي اعتمدها في التحقيق (من صفحة ٤٣٧ ـ ٤٥٠) ثم صنع فهرساً بالتراجم من (ص٤٥١ ـ ٤٨٧).

* * *

---

(١) صدرت الطبعة الأولىٰ عن المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت ، وطبع في مطابع دار صادر بيروت عام (١٩٨١م)، والطبعة الثانية عام (١٤١١هـ = ١٩٩١م).

المبحث الثالث

البحوث والمحاضرات والندوات

١ ـ نثر شوقي[1]

هذا البحث ألقاه الدكتور شكري فيصل في المهرجان الذي أقامه المجلس الأعلىٰ لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في القاهرة من (١٥ ـ ١٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٨م) لتكريم ذكرى أمير الشعراء أحمد شوقي بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة علىٰ وفاته، وكان من كلامه: «**أكان شوقي الشاعرُ الذي ملأ شعرُه مسمعَ الدنيا، وخفقتْ له قلوب الناس، وردَّ إلىٰ الشِّعر العربي رونقَه وبهاءَه، بعد البارودي وصبري، بعد ظلمة عصور الانحطاط؟ أكان شوقي هذا الذي فعل الأعاجيب في الحياة الفنية الشعرية ناثراً من الناثرين، الذين يقفُ عندهم تأريخ الأدب، مشيراً إلىٰ أثرهم في سواهم؟..**

أغلبُ الظنِّ أننا لن نستطيع أن نكشف شوقي الناثر في شيءٍ من اليسر.. لا لأنَّه لم تكن له هذه القدرةُ علىٰ النثر الفني المتمكن من الصنعة، حتىٰ لتكاد تكونُ فيه عفواً... ولا لأنّ نثره لم تكن فيه هذه القدرةُ علىٰ الإمتاع... لا لشيءٍ من هذا أو ذاك، وإنّما يتجاوزُ الأمرُ شوقيّاً نفسَه إلىٰ العصر الذي نعيشُ فيه، وإلىٰ المواصفاتِ التي نطمئنُّ إليها في العمل الفني، والأسس التي نرتكزُ عليها في التقدير والتقويم، فنحن نحيا في عصرٍ هو أقربُ إلىٰ الإطلاق منه إلىٰ التحديد، وإلىٰ العفويّةِ منه إلىٰ التصنُّع، وإلىٰ الإرسال منه

---

(١) بحث نشر في مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد ٣٤، عام ١٩٥٩م، من ص٦٦ ـ ٨٧.

إلىٰ القيدِ ، ونحبُّ اليوم النثر رهواً ، رخاءً طلقاً ، كهذه الأشرعة الخفيفة التي تجري مع النيل ، لا تسمع لها صلصلة ولا جلجة ، ولا تحسُّ لها ضجيجاً ولا عجيجاً ، وإنّما هي وسوسةٌ ناعمة ، كأنّما هي همسُ الموج إلىٰ المجداف ، وتحيّةُ المجدافِ إلىٰ الموج ، ثم لا يكونُ بعدَ ذلك إلا هذا التقدُّم المنطلق علىٰ صفحة الماء ».

ثم ينتهي بعد توضيح لنثر شوقي وتحليله إلىٰ القول :

«وما نعفي شوقيّاً من قَدْرٍ من التكلُّفِ في اصطناعِ هذا البديع اللفظي ، ولكننا ننفي عن سجعه أن يكونَ قد غرق في المحسّناتِ فضلّت به المحسناتُ عن معناه . . . إنَّ شوقي أرادَ من السجعِ كما قال : حلاوةَ الفواصل وهديلَ الحمام بأكثر مما أرادَ إلىٰ القيد والتكلّف والالتزام».

ويختم بحثه بقوله :

«إنّ نثر شوقي في منزلة الشعرِ . . بل إنَّه شعرٌ إذا نحن التزمنا تعبيره . . إنَّه شعرُه الثاني».

* * *

٢ ـ الشاعر القروي : حياته وشعره[١]

أستاذنا رحمه الله ناقدٌ أدبيٌّ متميّز ، متذوِّقٌ للشعر في كلِّ عصوره من الجاهلية حتىٰ عصرنا الحاضر ، بما فيه الشعر المهجري ، وفي هذا البحث الذي ألقاه رحمه الله في الاحتفال التكريمي الذي أقامته وزارةُ الثقافة والإرشاد القومي علىٰ مدرّج جامعة دمشق ـ في نيسان (١٩٥٩م) للشاعر رشيد سليم الخوري الشاعر القروي ، يحدثنا عن حياة الشاعر وصلته به ، وعن شعره ومزاياه ، فبدأ حديثه بقوله :

«ما أغنىٰ حياتك! . .

وما أبسطَ هذه الحياة! . .

---

(١) بحث نشرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق سنة ١٩٥٩م ، في ٢٤ صفحة.

ما أحفلَها بهذه الجزئيات الكثيرة الملونة ، وبهذه الخطوطِ العريضةِ الواضحة! . .

ما أعمقَ مداها حين يكونُ الشعب العربي في حيّزه هذا من الزمان ، وفي حيزه ذاك من المكان هو محورها ومداها! . .

ما أقرب شعرك هذا الثرّ الغزير في هذه الحياة! . .

وما أصدق مجاورته لها وتجاوبه معها ، والتقاءه بها هذا الالتقاء الهانئَ الهادئَ الذي لا تحسُّ فيه العنتَ ، ولا تجد فيه الإكراه!» .

ويعود أستاذُنا بذاكرته إلىٰ أيّام الشباب فيقول :

«أنسيت كيف كنا أيام الانتداب ، جماعاتٍ من الطلاب في باحة ثانوية (عنبر) حين كانت عنبرُ متَّقد الشرارات الأولىٰ في النار الوطنية ، وفي غُرف بعض النوادي ، وفي أطرافٍ من بعض المجالس ساعةَ تنفرِطُ المظاهرات نقرأ «الأعاصير» نقرؤه فرادىٰ أو نقرؤه مجتمعين ، ونستمدُّ منه لنكونَ في وجه أولئك الطغاة العتاة ، أصحاب أثقلِ ظلٍّ كما سميتهم بلغة الشعر ، مثل هذه الأعاصير تلفحُ وجوههم بالنار ، ونحن لا نملك من النار إلا نور القلب وطهر الضمير؟!» .

ثم يتحدّث عن بدايات الشاعر فيقول :

«أجل . . لقد كان خَلقاً متميزاً ، لم تكن في حياته الشعرية مثل حياة الآخرين ، لم يكن له مثل تدرّجهم ولا تطوّرهم . . وإنّما كان من هذا النحو نموذجاً فذّاً ، لأنّه زواج بين الظهور والنبوغ . . وتفتّحت في حياته نبوءة الشعر ومعجزته في آن واحد» .

وعن صدق الشاعر في شعره يقول :

«والحق أني ما عرفتُ شاعراً في شعرائنا المعاصرين تروعك حياتُه ويروعك شعرُه ، ثم يروعُك هذا الالتقاء بين حياته وشعره ، كما عرفتُ ذلك عند الشاعر القروي . . . هذا الالتقاءُ بين السلوكين ، بين سلوك الإنسان

وسلوك الشاعر في شخصية القروي ، بين سيرته في حياته ، وبين سيرته في شعره ، قاربَ أن يكون التقاء توحيد. . .

إنّ شيئاً أساسياً كان يحيا في عقل الشاعر القروي وفي قلبه حين كان يقول الشعر ، إنّه لم يكن يفكّر في ذاته في هذه المسارب الداخلية العميقة ، في هذا العالم النفسي الغامض المبهم فحسب، إنّه لم يكن شأنه أن يكشف هذه المسارب أو أن يضيءَ جوانب هذا العالم ، وإنّما كان في ذهنه فوق ذلك وقبل ذلك هدفٌ آخر. . . كانت الجموعُ العربيّةُ هي التي تملأ عليه اهتمامه وتطيفُ به» .

ثم يتحدّث عن مميزات الشاعر بإكبارٍ وتقديرٍ ، وأهمُّها عاطفته وقوتها وصمودها حنيناً للوطن ، وحنيناً لمستقبل العروبة. . ثم رغبة الشاعر في الحفاظ علىٰ اللغة ، وهذا ما تلمسه في لغته الشعرية ، ويختم بحثه بقوله:

«أفليسَ من السعادةِ أن يتصلَ آخرُ ما أقولُه بأوّل نبرةٍ تقولها ، آخر ما تقوله دمشق عنك أيها اللسانُ العربيُّ النابضُ، بأوّلِ نبرةٍ تقولُها في دمشق: قلبُ العروبة النابض» .

* * *

٣ ـ ابن عساكر
محاولة للكشف عن وجدانه الذاتي
وتبيين منهجه العلمي(١)

يبدأ الدكتور بحثه بقوله: «من بين الكثيرِ من التُّهم التي وُجّهت إلىٰ تراثنا التاريخي. . التهمةُ التي تقول: إننا في صنيعنا التاريخي كنا ننصرِفُ إلىٰ تأريخ

---

(١) بحثٌ ألقاه الدكتور شكري فيصل في الاحتفال بمؤرّخ دمشق الكبير ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمئة سنة علىٰ ولادته بدمشق في قاعة محافظة دمشق من (٢٦ ـ ٢٨/ ١٣٩٩هـ = ٢٣ ـ ٢٥/ ٤/ ١٩٧٩م). ونُشِرَ البحث في كتاب: الكلمات والبحوث الملقاة في الاحتفال. وصدر عن المجلس الأعلىٰ لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية من الصفحة ٥١٩ ـ ٥٣٩ .

الأسر الحاكمة ، وإلىٰ سير الملوك والرؤساء والقواد . . . أمّا تأريخ الحركة الثقافية ، أو تاريخ جماهير الناس ، فإننا لم نوله الاهتمامَ الذي يستحقّه .

إنّ الذين أُخِذوا بهذه التهمة لم يكونوا علىٰ صلةٍ بتراثنا التاريخي . . هؤلاء عرفوا من تراثنا التاريخي هذا الشكل الواحدَ ، وغفلوا عن صوره الأُخرىٰ ، إنّهم لم ينظروا في جملة المؤلّفات التي تناولت تاريخ الفكر والثقافة وتاريخ العلوم ، وتناولت في أسلوب جديد تكاد تنفرِدُ به الثقافة الإسلامية : تاريخَ العلماء ، وسير الأعلام ، فيما درجنا علىٰ تسميته كتب الطبقات ، وكتب التراجم .

إنّ ثروتَنا من هذه الكتب ثروةٌ رائعةٌ ، وإنّ معطياتها معطياتٌ نادرةٌ ، تناولت تاريخ البلدان وخططها ، وعلماءها وأعلامها ، وفي كتب الطبقات والتراجم تناولت تراجم القرّاء ، والمحدثين ، والمتكلّمين ، والفقهاء ، والصوفية ، والزهاد ، والأطباء ، والمؤرّخين ، والشعراء ، والأدباء ، والنحاة ، واللغويين . . إلىٰ جانب الكتب التي أرادت أن تتوقّف عند بلدٍ بعينه من مثل (تاريخ بغداد) ، و(تاريخ دمشق) ، و(تاريخ الرقة) ، و(تاريخ أصبهان) ، و(طبقات علماء إفريقية) .

هذه المجموعاتُ الكبرىٰ من الكتب هي التي تضمُّ أبرزَ وجوه أصالتنا الفكرية ، فلم يغب عنا إذاً أمرُ التاريخ الحضاري ، ولم نهمل النظرَ إلىٰ حركتنا الثقافية ، يحكُمنا في ذلك قيمتان كبيرتان :

القيمة العلمية : وتتمثّل في الإدراكِ الدقيق لتطور معارفنا وعلومنا .

والقيمة الأخلاقية : وتتمثّل في الوفاء لهؤلاء العلماء ، والإشادةِ بما كان من جهودهم .

وكتابُ ابن عساكر يقع من ذلك كله : من كتب التاريخ ، ومن كتب الحديث ، ومن كتب التراجم ، ومن كتب الطبقات والأعلام ، ومن كتب البلدان موقعاً متميزاً ، إنّ فرادته لا تأتيه من ضخامته وكثرة أجزائه ، ونزعته

الشمولية فحسب ، إنّما تأتيه من أمرين آخرين: أحدهما: الهدف البعيد ، والآخر: المنهج الذي كان يصطنعه.

أمّا الهدف فكان يتمثّل في إحياء السنة وعلومها بعد تشتت خطير شطر العالم الإسلامي إلىٰ هاتين الخلافتين: الخلافة الأصل في بغداد ، والخلافة المنشقّة العبيدية في المغرب ، وقد استقرّت في القاهرة.. إنَّ العمل لهذا الهدف لم يكن فكرياً ثقافياً فحسب ، بل كان حربيّاً أيضاً.

لم يكن من شك عند ابن عساكر في أنّ الماضي هو الذي يمكنُ أن يصنعَ الحاضرَ ، وأن يصوغَ المستقبل.. وإنّ العمل الفكري العريض إلىٰ جانب العمل الحربي الذي كانت بدأته الدولة النورية ، وورث صلاحُ الدين ثمراتِه ، فهذا العملُ يقوم علىٰ تقوية العقيدة ، وعلىٰ تقوية الثقة بالنفس ، وقد وجد في خدمة الحديث عن طريق التأريخ لمدينة دمشق ، أو خدمة (تاريخ دمشق) عبر العناية بالحديث السبيلَ إلىٰ هذين الأمرين معاً ، فمضىٰ يتابع العمل في (تاريخ دمشق) مستفيداً لاشك من الأعمال العلمية المماثلة ، ومن (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي بنوعٍ خاص ، وذلك تلبيةً لرغبةِ نور الدين.

أما عن المنهج الذي أخذ به نفسه في إقامة هذه التراجم ، وفي تراجمه لم يقصد ابن عساكر دمشق وحدها... إنّه يؤرّخ لجوانب من الجاهلية ، ويؤرّخ للسيرة النبوية بجوانبها كلها ، ثم هو يترجمُ للخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، ومن الطبيعي أن يكونَ كتابُ ابن عساكر أغنىٰ المصادر عن تاريخ الأمويين... ثم الكثير من الخلفاء والعلماء... ألا يؤكد هذا عندنا هذه الحقيقة الأصيلة وهي أنّ تاريخ ابن عساكر هو تاريخٌ للعالم الإسلامي كلّه من خلال هذه المدينة الصغيرة الكبيرة دمشق؟!.

وأما عن منهجه في كتابة هذه التراجم الكثيرة ، فتقوم علىٰ أقسام ثلاثة:

القسم الأول: الجمل التي تتصدر الترجمة ، والتي تضمُّ أبرزَ معالم الشخصية: اسمه ، نسبه ، كنيته ولقبه ، قبيلته وبلده ، والميدان الذي كان

يجولُ فيه ، أسماء الذين أخذ عنهم ، وأسماء الذين رووا عنه ، جملة العناصر الرئيسة في حياته .

القسم الثاني: يبدأ بذكر الأحاديثِ التي رواها المترجم ورويتْ عنه ، ودراسة هذه الأحاديث من حيث الصنعة الحديثية أو اللغوية .

القسم الثالث: يذكر فيه أخباراً عن الرجل ، تتضمن حياته ، ولادته وفاته ، الحوادث التي مرّ بها أو شارك فيها .

وتبقىٰ الإحاطةُ بكلّ أخبار المترجَم له أبرزَ مظاهر العمل عند ابن عساكر وإنّ وجه الفرادة في هذا العمل لا يعودُ إلىٰ التكثّر في رواياته قدر ما يعود إلىٰ الاطلاع الواسع ، والإحاطة الشاملة ، والمصادر المتنوعة ، وأن يكون تاريخه شاملاً للقرون الستة الأولىٰ للجماعة الإسلامية المنتشرة من الشرق إلىٰ الغرب» .

ثم يتحدّث الدكتور عن السلوكية التي رافقت هذا المنهجَ فيقول :

«واضحٌ جدّاً للذي ينظر في الكتاب يعرض عمل المؤلف فيه ، أنَّ روحاً عالية متّقدة كانت وراء كلِّ خبرٍ من أخبارهِ ، أو سندٍ من أسانيده ، تتجلّىٰ هذه الروحُ في سلوك علمي يمكن أن تضبطه الصفات التالية :

● الجمع والإعداد: فابنُ عساكر لم يقدم علىٰ عمله الضخم قبل أن يتزوّد ويعدَّ له الإعداد الطويل ، وكان هذا وراء رحلاته الطويلة التي وصلت إلىٰ أبعد الحدود ، ووراء سعيه إلىٰ الشيوخ ، وأخذه عنهم ، وأيُّ أعدادٍ من الرجال لقي ، وعلماء طرق أبوابهم حتىٰ بلغ معجم شيوخه وشيخاته نحواً من ألف وخمسمئة ، وأيُّ أحمالٍ من الكتب نقل قبل أن تستقر به أسفاره ليبدأ جهده الأكبر في التصنيف والتأليف والإقراء والإسماع؟! .

● التثبت : كان الحرصُ علىٰ التثبُّتِ معلماً من معالم السلوك العلمي عند ابن عساكر ، ومن أجل هذا التثبّت كانت هذه الرواياتُ في الخبر الواحد .

● الاحتياط : وهي سمةٌ من سمات السلوك العلمي عند ابن عساكر ، إنّه يأخذُ نفسَه بالاحتياط في عباراته وحكمه ، وأقصىٰ ما يستعمِلُ من ألفاظ : هذا

وهم ، أو وهم فلان ، إنّه يدع للقارئ نفسه أن يختار الرأي الذي يرىٰ والموقفَ الذي يفضّل .

● خلقه الشخصي : تدينه وعفته : وتبقىٰ الخُلقية الخاصة التي تدعم هذا كله ، وتضيء سبيله ، وترشد طريقه ، وتعين علىٰ الصبر عليه ، لقد أوتي ابن عساكر من ذلك شيئاً كثيراً ، فقد أُثِرَ عنه تعبده ، وتعففه ، وصيامه ، وقيامه ، واعتكافه ، وحرصه علىٰ الطاعات ، وعزوفه عن المناصب ، مما يؤلف الأساس المتين للخلق العلمي المكين» .

ويختم ذلك بقوله :

«إنّ هذا البحث استشفافٌ لوجدان ابن عساكر في صنيعه العلمي ، ومحاولةُ تبيُّنٍ لمنهجه في تأليف كتابه الكبير ، وكشفٌ عن سلوكيته العلمية» .

* * *

٤ ـ الأدب العربي من سقوط بغداد حتىٰ أوائل النهضة[١]

في بداية بحث أستاذنا يتساءلُ : «مَنْ أوَّل هؤلاء المؤلفين الذين أطلقوا علىٰ هذا العصر عصر الانحطاط؟ وما الباعث الذي دفعه إلىٰ هذه التسمية؟ .

والحقّ أنّ هذه التسمية لهذه الفترة ألقت عليها ظلاً ثقيلاً ، لا يزول عنها ولا يتغيّر ، فإذا هذه العصور في أذهاننا جميعاً ـ قبل أن نتعرّف إليها فنحسنَ التعرف ـ موسومةٌ بالضعفِ ، متميّزةٌ بالانحطاط ، وإذا هي لها من اسمها هذا أوفىٰ نصيب .

والواقع أنَّ هذه العصور لم تلقَ من اهتمام الباحثين في الحياة الأدبية ولا

---

(١) بحث للدكتور شكري فيصل صدر مع عدد من الأبحاث في كتاب بعنوان : (الأدب العربي في آثار الدارسين) أشرفت علىٰ إخراجه هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية ببيروت ، وصدر عن دار العلم للملايين ببيروت سنة (١٩٦١م) وبحث الدكتور شكري من ص ٢٩١ ـ ٣١٠ .

المعنيين بالتأريخ لها ، ولا من الناظرين في أدبها: مثل الذي لقيت عصورٌ قبلها ، كالعصر الإسلامي ، والعصر العباسي ، أو عصورٌ بعدها كالعصر الحديث ، وانصرف عنها الباحثون وكأنّهم كما قيل: «مروا بالديار ولم يعوجوا» فظلت مجهولةً ، لم يعرفِ الناسُ عنها إلا أقل الذي يجب أن يعرفوا.

ولكي نتعرّفَ إلىٰ حقيقة الأمر يحسُنُ بنا أن نذكر المدىٰ الفسيح الذي تحتله هذه العصور ، عصور ما بين سقوط بغداد وبَدْء النهضة.

ومهما يكن من أمرِ سماتِ الانحطاط لهذه العصور ، فإنَّ ذلك لا يمكن أن ينهضَ حجةً علىٰ هذا الاتجاه الذي اتجه إليه الدارسون ، حين جعلوا من هذه القرون الكثيرة المتطاولة عصراً أدبيّاً واحداً ، ولكننا يجب أن ندركَ أنَّ هذه الفترة كانت فترةً تأصّلت فيها الثقافة الإسلامية ، وكان للشعر والنثر تقاليد تتبع ، وأمثلة تحتذىٰ ، ومؤلفون يكتبون ويجمعون ، إنَّ هذه العصور لم تكن جفافاً مطلقاً ، ولا انحطاطاً عامّاً. . علماً بأنه لم تصدر حتّىٰ اليوم دراسةٌ واحدةٌ لها بعض صفات البحث العلمي وشرائطه.

وأما عن الحيِّز المكاني الذي تشغله هذه العصور ، فهو من أقصىٰ الشمال الذي امتدَّ إليه العرب في الأندلس إلىٰ أقصىٰ الشرق في أعماق آسية.

ومن الذي يستطيع من دارسي الأدب أن يتمثّل فترةً لها كل هذا الامتداد في الزمان ، ولها كل هذا الامتداد في المكان ، ثم يتقبَّلُ في يُسْرٍ ما يفعله دارسو الأدب العربي حين ينظرون إلىٰ كلِّ هذه الأرض في كلِّ هذه العصور نظرةً واحدةً؟!.

ويبدو أنّ شيئاً من رهبة البحث العلمي قد أدركت الباحثين ، فجاؤوا بعدُ يقسّمون هذه العصور إلى مرحلتين:

المرحلة الأولىٰ: العصر المغولي ، ويذهب بعضهم إلىٰ تسمية هذه الفترة بالدور المملوكي ، وتمتدُّ هذه المرحلة بين سقوط بغداد سنة (٦٥٦هـ) حتىٰ دخول العثمانيين القاهرة سنة (٩٢٣هـ).

أما المرحلة الثانية فأسموها : الدور العثماني ، وتبدأ بدخول العثمانيين القاهرة حتىٰ استيلاء نابليون عليها في حدود سنة (١٢١٣هـ) .

إنّ هذا التقسيم يرسم بين أيدينا أطلالاً باهتة علىٰ طريق طويلة غامضة . . خاصة وأنَّ ما نُشِرَ من مطبوعاتٍ عن تلك الفترة يكاد يكون ضئيلاً أمام ما نشر عن العصور الأخرىٰ .

وأمّا ما قيل عن أصالة العصور الأخرىٰ فهذا لا يمنعُ أن نجد الأصالة في هذا العصر ، ولكلٍّ ورقةٍ من هذا التراث في عصره ودوره ما للأخرىٰ من فضل وأثر» .

ويقول أستاذنا في أسباب ضآلة الاهتمام بهذه العصور :

«في رأيي إنّ ذلك يعود في جانبٍ أساسي من تعليله إلىٰ طبيعة الآثار التي أُلّفت في نطاق الأدب ، ومعنىٰ التأليف كما فهمه أصحابه حينذاك . . فلم يَعُد هنالك إلا في القليل عمل أدبي صِرْفٌ لا يقصد إلا الأدب في معناه الفني ، وإنّما اختلط الأمرُ اختلاطاً عجيباً في أذهان المؤلفين وعلىٰ أقلامهم بين مدلول الثقافة العامة وبين مدلول الأدب .

وفي وسعنا أن نضرب المثل لذلك بكتابين اثنين : «نكت العميان» للصلاح الصفدي من رجال القرن الثامن ، وكتاب «سرح العيون» لابن نباتة ، وهو من رجال القرن الثامن أيضاً .

أما كتاب «نكت العميان» وهو في الأصل كتاب تراجم ، ففيه مقدّماتٌ عشر عن العمىٰ ، وما يتعلّق به من شعر ونثر ، وفقه وتاريخ ، وتفسير ، ونوادر وذكاء العميان ، ونكاحهم ، ثم يورِدُ التراجم للعميان ، وهنا يظهرُ لنا الأمرُ بأننا لا نجد مثل هذا الزاد الأدبي في كتاب آخر .

وأما كتاب «سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون» لابن نُبَاتة ، فهو في الأصل كتابُ أدبٍ ، ولكننا نجد في شرح الرسالة إعراباً ، ولغةً ، وشواهدَ ،

واستطراداً ، وتراجمَ ، وحوادثَ ، وأخباراً . . والحق أنّ الثقافة العربية عَرَفت من قبلُ هذا الجمع بمعناه العام ، وهو الأخذ من كلِّ علمٍ بطرف» .

وذكر أستاذنا «أنَّ العامل الأساسي الذي ساق التأليفَ هذا المساق هو تكدُّس التراث الأدبي طبقةً بعد طبقةٍ ، وجيلاً بعد جيلٍ ، واتسعت ذاكرةُ الجماعةِ العربيةِ الشعرية ، فلمّا جاء شاعِرُ عصر الانحطاط ، وجد بين يديه هذه الإضافات السخية الخصبة ، وهذه الثروة الثرية ، ولكنّه أدركه بعضُ القصور في الطبع ، وبعضُ الجفاف في القريحة ، وبعضُ الأذىٰ في ظروف العيش ، وكثير من التقهقر الذي لفَّ الحياة في كثيرٍ من جوانبها ، فاستلب منها الرونق والنداوة ، وأبقىٰ علىٰ النبتة جافة حيناً ، وهشيماً حيناً . . ومثل الذي كان في الشعر كان في النثر كذلك .

والذي يبدو بوضوحٍ أنَّ التراث الأدبي لم يقدَّرْ له أن يزكو ، وإذا كان أديبُ عصرِ الانحطاطِ لم يستطعْ أن يحقِّقَ شيئاً ذا بالٍ في الاتجاه الرأسي في إنشاء الشعر والنثر ، فقد استطاع هذا التراثُ الثقافيُّ المتكدِّسُ نفسُه أن يحقق أشياء في الاتجاه الأفقي ، فإذا هو يحاولُ في كلِّ نطاق الحياة الأدبية في الشعر والنثر أن يتحدّث عن كل شيء .

وتبدو لنا ظاهرةٌ هامةٌ في هذا اللون من التراث الأدبي ، اللون الذي يقوم علىٰ الجمع بين الأشياء ، ومحاولة التأليف بينها علىٰ تباعدها ، وهي ظاهرةٌ واضحةٌ في هذه الفترة ، لأنّها أثرٌ من آثار هذا الغنىٰ الثقافي» .

ويختم أستاذنا بحثه بقوله :

«من هذا كله يستديرُ بنا البحثُ مرة أخرىٰ إلىٰ بدايته التي انطلق منها ليؤكّدَ هذه الحقيقة الأساسية ، التي ننتهي إليها ، وهي أنَّ سبباً قويّاً من أسباب القصور الذي نلمحه في عنايتنا بآثار عصور الانحطاط نشراً وتحقيقاً ودراسةً يعود إلىٰ هذه الآثار ليست وحيدةَ الموضوع ، هي حين تكون في التاريخ ليست التاريخ وحده ، وحين تكون في صناعة الإنشاء ليست في الإنشاء

وحدَه. . . من هنا لم يكن نشر هذه الكتب وخاصة الموسوعات الضخمة منها هيناً يسيراً».

ونستخلص من بحث أستاذنا أنّ بقاء هذا التراث الكبير الغني علىٰ الرفوف من غير أن تمتدَّ إليه أيدي الباحثين والمحققين ، لن يحقِّقَ لنا الوصول إلىٰ نتائج متكاملة عن هذا العصر.

* * *

٥ ـ دراسة كتاب روح (القدس في محاسبة النفس) للشيخ محيي الدين محمد بن علي بن عربي[١]

هذه الدراسةُ بحثٌ مستفيضٌ ألقاه أستاذنا في معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة (١٩٦٨م) في الندوة الأندلسية عن ابن عربي ، وهو في مقدمة وخمسة فصول وخاتمة.

في المقدمة ذكر أنّه لم يتناول في بحثه الرجلَ من حيث فلسفته ، وإنّما علىٰ النحو الذي بدا منه في كتاب من كتبه هو (روح القدس) ، ومن ثَمَّ التعريف بهذا الكتاب وإبراز قيمته الكبرىٰ ، كأثرٍ إنسانيٍّ رفيع ، وأدبيٍّ رائع ، ووثيقةٍ صوفية ، وأسلوب تربوي ، فكان من ذلك أن غلَبَ علىٰ البحث المزيجُ الجديدُ من ألوان الدراسة الأدبية والاجتماعية ، موصولةً بالدراسات النفسية ، ليدلَّ علىٰ أنَّ منهجَ ابن عربي في هذا الكتاب هو الوصولُ إلىٰ الحق ، ونشدان الخيرِ ، وصدق البيـان ، وأنْ يـسخِّرَ كلَّ ما أوتي من قدرة علميـة وأدبيـة ليكون ذلك طريق النـاس إلىٰ الله ، وسبيـلَ النفوس إلىٰ الخير.

وفي الفصل الأول تحدّث عن القيمة الأدبية للكتاب ، وأكّد أنَّ «روح القدس» أقربُ إلىٰ أن يكونَ متحلّياً بسماتٍ من الأدب منه إلىٰ أن يكون كتاباً منقطعاً لقضايا التصوف.

---

(١) يقع في ٤٦ صفحة+ ٦ صفحات باللغة الفرنسية، طبع بالآلة الكاتبة عام (١٩٦٨م).

وفي الفصل الثاني: خَصَّص بحثه للقيمة الاجتماعية للكتاب ، فهو وثيقةٌ اجتماعيةٌ عن النصف الثاني من القرن السادس الهجري لبعض جوانب المجتمع ، وخاصة التصوف منه.

وأما الفصل الثالث: فقد تحدّثَ عن القيمة التصوفية في الكتاب ، وتتمثل في أنّه وثيقة صوفية من الوثائق النادرة ، التي تملأ القلب والعقل معاً ، ويمكن للقارئ أن يتعرّف إلىٰ هذه الطبقة من شيوخ ابن عربي الذين أدَّبوه وهذبوه منذ بداية أمره.

وفي الفصل الرابع: يبيّن أستاذنا قيمةَ الترجمةِ الذاتية لابن عربي ، وأثرها في هذا الكتاب ، ففيه نتعرَّفُ علىٰ بيئته الاجتماعية ، وشيوخه الأوائل ، وأثرهم فيه ، وسلوكه مع شيوخه ، وموقفه من الفقهاء ، وأسلوبه الفكري ، ومواقفه من بعض السلاطين ، وأدعيته ، وبعض كتبه.

وفي الفصل الخامس: يتحدّث عن القيمة التربوية التهذيبية في هذا الكتاب ، وهي قيمةٌ جديدةٌ تملأُ كلَّ صفحاته ، فالغاية من تأليف الكتاب أن يدفع الناسَ نحو مكارم الأخلاق ، وأن يدلّهم علىٰ الطريق إلىٰ الله ، وليكشِفَ عن معايب النفس وغرورها ، أوضح ذلك ابن عربي في مقدمة كتابه بقوله: «ومقصودي بهذه الرسالة إبراز معرفة نفسية وربانية تحرِّضُ علىٰ الكلم الطيب والعمل».

لم يسلك ابن عربي في نهجه التربوي هذا الطريق المباشر بالتقرير والأمر والنهي ، ولكنّه اتبع أسلوبَ الحكاية ، والحوار ، والأمثلة ، والتدرج في البرهان.

ويختم أستاذنا بحثه في **الفصل السادس** عن القيمة العلمية للكتاب من حيث السماع عند الصوفية ، والشعر ، والمعرفة ، والنبوة.

وقد ترجم هذه الأمورَ كلَّها عن أهمية الكتاب بموجزٍ باللغة الفرنسية ألقاه علىٰ الحاضرين في الندوة.

* * *

٦ ـ خير الدين الزركلي بين الشعر والنثر[1]

أقام النادي العربي بدمشق في كانون الثاني (١٩٧٧م) حفل تأبينٍ للشاعر الوطني الرقيق ، والناثرِ المبدع ، والمؤرّخ الموسوعي خير الدين الزركلي الذي توفّي في القاهرة في (الثالث من ذي الحجة ١٣٩٦هـ = ٢٥ تشرين الثاني ١٩٧٦م)، وتكلّم في هذا الحفل عدد من العلماء والأدباء والأصدقاء ، فتحدّثوا عن سيرة الفقيد العلمية والشعرية والتاريخية .

وكان الموضوعُ التي تحدّث فيه أستاذُنا عن الشاعر الزركلي : (بين الشعر والنثر)، وبدأها بصلته ومعرفته به :

«كان في قلبي وعيني وأنا أدرجُ علىٰ أوّل طريق الحياة شعرُ الزركلي ، ثم كان في قلبي وعيني وصحتي وذهني وأنا فتًى أدرجُ علىٰ طريق العلم بين دمشق والقاهرة . . نثرُ الزركلي» .

ثم تحدّث عن حياة الشاعر : طفولتِه ، شبابِه ، بداياتِه الشعرية والنثرية ، وقيمتها الفنية عنده ، فقال :

«كانت ربّات الحكمةِ هي التي شاركت كذلك في صياغتِه منذُ بدايته المبكرة ، وكأنّما نفخ في روحه مَلَكانِ : المَلَك الذي زوّده القدرةَ علىٰ الإبداعِ الموفّق في ميدان الكلمة المنظومة ، والمَلَكُ الذي زوّده بالبيانِ المشرق في ميدان الكلمةِ المنثورة .

إننا نُؤْخَذُ حين نقرأُ شعرَ الزركلي ، ذلك النمط من رفيعِ البيانِ ، وروائع التصوير ، ونيّر الأداء ، لم يبقَ من القادرين عليه إلاّ القلّة . . إنك تحارُ حين تقرأُ الزركليَّ شاعراً وحين تقرؤه ناثراً ، فكيف يُسِّرَ لهذا الجيلِ من رجال البيان عندنا ـ كشفيق جبري وخليل مردم ـ أن تكونَ لهم هذه القدرةُ

---

(١) بحث عن الشاعر خير الدين الزركلي بمناسبة الحفل التأبيني الذي أقيم بدمشق سنة (١٩٧٧م) ونشر ضمن كتاب : علم الأعلام ، من ص ٦٥ ـ ٨٦ .

المزدوجة ، وأن يكونَ نتاجهم هذا الدينارَ المجلوَّ المصقولَ الواضح ، كتبوا علىٰ إحدى صفحتيه شعرهم ، وكتبوا علىٰ صفحته الأخرىٰ نثرَهم .

لا أزال أذكرُ ما كان من صلتي بآثار الزركلي منذ الحداثة . . كنتُ أحسُّ فيه هذا الشعرَ الدافئَ اللاهثَ ، وكنتُ أقرأُ وأكرِّرُ القراءة :

عصفورةُ النيربينِ غَنّي — وارْوِي حديثَ الأنينِ عَنّي
أنا المُعَنّىٰ وما المُعَنّىٰ — غير حنينٍ أذابَ منّي
شغافَ قَلْبِي وَحُسْنَ ظَنّي» .

ومن المختارات التي استشهد بها أستاذنا الأبيات التالية من القصيدة التي صدّر بها ديوانه :

يَجْنِي وأَشْكُرُ في الهَوَىٰ يَدَهُ — وَطَنٌ شقِيْتُ بهِ لأُسْعِدَهُ
آلَيْتُ لا بَالَيْتُ بي أَلماً — وَبِهِ دَمٌ حتّىٰ أُضَمِّدَهُ
يَوْمِي لـه ، وَغَديْ لَهُ هبةٌ — وعَسَايَ أَحْمَدُ في غَدِي غَدَهُ
كَمْ لَيْلَةٍ سَامَرْتُ أَنْجُمَها — مُتَرَقِّباً في الشَّرْقِ فَرْقَدَهُ
أَرْعَىٰ كَواكِبَها وأَرْصُدُهُ — مُتَحَجِّباً عَمَّنْ تَرَصَّدَهُ
وَيْحَ السِّيَاسَةِ فِي تَقَلُّبِها — يَسْلُوْ الحَلِيْمُ تَجَلُّدَهُ

ويقول أستاذنا عن رائعة ميسلون «العذراء» التي أولها :

الله للحدثانِ كيفَ تكيدُ — بَرَدَىٰ يفيضُ وقاسيون يَمِيْدَ

«كانتِ القصيدةُ التي تمتدُّ علىٰ طولِ حياتنا . . في المدرسةِ والنادي والبيتِ . . .» .

ثم يتحدّث عن نثر الزركلي في كتابيه : «ما رأيتُ وما سمعتُ» و«عامانِ في عمّان» وأنّهما الخلفيةُ الفكريةُ والتجربةُ الواقعيةُ مشوبين بكثيرٍ من الشِّعْرِ .

«لقد جاوزَ الزركليُّ في إنتاجه فهمَ النثر ، هذا الفهمَ الضيّقَ الذي ألفناهُ ، والذي تعوّدنا أن نعدِّدَ منه في الماضي : الرسالةَ ، والخُطبةَ ، والمقالةَ ، والمقامةَ ، ثم تعوّدنا بعد أن نضمَّ إليه الفنون المستحدثة التي نشأت علىٰ

هامش القصة. . وأغفلنا جانباً هامّاً من النثر ، هو هذه الكتاباتُ التاريخيةُ أو الجغرافيةُ أو الاجتماعيةُ[1] التي عُرضت في ثوب أدبيٍّ أنيقٍ ، ونَفَسٍ تعبيريٍّ مبدع. . . ومن تجاوزَ ما بين الشعر والنثر في أعماق الزركلي ، ومن تجاوزَ مفهوم النثر بمعانيه الضيقة ، اتجه الشاعر الناثر ، أو لنقل اتجه هذا الأديبُ العالم إلىٰ محاولاته الأولىٰ في أن يقدّمَ للنهضة العربية شيئاً اشتدّتْ حاجتُها إليه ، هو تراثها علىٰ نحو مجلوٍّ مصقولٍ. . فكانت المحاولةُ الأولىٰ من كتابه «الأعلام» وكان مناراً لدراستنا كلّها ، يستمدُّ من معينٍ لا ينضب ، ويُمَدُّ بالمعين الذي لا ينضب.

ويبقىٰ أَنَّ وَجْهَ التمييز والإبداع في نثر الزركلي أنَّ أسطراً معدوداتٍ يكتبُها عن صاحبه الذي يترجِمُ له ـ في الأعلام ـ تأتي ملمةً بحياته ، محيطةً بها ، جامعةً لأحداثها ، مضيئة لجوانبها ، من خلالِ فكرٍ نيّرٍ ناضرٍ ، وأسلوبٍ قوي سمحٍ ، وَعْرضٍ منطقي متماسك ، وعبارةٍ هي إلىٰ روحِ الشعرِ أقربُ».

* * *

٧ ـ اللغة العربية خلال ربع قرن
في ميدان التعلم والتعليم
الأزمة وعللها الأوائل ـ اقتراحات أساسية لمعالجتها[2]

أقام اتحاد مجامع اللغة العربية ندوته في عمَّان بدعوةٍ من مجمع اللغة العربية الأردني وذلك في الأيام (من ٣١/ ١٠ إلىٰ ٤/ ١١/ ١٩٧٨م)، وكان موضوعُها الذي دُعي إليه عَددٌ من الخبراء لمعالجته «اللغة العربية خلال الربع

---

(١) قلت: ويضاف إليها أيضاً الكتابات المتعلقة بالعلوم الإسلامية كالفقه وأصوله والتفسير وعلوم القرآن ، والحديث وعلومه وفقهه ، ألم يقل الجاحظ يوماً: «نظرتُ في كلام هؤلاء النبغة فلم أر أحسن كلاماً من المطلبي (الإمام الشافعي) كأنّ لسانه ينثر الدرّ»! (ن).

(٢) طبع بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٥٣ ، من الصفحة ٧٤٠ ـ ٧٦٤.

الأخير من هذا القرن» وبَحْثُ أستاذنا ـ رحمه الله ـ هذا أحدُ الأبحاثِ التي أُعِدَّتْ لهذه الندوة.

أراد الدكتور شكري أن يضيفَ إلىٰ عنوان الندوة: «اللغةُ العربيّة خلال ربع قرن» قوله: «في ميدان التعلم والتعليم» ذلك أنّ اللغة في مجتمعنا العربي المعاصر تؤلِّفُ قضيةً من أخطر قضاياه وأكبرِها، لأنَّها تمتدُّ علىٰ رقعةِ الوطن العربي كلِّه، وعلىٰ تاريخه البعيدِ والقريب، واللغةُ هي الوسيلةُ الأُولىٰ للبناء الحضاري، إذا ذكرنا ذلك أدركنا أنَّ موضوع اللغة العربية يداخِلُ تفكيرنا كلَّه، وعملنا كلَّه، ووجودَنا كلّه.

إنَّ موضوعَ العربية خلالَ ربع قرنٍ في تعلّمها وتعليمها يتناول في معالجته أربعة أمور: ١ ـ المعلم، ٢ ـ الطالب، ٣ ـ المنهاج، ٤ ـ الكتاب.

والواقع أننا في كلِّ بلدٍ عربي أمامَ أعدادٍ كبيرةٍ من **المعلّمين والمدرّسين** الذين يتكفّلون تعليمها، وأمامَ أعدادٍ هائلةٍ من التلاميذ والطلاب والدارسين الذين يتكلّفون تعلُّمها.. ولماذا تنشأُ أزمةُ اللغة العربية ونحن ننطلق من تقديسِ اللغة، وبأنّها لها أكبرُ الأثرِ في وحدة الثقافةِ والمشاعرِ، وهي الطريق الوحيد إلىٰ ما ننشده من وحدة العرب السياسية، وتجديد الحضارة العربية، ومواكبة التطور الإنساني؟!.

إنّ عرضَ الواقع اللغوي العربي يثير كثيراً من الأسئلةِ، لماذا لا تُحَقِّقُ العمليةُ التعليميةُ أهدافَها كلها؟ لماذا لا تأتي النتائجُ كِفَاءَ الجهودِ؟..

وحين يكونُ **الطالِبُ** مكانَ الاهتمام والرعاية، ويكونُ **الكتابُ** موضعَ العنايةِ والتجديد، ويأتي **المنهجُ** نتيجةَ مدارساتٍ طويلةٍ متعمقةٍ، ويكونُ **المعلمُ** نتيجةَ إعدادٍ وتأهيلٍ؛ فلماذا تكونُ النتائجُ إلىٰ ضمورٍ وقصُورٍ وانحرافٍ؟!.

ويعدِّدُ أستاذُنا الحلول لهذه القضية فيقول: «**أوّلُ المبادئ**:

أنْ تجتمعَ لغةُ المعلّمين جميعاً على هذه العربيّة الميسَّرة البسيطة.

وأَنْ يُعطَىٰ المعلمون والمدرّسون جميعاً أقدارَهم المتماثلة المعنوية والمادية.

وأنْ نُؤْمِنَ أنَّ المعلِّمَ في المدرسةِ الابتدائية خاصّةً هو أبرزُ عناصِر التجربةِ اللغويةِ، ولذا يجبُ علينـا أن نيسّرَ له كلَّ الظروف التي تساعِدُه في أداء مهمته.

أما في المرحلة الجامعية، فتختفي اللغةُ العربيةُ لا في التعليم وحدَه وإنّما كذلك في الاستعمال، وراءَ حجابٍ كثيفٍ من اللغاتِ الأجنبية، وخاصّةً في الأقسام العلمية»[1].

ويخلصُ الأستاذُ إلىٰ نتيجةٍ هامةٍ، هي «أنَّ الجهودَ اللغوية تتناقضُ وتتقاطع في المرحلة الابتدائية، وتُسْتَرقُّ وتُمْتَصُّ في المدرسة الثانوية، وتُغتال في المرحلة الجامعية.

وفي المجتمع: تسودُ العاميّة، وبالتالي وصلنا إلىٰ ظاهرةِ الازدواجيةِ اللغوية بين المجتمع والمؤسسات العلميةِ.

وهناك السلاحُ القديمُ الجديدُ وهو وسائلُ الإعلامِ التي استطاعت النفاذ إلىٰ عقولِ الناسِ وقلوبِهم، إلىٰ ألسنتِهم ومنطِقهم.

وإذا كان لوسائل الإعلام هذا التأثيرُ، فإنّها باستطاعتها أن تواكِبَ المسيرةَ اللغويةَ، تسانِدُها ولا تعارِضُها، وذلك بأنْ تكونَ سلامةُ اللغة أصلاً من أصولِ العملِ الإذاعيِّ، وأن تراقَب الأحاديث المذاعة وتصحَّح، وأن نتدرّجَ في تقليبِ السلامةِ اللغويةِ علىٰ النصوصِ الفنيةِ كالتمثيليات والمسرحيات والمسلسلات».

ثم يؤكِّدُ أستاذُنا في نهاية بحثه أنَّ عمل اتحاد المجامع في تحقيق السير الصحيح في الأداء اللغوي هو العملُ الأساسيُّ الذي لابدَّ منه.

* * *

---

(١) من الجدير بالذكر أن تدريس (اللغة العربية لغير المختصين) في الجامعة لم يحقق الغايـة المتوخـاة منه، وهي تجربـة بحاجة إلىٰ تقويم وتطوير لتصل إلىٰ المستوىٰ المطلوب؛ آخذين بالاعتبار المعلم والمتعلم والمنهج والأسلوب (ن).

٨ ـ المؤتمرات والندوات التي عقدتها المنظمات والهيئات العربية حول تعريب التعليم الجامعي في مجالات المصطلح العلمي والترجمة والتأليف عرض ودراسة[1]

هذه الدراسةُ قدّمها الأستاذ الذكتور شكري إلىٰ ندوةِ تعريب التعليم الجامعي المنعقدة بجامعة الرياض (٧ ـ ١٠/ ٢/ ١٩٨١م).

ترجعُ أهميةُ هذا الموضوع إلىٰ أنّه لا يمكِنُ أن يتيسّر لباحثٍ مهما يكنْ من متابعته السابقة له، وصلاته به، وذلك لأنه يشمل هيئاتٍ ومنظماتٍ كثيرةَ التنوُّعِ والتعدُّدِ، ولأنّه يتناوَلُ موضوعاً شغلِ ما يزيدُ علىٰ سبعين سنة عدداً من الهيئاتِ والمؤسساتِ الثقافيةِ تتعسَّرُ الإحاطةُ بها، ثم هو موضوعٌ يتشعّبُ في مجالاتٍ ثلاثة هي: **المصطلحُ**، **والترجمةُ**، **والتأليفُ**، واستيفاءُ ذلك ليس بالأمر السهل لباحثٍ واحدٍ من خلال ما يملكُ من جهد أو وثائق.. فهو يحتاجُ إلىٰ زياراتٍ كثيرةٍ إلى المراكزِ والأقطارِ، وقد أوتي الدكتور شكري رحمه الله القدرةَ التي تمكّنه من الإحاطة بهذا الموضوع، فهو كثيرُ الترحالِ، إضافةً إلىٰ أنّه كان المعتمدَ في حضورِ الندوات العلمية والتعريبية التي تقيمُها المجامعُ اللغوية، والمراكزُ الثقافية في العالم العربي، وندواتِ المستشرقين.

قسّم الدكتور الموضوع إلىٰ ثلاثة أقسام:

١ ـ مدخل تاريخي.

٢ ـ جهود الهيئات والمنظمات: محاولة عرض وصفي وتقييمي.

٣ ـ نتائج وملاحظات واقتراحات.

---

(١) طبع في مطبعة جامعة دمشق عام (١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م) في ٥٥ صفحة.

● مدخل تاريخي:

إنّ من المؤكد أنَّ قضيةَ تعريب التعليم عامةً ، وتعريب التعليم الجامعيِّ بوجه خاصٍ تقفُ في رأس القضايا الثقافية التي شَغَلَتِ الفكر العربي التربوي ، والمتتبّعُ لما كتب في ذلك ، أو نشر عنه ، وما عُقِدَ له من ندوات ومؤتمرات يجدُ أمامه أكداساً من المذكّراتِ والأبحاثِ والمقالاتِ والتقارير ، ذلك أنّ الأمة العربية منذُ أخَذت تبحثُ عن ذاتها الضائعة ، ومنذُ أخذت تتلمَّسُ العامل الأساسي الذي كان له فضلُ بقائها ، ومنذ طرحت قضية الأصالةِ والتبعيّة كانت اللغة العربية وسيادتها وانتشارها هي أظهر قضايا الفكر العربي ، وكان الحديثُ عن اللغة أحدَ الميادين التي صارع فيها العربُ أعداءهم ، فالهجماتُ الاستعمارية منذ بداياتها كانت حريصة علىٰ أن تصيبَ الوجودَ العربيَّ في نقطة القلب فيه: الدين واللغة ، ومن هذه الهجمات الحملات التبشيرية والاستشراقية.

وقد واجه العربُ في آخر الحكمِ العثماني أحزاباً وجماعاتٍ حاكمة تركية حَرِصَتْ علىٰ التتريك ، وهذا دفعَ العربَ إلىٰ الموقف النقيض ، فكان الحرصُ علىٰ وجود اللغة العربية وسيادتِها مطلباً من المطالبِ التي أجمعت عليها الجمعيات العربيةُ قبل الحرب العالمية الأولىٰ ، ثم تلا ذلك الاستعمار الفرنسي والإنكليزي اللذان أرادا أن يطمسا الذات العربية ، مما أدّىٰ إلىٰ مقاومة هذا القهر بأشكال مختلفة.

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية تخلّصت الأمة العربية من التبعية السياسية ، ولكنّها ظلت كلها مستهدفةً للتبعية الثقافية ، فسعىٰ الغربُ المستعمِرُ لإحياء اللغات الميتة ، وتشجيع اللهجات المحلية ، مما أدّىٰ إلىٰ تفجُّرٍ داخلي في ذات اللغة ، ينفي عنها ما عَلِقَ بها من مظاهر الضعف ، ويريدُ منها أن تكونَ لغة حضارةٍ ، فليس عجباً أن تكثر الأبحاثُ والدراساتُ ، وأن تعقدَ لها الندواتُ والمؤتمراتُ ، وخاصة لتعريب التعليم في كلِّ مراحله ، ومن ثَمَّ تعريبُ التعليم الجامعي.

● **جهودُ المنظمات والهيئات في مجال التعريب:**

أولاً ـ المجامع اللغوية: فمجمّع دمشق أُسس سنة (١٩١٩م)، وكان التعريبُ هو هدفه، فأولاه عناية خاصةً، للتخلّص من آثار اللغة التركية، ووضع المصطلحات العلمية لكليتي الطبّ والحقوق، وحين استكملتِ الجامعةُ السوريةُ فروعَها كلَّها، كانت سوريةُ وحدَها من بين الأقطارِ العربيةِ التي تدرّسُ كلَّ فروع المعرفة العلمية والأدبية كلّها باللغة العربية.

وأمّا مجمع القاهرة فكان عملهُ الحفاظَ علىٰ اللغة العربية، وعلاجَ كثيرٍ من قضاياها، وإصدارَ مجموعةِ المصطلحاتِ العلميةِ والفنيّةِ، التي تضم آلافاً من المصطلحات.

تبع ذلك نشأةُ مجمع بغداد، فمجمع اللغة العربية الأردني، وأخيراً نشأة اتحاد المجامع العربية، فأصدر مجمعُ بغدادَ عدداً من الكتب عن المصطلحات العلمية، وكذلك مجمع الأردن.

ثانياً ـ الجامعات: أكَّد الدكتور شكري في حديثه عن الجامعات أنّه لا يزالُ الكثيرون من الجامعيين يتردّدون في اتخاذ الخطوة الحاسمة لتعريب التعليم الجامعي، وأنّ الجامعات في حاجةٍ إلىٰ القرار السياسي، ويجب دراسة التجربة السورية في تعريب التعليم الجامعي.

ثالثاً ـ جامعة الدول العربية: وهي تضمُّ عِدّةَ منظمات، منها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وتحدّث أستاذنا عن أثر المكتب الدائم لتنسيق التعريب في المغرب، فصدرت عنه (مجلة اللسان العربي)، ومهد لمؤتمرات التعريب، وأشار إلىٰ عمل لجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية، وتحدّث عن منظمة العمل الإدارية، وإصدارها عدداً من الكتب في المصطلحات الإدارية.

وبحث بتفصيل في أعمال مؤتمرات التعريب: المؤتمر الأول في الرباط سنة (١٩٦١م)، والمؤتمر الثاني في الجزائر سنة (١٩٧٣م)، والمؤتمر الثالث في طرابلس ليبية (١٩٧٦م).

ثم تحدّث عن الندوات في الوطن العربي؛ منها: أسبوع التعريب في المغرب (١٩٦٣م) ، وندوة الثقافة العربية للتعريب في طرابلس (١٩٧٥م)، ومؤتمر تعريب التعليم العالي في الوطن العربي ببغداد (١٩٧٨م) ، وندوة التعريب في الجزائر سنة (١٩٧٩م).

● تقويم وملاحظات واقتراحات:

انتهىٰ أستاذنا إلىٰ أنّ العمل في تعريب التعليم الجامعي من صفاته كثرة الجهود وتنوعها ، وتراكم هذهِ الجهود وتشتتها ، وغياب مركز الدائرة.

ويختم دراسته بقوله: «**إنّ دخولَ الجامعاتِ العربية ميدانَ التعريب ، وقناعتها به ، وعملَها له ، هو الذي يضعُ حدّاً لكلِّ ما كان من تنوّع الجهود وتشتتها ، وهو إنقاذٌ للفكر اللغوي العربي ، بمنهجيّةٍ واضحة في التعريب ، ووضع برنامج زمني للوصول إلىٰ الغاية المنشودة**».

* * *

٩ ـ نحو وجهة جديدة في إيضاح إعجاز القرآن: فكرة ودعوة[1]

هذه الدراسةُ محاضرةٌ ألقاها الدكتور شكري في الملتقىٰ الخامس عشر في الجزائر ، ذكر فيها أنَّ قضية إعجاز القرآن شغلت جماعاتٍ من العلماء ، وكُتِبتْ في ذلك كتبٌ مستقلة ، وأبحاثٌ مفردة ، كما كتبت أبحاثٌ أخرىٰ في نطاق علم التفسير. . وتتالت الدراسات في ذلك ، وتضاعفت ، وخاصة في العصور المتأخرة ، في ضوء ما كان من نحو الدراسات النفسية والإنسانية والاجتماعية ، وما لقي الإسلام وأهله من هجمات ، وكانت الكشوفُ العلميّةُ التي جاءت متطابقةً مع آيِ القرآن الكريم كاشفةً عن سَبْقه ، مؤكدة أنّه من عند الله تعالىٰ ، كان لذلك كلِّه أثره في تجديد الدراسات القرآنية من هذا النحو وإغنائها.

---

(١) دراسة مختصرة صدرت عن وزارة الشؤون الدينية بالجمهورية الجزائرية في (١٣) صفحة من القطع الكبير علىٰ الآلة الكاتبة.

وتحدّث الأستاذ في هذا الموضوع فذكر موقف المسلم المعاصر من قضية الإعجاز ، وأثر هذا الإعجاز في الحياة الاجتماعية ، ودعوة القرآن إلى مجتمع إنساني جديد ، وفي تدبّر المسلم للآيات القرآنية ، يجد الغيبيات ، والإعجاز العلمي ، والإعجاز البياني ، والإعجاز العددي ، والموقف الذي يهتدي إليه المسلم المعاصر من خلال قراءة القرآن ذاته ، ليجدَ اهتمام القرآن بالمجتمع الجديد الذي يقومُ علىٰ بناء أفراده ، وأنَّ الإعجاز يشمل الفرد ، ويشمل الحياة الاجتماعية بمبدأ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ثم تحدّث عن النظرية الاجتماعية في الإسلام وارتباطها بالإعجاز القرآني ، ويعني بالحديث عن الإعجاز الاجتماعي المجتمع وأفراده ، والعدالة الخيّرة ، وذلك بدعوة الناس إلىٰ إسقاط العصبيات ، والدعوة إلىٰ السلام ، وتحمّل الفرد مسؤوليته ، وأنَّ الناس سواءٌ ، لا فضل إلا بالتقوىٰ ، والدعوة إلىٰ الله بلا إكراه ، وعلىٰ الإنسان أن يفكّر ويتدبّر ، وأنَّ التوحيد أعلىٰ القيم الفكرية .

والمتتبع لنصّ هذه المحاضرة يجدُ أنّ هذه النتائج استخلصها أستاذُنا من خلال تلاوته الدائمة وتدبره لكتاب الله عز وجل ، وكثيراً ما كان يطلبُ منا في دروسه تدبّر القرآن ، وأن يخصص كلُّ طالبٍ جزءاً من يومه ليتلوَ القرآن ، ويمعن الفكر والتدبّر به ليصلَ إلىٰ حقائق الإعجاز .

* * *

١٠ ـ شفيق جبري : الشاعر والشعر[١]

كتب الدكتور رحمه الله هذه الدراسة في المدينة المنورة حيث كان أستاذاً للدراسات العليا في الجامعة الإسلامية ، وبعث بها إلىٰ المجمع لتكون مقدمةً لديوان شاعر الشام شفيق جبري .

---

(١) دراسة نشرت في مقدمة ديوان الشاعر: (نوح العندليب) ، من ص١٥ـ٥١ المطبوع ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة (١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م).

في بداية الدراسة ألقىٰ أستاذنا عدداً من الأسئلة عن الأسباب التي دعت الشاعر جبري إلىٰ تسمية ديوانه (نوح العندليب)، ويبدأ هذه الأسئلة: هل تكون هذه التسمية مفتاحَ التعرُّفِ إلىٰ شخصيته وشعره؟ وينتهي إلىٰ أنَّ نغمةً يائسةً أو يغطيها اليأسُ تظلُّ تصاحِبُ قارئَ الديوان وهو يتنقّلُ من قصيدةٍ إلىٰ قصيدةٍ، ومن موضوعٍ إلىٰ موضوعٍ، وأنَّ لحناً شجيّاً يظلُّ يراوِدُ السمعَ بين الصفحة والصفحة، فهل كان الحزنُ هو قرين الشاعر الذي لازمه؟.

ثم يقول: «**وفي تقديري أنَّ عاملاً ما في بداية الأمر دفع بشفيق جبري في مطلع شبابه إلىٰ شيءٍ من العُزلةِ، وأنَّ هذه العزلة حملت إليه شيئاً من الكآبة، وفرضت عليه أنواعاً من التأمل! ولكنّ هذه العزلة لم تكن عزلةً اجتماعية فحسب، وإنّما كانت فوق ذلك عزلةً ثقافيةً فكريةً فنيةً... هذه العزلةُ رافقها عاملٌ آخر ساعد علىٰ إشاعةِ الكآبةِ في روح الشاعر، كان عاملاً خارجيّاً عربيّاً بسبب تأثير النزعة الرومانتيكية التي امتلكت مجموعةَ الشعراءِ الرومانتيكيين في أواخر العشرينيات، وفي الثلاثينيات خاصة.. إلاّ أنّ جبري لم يكن هذا الرومانتيكي الحالم، كان فيه شيءٌ من الرومانتيكية، ولكنْ كان فيه من النظر العقلي، وتمجيد العقل، وإيثارِ الفكر، ومعالجةِ الواقع، واصطناع الحكمة، بقدر ما فيه من شرود الرومانتيكية أو غلبتها، كان الإنسان العربي الذي صنعته الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية إنساناً متكاملاً، إنّه مثلاً دعا إلىٰ الوحدة بعقله وبقلبه، ودلّل كذلك وأرشد:**

إنّما العُربُ وَحْدَةٌ والتفافٌ كلُّ غصنٍ يلفُّ في الرَّوْضِ غُصْنا»

أما عن شاعريةِ جبري وتجديدِه فنجد ذلك في حديثه عن ذاته بذاته في كتابه «أنا والشعر» وتحدّث أيضاً عن تجاربه النثرية في كتابه الآخر «أنا والنثر» ويبدي الدكتور شكري إعجابَه بهذين الكتابين، وتقديره لهما، فهما سيرة ذاتية من نوع خاص تفرّد به جبري.

وعن المراحل في شعر جبري يحدّثنا أستاذنا عن ثلاث مراحل:

أولاً ـ مرحلة البواكير: الاحتذاء والمعارضة التقليدية ، فكان جبري ينظرُ إلىٰ قصائد بعض معاصريه نظرَ التقدير ، فبدأ شعرَه معارضاً.

ثانياً ـ مرحلة التجارب: التخلي عن المعارضة التقليدية ، والاتجاه نحو نوعٍ جديدٍ من المعارضة ، وهو ضربٌ من الاستيحاءِ ، عمدَ إليهِ جبري ، وخاصّةً حين تحدّث عن المتنبي وعن شوقي وحافظ في قصائده ، فهو في هذا الشكل الجديد ، لا يستحذي قصيدة معينة روحها وموسيقاها وموضوعها ، ولكنّه يستوحي آراء شوقي أو المتنبي أو المعري ومواقفهم.

ثالثاً ـ مرحلة النضج: نحو بناءٍ جديدٍ للقصيدة عند جبري. . وحدة القصيدة ، ويتمثّل ذلك في إحكام الصلة بين القصيدة (وخاصة المرثية) وبين المرثي.

● **مفهوم وحدة القصيدة عند جبري**: إنّ تعليقاته علىٰ قصيدته في مهرجان المتنبي ، وقصيدته الأخرىٰ في مهرجان المعري ، ثم قصيدته في مهرجان شوقي ، ثم قصيدته عن الرسول الأعظم ﷺ بعنوان: «صيحة النبي». . تعليقاته علىٰ هذه القصائد حافلةٌ بملاحظاته التي تفيدنا فائدةً كبيرةً في دراسة بناء القصيدة عند جبري ، فهو في هذه القصائد والقصائد الأخرىٰ شديدُ العناية بإبرازِ وحدة القصيدةِ ، وتناسقِ ما بين أجزائها.

وعن التجديد في شعر جبري يقول أستاذنا: «**إنّه كان حريصاً علىٰ أن يستجيب شعرُهُ لنزعاتِ التجديد ، ولعلَّ معرفته باللغة الفرنسية ، واتصاله بالثقافة الفرنسية وقراءاته في الشعر الفرنسي ، كان جديراً أن يقوده إلىٰ نوع من التجديد ، يخرجه بالقصيدة عن إطارِها التقليدي المعروف ، ولكنّ الأجواء المحافظة من حوله لا تساعِدُ علىٰ تفتّح هذه الرغبات وإروائها. وظواهِرُ هذا الصراع تمثّلت في محاولته ترجمة إحدىٰ قصائد هوغو.**

والصراع الذي عاناه جبري تناول أولاً الموضوعَ والأفكارَ فيه ، ثم الصياغة ، ولكنّه لم يستلهم الجديدَ فقط ، وإنّما استلهم القديمَ أو استعاره ، فاستقام له عمله علىٰ أساسٍ من المزاوجةِ بين الاستلهام والاستعارة.

هناك قضيةٌ كبيرةٌ في شعر جبري هي هذا التصعيد من أُفق العواطف الذاتية الخاصّة ، إلىٰ آفاقِ العواطف الوطنية العريضة ، لقد كان الوطنُ عندَه بلادَ العروبة . . وقد شغل هذا النوعُ من الشعرِ عند جبري حيّزاً كبيراً من إنتاجه ، حتىٰ ليؤلف أكثرَ شعره ، وبعضُ هذا الشعر كان تعويضاً عن شعره الغنائي في الذات أو المرأة وتصعيداً له» .

ويختم أستاذُنا دراسته بقوله : «**وإذا كان الناس قد اصطلحوا علىٰ أنّه شاعرُ الشام بحدوده القومية ، فذلك علىٰ معنىٰ أنَّ الشام هو البلد الذي زخر بالحركات الوطنية، ورعىٰ الحركة القومية، وأسهمَ إسهاماً واضحاً في النهضة الثقافية ، وصدر في أحزابه وجماعاته وفي نثره وشعره عن إيمانه بالوحدة ، وعمله الدائب لتأصيلها في أذهان الأجيال العربية ، وواقع الحياة العربية**» .

* * *

١١ ـ طه حسين : ذكريات ومواقف[١]

يتحدّث الدكتور رحمه الله في هذا المقال عن ذكرياته مع عميد الأدب العربي طه حسين وبعض المواقف التي عاصرها معه ، فبدأ مقالته بالتعبير عن وفائه لأساتذته ، ومنهم طه حسين ، الذي قال عنه :

«لم يكن عندي المؤلّفَ ولا الباحثَ ولا الناقدَ ، ولم يكن عندي الأديب الذي لا يجارَىٰ ، وصاحبَ البيان الذي لا يُضاهىٰ ، وإنّما كان ـ قبلَ ذلك كله ـ الأستاذ ، ولا يحتمل وفائي لأساتذتي أنْ ألقاهم بغير النظرة الحيية ، إنِّي لأغضي حياءً منهم ، وتوقيراً لهم ، وهي أحلىٰ في مجالات التقدير ، مِنْ أن تقدّم ذخرك النفسي كلَّه عطراً بين يدي مَنْ تُقَدّر وتوقِّر» .

ثم يتحدّث عن بداية معرفته به قبل أن يغادِرَ دمشق إلىٰ القاهرة من خلال قراءته لكتابيه : «الأيام» ، و«علىٰ هامش السيرة» وبعض المقالات المتفرّقة له في مجلة «الرسالة» .

---

(١) مقالة نشرت في مجلة المعرفة السورية ، العدد ١٥٣ ، نيسان ١٩٧٤م ، من ص٢٢ ـ ٣٣ .

وبعد مجيئه إلىٰ (القاهرة) ودخوله كلية الآداب ، التي كانت تضمُّ الرعيلَ الأول من العلماء الأعلام: طه حسين ، أحمد أمين ، عبد الحميد العبادي ، أمين الخولي. . لم يكن أمام هذا الجيل من أبناء الوطن العربي الذي أخذَ يتطلّع إلىٰ القاهرة إلا كلية الآداب ، وكان أفرادُ هذا الجيل موزّعي الهوىٰ بين أساتذتهم ، كانوا إذا التقوا تحدّث كلٌّ منهم عن أستاذٍ يؤثره .

أمّا عن طه حسين فيقول فيه الدكتور شكري :

«ولكننا كنا نلتقي جميعاً هذا اللقاء العفوي في ظلال هذه الشخصية المحببة. . . ذلك أنَّ شخصية طه حسين كانت تمثّلُ في عقولنا وقلوبنا هذا الحضور الدائم الذي لا يغيب. . خلال أربع سنوات تخللتها الحرب العالمية الثانية كان الأستاذُ العميدُ محوراً من محاور وجودنا الدراسي ، وتكوننا العلمي ، وما أذكر أننا أغفلنا ساعةً من ساعاته أريد أن أقول ما تأخرنا عن ساعة من ساعاته» .

ثم يتحدّث الدكتور عن متابعته لمحاضراته العامة ، ومناقشاته لرسائل الدراسات العليا . . ثم ينتهي إلىٰ اتجاهات طه حسين فيقول :

«وبعدُ فأيّاً كان الرأيُ في بعض اتجاهات الأستاذ العميد ، فإنّ هذه الاتجاهات رهينةٌ بفترات من العمر ، أو ظرف من الظروف ، وفي تقديري إنّهما ثغرتان : الثغرة التي خلّفها حين كان تحدّث عن الشعر الجاهلي ، والأُخرىٰ التي خلّفها حين كان يخطط لمستقبل الثقافة في مصر ، ولعلَّ الثغرة الثالثة كانت في هذه المخاوف التي أثارتها نشأة مؤسسة الكاتب المصري[١] . . غير أنّ ذلك في تقديري كان مرهوناً بزمن ، وكان ما بعده نسخاً له ، أو رجوعاً عنه ، لم يكن رجوعَ إقرارٍ ، ولكنّه كان إقلاعاً عن الاستمرارِ ، ومضياً في الطريق الآخر المعاكس» .

* * *

---

(١) هي مجلة غير بريئة في مصر أسموهـا (الكاتب المصري) ، وقد تولىٰ الدكتور طه حسين رئاسة تحريرها (ن) .

١٢ ـ طه حسين: بين المحافظة والتجديد[١]

بدأ الدكتور شكري مقالته بالإشارة والاحترام لأستاذه طه حسين، ثم تحدّث عن أثره في الأدب العربي المعاصر، وأسلوبه الناصع الساحر، وأفكاره الجريئة الجديدة، وعن سموّه في العمل الفني والإبداع فيه من خلال الكلمة والجملة، ومن خلال الموسيقا البارعة التي تتولّد عن التئام عوالم كانت غادرتها منذُ زمنٍ بعيدٍ.

وأمّا المحافظة والتجديد عند طه حسين فيقول أستاذنا:

«**والحقُّ أنَّ طه حسين كان مجدِّداً لا ينقطعُ عن المحافظةِ، ولا يتنكّرُ لها، وأنَّ المجتمَعَ من حوله كان محافظاً لا يرغبُ عن التجديد، ولكنّه يخافه حيناً، ويخشىٰ إسرافَه حيناً آخر، ومن اختلاف بين هاتين المعادلتين الصعبتين واتفاقهما من اختلاف المعادلة الفردية والمعادلة الاجتماعية، نستطيعُ أن نفسّرَ كلَّ ما كان من حياة طه حسين، ومن صنيعه، كما نستطيعُ أن نفسّرَ كل ما كان من أثرِهِ وتأثيره**». ثم يناقِشُ الدكتور هذه المسألة، ويأتي بالأمثلة من كتب طه حسين، مع مقارنتها بالكتب القديمة، ككتاب (الطبقات) لابن سلاّم.

وأمّا عن اتجاهات طه حسين (في مستقبل الثقافة في مصر)، فيقول:

«**إنّه من الخير للحقيقة أنْ لا يفهمَ هذا الكتاب فهماً منفصلاً عن الظروف التي كانت فيها مصر، أو كانت فيها أجزاءٌ من الوطن العربي حين صدر الكتاب سنة (١٩٣٨م)، ومع ذلك يظلُّ بعضُ ما قاله الدكتور طه في هذه القضايا فيه الاندفاعُ مرة، والشططُ مرة أخرىٰ، ويظلُّ هذا الحرص علىٰ الحركة، وإن خرجت إلىٰ شيءٍ من اضطراب، ويظلُّ محمولاً علىٰ شعور التحدي الذي كان يلازِمُ الدكتور طه حسين في فتراتٍ من حياته**».

* * *

---

(١) مقالة نُشرت في مجلة المعرفة السورية، العدد ١٥٨، نيسان ١٩٧٥م، من ص٧ ـ ٢٢.

١٣ ـ مقدمة كتاب: (كتب ومؤلفون) لطه حسين[١]

يبدأ الدكتور شكري مقدّمته بالتعريف بتراث طه حسين وغزارته وتنوعه في مجالات الأدب والفكر، وأشار إلىٰ أهمية المقدّمات التي كتبها طه حسين لكثير من الكتب، وقد ظفر الدكتور شكري بعددٍ كبيرٍ من هذه المقدمات، واستقرَّ عنده أنّها لونٌ من ألوان الحياة الأدبية، التي ترتبط بالدكتور طه، والتي تؤلِّف بعضاً من تراثه، وأنّها لذلك جديرةٌ أن تكون مجموعةً في كتاب يؤلِّفُ بينها.

وهذه المقدمات تتشعّب في أنواع أربعة:

١ ـ مقدمات كتب الدراسات الأدبية والتاريخية الحديثة.

٢ ـ مقدمات كتب الأدب المعاصر.

٣ ـ مقدمات كتب الأدب المترجَم.

٤ ـ مقدمات كتب التراث.

بعد هذا التقسيم قام الدكتور شكري بدراسة هذه المقدمات واحدةً بعد أخرىٰ، فبدأ بمقدمة كتاب (فجر الإسلام)، ثم (ضحىٰ الإسلام)، فكتاب (إحياء النحو)، ثم (آثار مصطفىٰ عبد الرازق)، ثم (تقاليد الفروسية عند العرب)، ثم(المختار) للبشري و(قطوفه)، ثم (مذكرات دجاجة)، ثم (قصة الفيلسوف)، لمحمد السباعي ويوسف السباعي، ثم (جمهورية فرحات) لإدريس، ثم مقدّمات (كتب الأدب المترجَم) لجوته.

* * *

---

(١) نشرت المقدّمة من الصفحة (٥ ـ ٥٧) من الكتاب المطبوع بدار العلم للملايين ببيروت، سنة ١٩٨٠م.

١٤ ـ مقدمة كتاب (تقليد وتجديد) لطه حسين[١]

كتاب (تقليد وتجديد) يضمُّ سلسلةً متتاليةً من أحاديث إذاعية عدَّتها عشرون حديثاً حول موضوع: (التقليد والتجديد في الأدب العربي) ألقيت في عام (١٩٥٥م)، وكان للدكتور شكري الفضلُ في الظفرِ بهذه الأحاديث ونشرِها وفاءً لأستاذه الذي يقول فيه:

«إنّنا نقدم هذه الأحاديث علىٰ أنّها بعضٌ من نتاجِ الأستاذ العميد، هذا النتاجُ الغزير الذي كان له في نهضةِ الدراسات الأدبيّةِ والعربيةِ أكبرُ الأثرِ. . . وكان مهما تغايرتِ الآراءُ فيه فيما كتب أو حاضر منعطفاً حادّاً في مسيرة الأدب العربي».

يشير الدكتور شكري في بداية مقدمته إلىٰ: **«أنّ القراءةَ العابرة لهذه الأحاديث لا تكشف بوضوح عن الأبعاد التي كان ينظر إليها الدكتور طه. . . وتلك واحدةٌ من أبرز الصفات التي يتمثّل بها أسلوبُ الدكتور طه ، والتي تغيبُ من خلال سهولة اللفظ وحلاوة التركيب والقدرة علىٰ إكساب الجملة في بنائها هذا النغم الموسيقيّ البارع. . . فالقارئ لا يظفرُ إلا بالفكرة العامة الرئيسة ، لأنَّ شيئاً من الغموض أو شيئاً من الإغماض يقصدُ إليه قصداً. والدكتور طه في أحاديثه هذه يؤكِّدُ أنَّ التجديدَ في الأدب العربي لم يتحقَّقْ علىٰ أكمل وجوهه إلا مرّةً واحدةً. . . عند ظهور الإسلام ، وما قاد إليه ظهورُ الإسلام من أمرِ هذه الحضارة»**. ويقول الدكتور شكري: **«هذه الآراء لا يمكنني إثباتُها أو نفيُها علىٰ خطورتها البالغة»**.

ويختمُ مقدّمته بما قاله الدكتور طه في خاتمة حديثٍ من هذه الأحاديث:
«لا سبيلَ إلىٰ أن يتجدَّدَ أدبُنا تجدُّداً خِصْباً إلا إذا استزادَ أدباؤنا وشعراؤنا من التعليم ، ومن الثقافة بالقديم والجديد في وقتٍ واحدٍ».

* * *

---

(١) نشرت المقدمة من ص٥ ـ ١٨ من الكتاب المطبوع بدار العلم للملايين ببيروت ، سنة ١٩٨٠م.

١٥ ـ مقدمة كتاب (من تاريخ الأدب العربي)

المجلد الأول ـ العصر الجاهلي والعصر الإسلامي[١] :

يبدأ الدكتور شكري مقدّمته بقوله :

«ظلّت كتب الدكتور طه وآثارُه ومؤلفاتُه مثارَ الدراسات الأدبية ومصدرَها . . ولم يعرف تاريخُ الأدب العربي هزةً تشبِهُ الثورة ، وحركةً أقرب إلىٰ التجديد كهذه الهزة التي فجرتها مباحث الدكتور وآراؤه ، علىٰ ما كان يخالِطُها من عنفٍ حيناً ، ومن جرأةٍ حيناً ، ومن تجاوُزٍ في بعض الأحايين» .

ثم ذكر أنَّ آراءه ونظرياته الأدبية موزَّعةٌ بين كتبه ، فهناك بحوثٌ عن الأدب الجاهلي متناثرةٌ هنا وهناك ، وفي بعض ما نُشِرَ له في مؤلَّف ما يصحُّ أن يُجْمَعَ إلىٰ أشباهه ونظائره في مؤلفات أخرىٰ ، ليتكونَ من ذلك عملٌ واحدٌ متناسِقٌ متكامِلٌ برأسه . ثم يقول :

«ولم يكن كلُّ الذي جمعنا هذه الأبحاث وأقمناها علىٰ أساس من العصور الأدبية . . وإنّما تجاوزنا ما هو مطبوع من آثار الدكتور طه ومحاضراته إلىٰ ما لم يُطبع بعدُ ، يعني أننا حرصنا أن نتابع محاضراته التي كان يلقيها في الجامعة علىٰ طلابه، أو في بعض المؤسسات العلمية، أو المهرجانات الأدبية، التي كان يتحدَّثُ فيها ، وتهيأت لنا جملةٌ صالحةٌ من ذلك ، مما لا يعرفه إلاَّ الأقلون ، أكثره مما ظفرنا بها حين كُنّا طلاباً في كلية الآداب نتتلمذُ له» .

المجلد الثاني ـ العصر العباسي الأول (القرنان الثاني والثالث الهجريان)[٢] :

ذكر أستاذنا رحمه الله في مقدّمة الجزء الثالث ص (٧ ، ٨): «أنّ الجزء

---

(١) المقدمة نُشرت من الصفحة ٥ ـ ٨ من الكتاب المطبوع ببيروت ، سنة ١٩٧٥م ، عن دار العلم للملايين .

(٢) نشر هذا الجزء ببيروت ، ١٩٧٦م ، بدار العلم للملايين في ٥٠٣ صفحات بدون مقدمة .

الثاني من الكتاب تفرّدَ بسلسلة من المحاضرات الرائعة عن العصر العباسي ، تناولت جملةً من ظواهره ، وطائفةً من موضوعاته ، وعدداً من شعرائه ، عرفها القرّاء في الوطن العربي للمرة الأولىٰ ، من خلال ما كان من تجميعنا لها ونشرها ، وقد وفقنا إليه ، وانفردنا به ، وذلك أننا وقعنا بحكم ما كان من تلمذتنا علىٰ الدكتور طه ، وفي متابعتنا لنتاجه الأدبي علىٰ أشياءَ لم يكن وقعَ عليها غيرُنا ، وظفرنا بمحاضراتٍ لم يكن أحدٌ يُعنىٰ عناية دقيقة بمتابعتها وتسجيلها والحرصِ عليها» .

المجلد الثالث : العصر العباسي الثاني (القرن الرابع الهجري)[1] :

«هذا الجزء ينصرِفُ إلىٰ دراسة الأدب العربي في القرن الرابع الهجري أزهىٰ العصور العربية في الأدب والفكر ، وأحفلها بمظاهر الحضارة والثقافة . وقد وجّه طه حسين همَّه في هذا القرن إلىٰ الشخصيتين الكبيرتين اللتين انتهىٰ إليهما أمرُ الأدب في شعره ونثره ، واللتين قادتا هذا الأدب إلىٰ قمّته الشامخة ، لتبدأ بعدهما حالةٌ من توقف ، وليكون توقّفه بدايةَ انحدارٍ . . . عنينا شخصيتي المتنبي والمعري .

هذا المجلد ضمَّ جملةً من الكتب والمقالات والمحاضرات للدكتور طه عن هاتين القمتين» .

وقد وُفِّقَ الدكتور ـ في هذا المجلد ـ بحكم تلمذته علىٰ الدكتور طه ، ومتابعته لنتاجه الأدبي إلىٰ أشياءَ لم يكن وقعَ عليها غيرُه ، فظفر بمحاضرات لم يكن يُعنى بها غيرُه العنايةَ الدقيقةَ التي كانت للدكتور شكري فيصل رحمه الله .

* * *

---

(١) المقدمة نُشرت من الصفحة ٥ ـ ٨ من هذا المجلد الذي طبع ببيروت ، ١٩٧٤م ، بدار العلم للملايين .

ملحق بالمقالات التي عثرت عليها، وهذه ليست على سبيل الحصر لأنه كتب مقالات كثيرة في مجالات كثيرة

١ ــ فهرس المقالات التي نشرها الدكتور شكري فيصل في مجلة (الرسالة) المصرية:

عنوان المقال	العدد	السنة	المجلد	الصفحة
الأدب المصري وكيف ننظر إليه	٢٩٦	السابعة	الأول	٤٥٣
فداء الصلح: أبو جندل سهيل بن عمر.	٣٤٨	الثامنة	الأول	٤٣٠
من وحي الفوضى: الدكتور مبارك يناظر	٣٥٠	الثامنة	الأول	٤٩٨
من وحي الحنين: آذار !.. حدثني	٣٥٣	الثامنة	الأول	٦١٥
صفحة من كتاب (مع الغروب)	٣٥٧	الثامنة	الأول	٧٨١
إلى أخي علي الطنطاوي : ولكنها دمشق!	٣٥٩	الثامنة	الأول	٨٥٧
سرابٌ وأمل	٣٩٩	التاسعة	الأول	٢٠٩
شكاةٌ ونجوى	٤٠١	التاسعة	الأول	٢٩٤
من جوفِ الليل	٤٠٩	التاسعة	الأول	٦٢٥
في عين شمس (صفحة من كتاب)	٤١٢	التاسعة	الأول	٧٠٢
مرارةُ اليتم	٤٢١	التاسعة	الثاني	٩٥٤
سيدي رسول الله	٤٥٠	العاشرة	الأول	٢١٦
حنين (صفحة من كتاب)	٤٥٢	العاشرة	الأول	٢٧٢
من ميدان الحياة	٥٢٥	الحادية عشرة	الثاني	٥٩٤
من الأدب القومي يوم.. ويوم	٦٣٩	الثالثة عشرة	الثاني	—
كلمةٌ في رثاء محمد إسعاف النشاشيبي	٧٦١	السادسة عشرة	الأول	١٤٠
على ذكرى حوادث فلسطين.. عار لا يمحى	٧٧٦	السادسة عشرة	الأول	٥٥٥
أيها المليكُ العظيم	٧٧٨	السادسة عشرة	الأول	٦٠٧

* * *

٢ ــ فهرس المقالات التي نشرها الدكتور شكري فيصل في مجلة (الثقافة) المصرية

عنوان المقال	العدد	السنة	المجلد	الصفحة
حركةُ الترجمة والنشر في العالم العربي	٤٣٢	١٩٤٧م	يناير ــ مارس	٢٢ــ ٢٣
حملةُ نابليون	٤٢٧	١٩٤٧م	يناير ــ مارس	٩ ــ ١٢
حولَ الوحدة اللغوية	٣٤٦	١٩٤٧م	إبريل ــ يونيو	٩ــ ١١
الاستعمارُ العقلي والفكر العربي	٤٤٢	١٩٤٧م	إبريل ــ يونيو	٣ ــ ٥
الحكوماتُ العربيةُ والشعوب العربية	٤٧٨	١٩٤٨م	يناير ــ مارس	٨ ــ ١٠
بين سورية ولبنان	٥٨٨	١٩٥٠م	إبريل ــ يونيو	٥ ــ ٨
جامعة الدول العربية	٥٩٠	١٩٥٠م	إبريل ــ يونيو	١٥ ــ ١٦
نقد الكتب: (بعد الأعاصير)	٦٠٠	١٩٥٠م	إبريل ــ يونيو	٢٤ ــ ٢٦
عقدة وثلاث مشكلات	٦٠١	١٩٥٠م	يوليو ــ سبتمبر	٢٠ ــ ٢٢
نقد كتاب: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟)	٦٢٥	١٩٥٠م	أكتوبر ــ ديسمبر	٢٨ ــ ٣٠

* * *

٣ ـــ فهرس المقالاتِ التي نشرها الدكتور شكري فيصل في (مجلة مجمع اللغة العربية) بدمشق

عنوان المقال	السنة	المجلد	الصفحات
مقدمة المرزوقي في شرحه لحماسة أبي تمام	١٩٥٢م	٢٧	٧٥ ـــ ١٠٣
نثر شوقي	١٩٥٩م	٣٤	٦٦ ـــ ٨٧
خطاب الدكتور شكري فيصل في حفل استقباله عضواً بالمجمع	١٩٦٢م	٣٧	٣٠٩ ـــ ٣٤٠
تعريف ونقد كتاب (النبوغ المغربي) لعبد الله كنون	١٩٦٣م	٣٨	٥٠٨ ـــ ٥١٣
تعريف ونقد لكتاب (تهذيب الأخلاق) لعبد الحي الحسني	١٩٦٧م	٤٢	٨١٥ ـــ ٨١٧
خطاب الدكتور شكري فيصل في حفل استقبال الدكتور أمجد الطرابلسي	١٩٧٢م	٤٧	١٥٤ ـــ ١٨٩
المصطلح المعرّب وتدريس العلوم بالعربية	١٩٧٢م	٤٧	٣٧٩ ـــ ٣٨٨
ثغورٌ على الخريطة اللغوية العربية	١٩٧٢م	٤٧	٦٤٩ ـــ ٦٥٧
الأصالة والتجديد في المقال الأدبي	١٩٧٢م	٤٧	٧٤٣ ـــ ٧٧١
تعريف ونقد كتاب (وثائق هرمة من أخبار فلسطين عام ١٩٢٠م).	١٩٧٣م	٤٨	١٨٢ ـــ ١٨٤
تقريرٌ عن أعمال المجمع في سنة ١٩٧١ ـــ ١٩٧٢م	١٩٧٣م	٤٨	٢٠٧ ـــ ٢٢٣
(مشوار المحاضرة) خلال نصف قرن ويزيد	١٩٧٣م	٤٨	٢٧٧ ـــ ٣٠٨
(خطط الشام) في طبعة جديدة: تعريف ونقد	١٩٧٣م	٤٨	٣٨١ ـــ ٣٩٢
حول ابن جدار	١٩٧٣م	٤٨	٧٠٠ ـــ ٧٠٣
تعريف ونقدُ كتاب (الدعائم الخلقية للقوانين الشرعية)	١٩٧٣م	٤٨	٩١٧ ـــ ٩٢٢
مؤتمر التعريب الثاني ١٩٨٣م	١٩٧٤م	٤٩	١٨٤ ـــ ١٩٤
التقرير السنوي للأمانة العامة لمجمع اللغة العربية	١٩٧٤م	٤٩	٢٠٤ ـــ ٢٣٦

عنوان المقال	السنة	المجلد	الصفحات
تعريف ونقد كتاب (دلائل النظام) للمعلم عبد الحميد الفراهي	١٩٧٤م	٤٩	٩٠٨ـ ٩١٥
تعريف ونقد كتاب (كلمات وأحاديث) لمحمد بهجة البيطار	١٩٧٤م	٤٩	٩١٦ـ ٩١٩
نقد مسرحية (فاجعة مايرلنغ) لعدنان مردم بك	١٩٧٥م	٥٠	٤٣٢ـ ٤٣٩
تعريف ونقد كتاب (نظام الحكم في الشريعة والتاريخ) لظافر القاسمي	١٩٧٥م	٥٠	٨٤٣ـ ٨٤٨
تعريف ونقد كتاب (ولاّدة وأثرُها في حياة ابن زيدون) لعبد الرزاق الهلالي	١٩٧٦م	٥١	٦١٦ـ ٦٢١
خطاب الدكتور شكري فيصل في حفل استقبال الدكتور محمد هيثم الخياط	١٩٧٦م	٥١	٦٥١ـ ٦٦٩
محمد كرد علي من خلال (المقتبس)	١٩٧٧م	٥٢	١١٤ ـ ١٤١
اللغة العربية خلال ربع قرن في ميدان التعلم والتعليم	١٩٧٨م	٥٣	٧٤٠ ـ ٧٦٤
وفاة بعض أعضاء المجمع المراسلين	١٩٧٩م	٥٤	٢٣٣ ـ ٢٣٥
ندوة اتحاد المجامع اللغوية في عمان سنة ١٩٧٨م	١٩٧٩م	٥٤	٢٢٩ ـ ٢٣٢
محمد جميل بيهم ومجمع اللغة العربية	١٩٨٠م	٥٥	١٩١ ـ ٣٠٩
فقيد المجمع شفيق جبري	١٩٨٠م	٥٥	٤٠٦ ـ ٤١٠
مجمعي افتقدناه الدكتور ميشيل خوري	١٩٨٠م	٥٥	٦٧٧ ـ ٦٨١

* * *

٤ ـــ فهرس المقالاتِ التي نشرها الدكتور شكري فيصل في مجلة (المعرفة) السورية

عنوان المقال	العدد	التاريخ	الصفحة
نحو معرفة جديدة للنقد: نافــذةٌ علــى النقد الجاهلي العربي	١٣٦	حزيران١٩٧٣م	٧١
قراءةٌ جديد لمعلقة النابغة	١٣٧	تموز ١٩٧٣م	٤٨
الاستشراق المعاصر: مــن الأزمــة إلى تجاوزها	١٣٩	أيلول ١٩٧٣م	٢٤
الواقعُ والرؤية في الوجدان العربي	١٣٢	كانون الأول ١٩٧٣م	١٧
طه حسين: ذكريات ومواقف	١٥٣	تشرين الثاني ١٩٧٤م	٢٣
نحو حضارة عربية جديدة	١٥٦	شباط ١٩٧٥م	٥٧
عوائقُ في طريق التعريب	١٥٧	آذار ١٩٧٥م	٣٨
طه حسين بين المحافظة والتجديد	١٥٨	نيسان ١٩٧٥م	٧
ثقافتُنا العربية بين تشرين الذي كــان وتشرين الذي يكون	١٦٤	تشرين الأول ١٩٧٥م	٣١
(دوحةُ الأدب) وجه من وجوه الحركة النسائية	١٦٦	كانون الأول ١٩٧٥م	١١٢
المصطلحُ العلمي في حاضرة اللغة العربية	١٦٨	شباط ١٩٧٦م	٣٢
لماذا.. لماذا.. لماذا..؟	١٧١	أيار ١٩٧٦م	١٩٢
أصواتٌ وتأمّلات ورؤى	١٨٠	شباط ١٩٧٧م	١٨٢
التطور الاجتماعي والتطور اللغوي	١٨٣	أيار ١٩٧٧م	٤
العرب المعاصرون والتاريخ العربي	١٨٥	تموز ١٩٧٧م	١٧٧
مشكلة اللغة العربية في الأدب المعاصر	١٨٩	تشرين الثاني ١٩٧٧م	٥٤
خير الدين الزركلي بين الشعر والنثر	١٩٥	أيار ١٩٧٨م	١١٧
أزمةُ الفكر القومي والنظرية القومية	٢١٦	شباط ١٩٨٠م	٥
شفيق جبري صفحة لم تطو	٢١٨	نيسان ١٩٨٠م	٥

* * *

المصادر والمراجع

١ ـ **أعلام التراث العربي في العصر الحديث** ، محمود الأرناؤوط ، مكتبة دار العروبة ـ الكويت ، دار ابن العماد بيروت ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م .

٢ ـ **تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر** ، د. محمد مطيع الحافظ ، د. نزار أباظة (١ ـ ٣) دمشق ، دار الفكر ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م .

٣ ـ **خطاب الدكتور عبد الوهاب حومد في حفل استقباله بمجمع اللغة العربية** بدمشق ، (مجلة المجمع ، المجلد ٦٧) .

٤ ـ **الدكتور شكري فيصل وصداقة خمسين عاماً** ، بقلم الدكتور عدنان الخطيب ـ مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠٦هـ .

٥ ـ **ذكريات** ، علي الطنطاوي ـ الحلقة : ١٦٤ .

٦ ـ **عالمنا العربي** ، نعمة زيدان ، بيروت ١٩٥٦م .

٧ ـ **عبقريات من بلادي** ، عبد الغني العطري ، دمشق ، دار البشائر بدمشق .

٨ ـ **مجلة البعث الإسلامي** ، العدد الثامن ، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م ، مقال للدكتور محمد اجتباء الندوي .

٩ ـ **مجلة الثقافة العربية** ، محمود موعد ، ليبية ، أيار ١٩٧٥م .

١٠ ـ **مجلة الفيصل** ، الرياض ، العدد ١٠٦ .

١١ ـ **مجلة مجمع اللغة العربي الأردني** ، السنة العاشرة ، العدد ٣٠ ، مقال للدكتور نسيب النشاوي .

١٢ ـ مجلة مجمع اللغة العربية ، بدمشق ، المجلد ٣٧ ، مقال للأمير جعفر الحسني ، ص٢٠٩ .

١٣ ـ مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، الأعداد ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٥ .

١٤ ـ مذكرات المؤلف .

١٥ ـ معجم المؤلفين السوريين ، عبد القادر عياش ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨٥م .

١٦ ـ الملف المجمعي للدكتور شكري فيصل في مجمع اللغة العربية بدمشق .

١٧ ـ الموسوعة الموجزة ، حسان الكاتب .

* * *

الفهرس

الملحق

* * *